سياسة في الجنّة

عبد الجبّار عدوان

سياسة في الجنّة

دار الفارابي

الكتاب: سياسة في الجنّة
المؤلف: عبد الجبّار عدوان
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: **دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان**
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: farabi@inco.com.lb
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2008
ISBN: 978-9953-71-

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

مقدمة

قال رسول اللَّه (صلَّى اللَّه عليه وسلّم): «إنما الأعمالُ بالنِّيّاتِ وإنَّما لِكلِّ امرِىءٍ ما نَوى، فمَن كانت هِجرتُه إلى اللَّهِ ورسولهِ فهجرتُه إلى اللَّهِ ورسولهِ، ومَن كانت هِجرتُه إلى دنيا يُصيبُها أو امرأةٍ يتزَوَّجها فهجرتُه إلى مَا هاجرَ إليه».

ومن نافل القول أنّ هذه الرواية الفلسفية التي بين أيديكم، هي رواية خياليّة فيما يخصّ حدوثها. لكن خلفيتها تعتمد على ما ورد في كتب سماوية وأحاديث نبوية، ومعتقدات سائدة بين البشر حول الجنّة والنار. أهل الجنّة سيرون من نعيمهم كل شيء، ويروننا نحن أهلهم وأقوامهم وأبناء وبنات أديانهم، ولكننا لن نراهم وإن كنّا نعرف بعض مواصفات الخلود الذي سيتمتعون به بعد يوم القيامة.

يقول ابن الجوزي: «إخواني تفكّروا في الحشر والمعاد، وتذكّروا حين تقوم الأشهاد: إن في القيامة لحسرات، وإن في الحشر لزفرات، وإن عند الصراط لعثرات، وإن عند الميزان لعبرات، وإن الظلم يومئذ ظلمات، والكتب تحوي حتى النظرات، وإن الحسرة العظمى عند السيئات، فريق في الجنّة يرتقون في الدرجات، وفريق في السّعير يهبطون الدركات، وما بينك وبين هذا إلّا أن يقال: فلان مات، وتقول: رَبِّ ارجعوني، فيقال: فات».

إذا شاءت حكمة اللَّه أن توجد جنّة، قبل القيامة، لمختارين ممّن تغمّدهم برحمته، فماذا يقولون يا ترى وهم يراقبوننا؟ في هذه

الرواية يمنح الرحمن أهل هذه الجنّة القدرة على رؤية الماضي منذ أن خُلق أبونا وأمنا، آدم وحواء، ولكنهم لا يرون المستقبل، وبالتالي يجهلون مصيرنا على الأرض، وبالطبع فهم لا يعرفون موعد يوم القيامة، بل إنهم متردّدون إذا ما كان عليهم تمنِّي اقترابها أو تأخيره.

هل تؤثّر مشاكلنا على الأرض في يومهم وفي أفكارهم؟ هل تختلف رؤاهم حول طرق الإصلاح أو الحلول الممكنة للقضايا الأرضية؟ كيف تفكّر نساء الجنّة الإنسيات تجاه وضع أخواتهن على الأرض وتجاه حور العين؟ ثلاثة تساؤلات من عشرات غيرها تتعرّض لها هذه الرواية المفتوحة زمنياً منذ بداية التكوين وحتى ما قبل انتهاء عدوان إسرائيل على لبنان صيف 2006.

قضايا هذه الرواية ليست عربية صرفة أو سياسية بحتة، وأبطالها كثر جداً وهم أُحضروا من كل زمان ومكان. ذكور وإناث، منهم قيادات سابقة، وفلاسفة، وجنرالات، وشيوخ، وأناس عاديون بالطبع. بعضهم شخصيات ممن تقطن طبقات الجنّة المئة، وغيرهم شخصيات تمّ استدعاؤها من جهنّم، أو من القبور، أو من جنّات النصارى واليهود، ليشاركوا في مؤتمر حول يوم القيامة.

إنّ مواضيع الجنّة تهيمن على ذهن كل المؤمنين، والتطرق إلى بعضها بهذا الأسلوب الروائي غير المطروق في السابق، سيبقى ناقصاً حتماً، مهما توسّعت الشروحات. وفي كل الظروف فهذه الرواية كتبت بحسن نية، وعلى أمل تحريك حوار ذاتي، أو جماعي، مفيد في قضايا أرضية حياتية سياسية وفلسفية. أمّا اتخاذ الجنّة كساحة للرواية فقد فتح أيضاً المجال للقاءات لا يمكن أن تحصل في مواضع أخرى، وأتاح متابعة شيّقة للماضي ومراقبة

للحاضر الأرضي، لنرى أن البشر يدوّرون مشاكلهم ويكرّرونها عبر التاريخ، وأنهم لا يتّعظون.

قال أبو حامد الغزالي: «... وإن كانت نيتك وقصدك، بينك وبين اللَّه تعالى، من طلب العلم: الهداية دون مجرد الرواية؛ فأبشر؛ فإن الملائكة تبسط لك أجنحتها إذا مشيت، وحيتان البحر تستغفر لك إذا سعيت. ولكن ينبغي لك أن تعلم، قبل كل شيء، أن الهداية التي هي ثمرة العلم لها بداية ونهاية، وظاهر وباطن، ولا وصول إلى نهايتها إلّا بعد إحكام بدايتها، ولا عثور على باطنها إلّا بعد الوقوف على ظاهرها».

وجاء في صحيح البخاري قول مجاهد، رحمه اللَّه: «لا يتعلّم العلم مستحيٍ ولا متكبِّر». وفي السياق نفسه جاء في صحيح مسلم عن عائشة رضي اللَّه عنها: «نعم النساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقّهن في الدين».

فاللَّه حق، والجنّة والنار وعد إلّهي، وكذلك الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة. الحذر كل الحذر مستوجب من المبالغين في الوصف وفي التفسير. قد تكون غايتهم التجميل، ولكن النتيجة هي الابتعاد بالثوابت عن المنطق، والتغرير بالعقول، والمساهمة في بناء الأصولية المتعصبة الهدّامة. أسأل اللَّه أن يحقِّق الهدف من هذه الرواية، وأن تنال تفهّم القرّاء، حتى وإن بدت طريقها متعرّجة متفلسفة.

الأندلس

ملقا، أغسطس/آب 2007

القوّامات

«أنا سعيد جداً بشرف اللقاء معك كلما قمتِ بزيارة طبقتنا، ولو سُمح لي لزرتك في الفردوس، واللّه عليم بما أكنّه في قلبي لآل البيت، وهو الحكيم في أوامره وتكوينه لجنّة الخلد».

«لا بأس عليك، والطبقة السابعة مليئة بأهل الخير ممن خدموا ربهم وشعبهم وغُفرت لهم أخطاؤهم. فالنار بكل درجاتها مليئة بالحكام والملوك والمسؤولين الذين لم تُغفر لهم سيئاتهم بعد». تنبّه ياسر إلى هدوء مشوب ببعض القلق في نبرات نفيسة التي كان يزور مقامها في القاهرة أيام دراسته هناك، وأصبحت تزوره كلما مرّت على طبقته من الجنّة.

«هل يصدق حدسي لو قلت إنّ تذمّر النساء لا يزال قائماً، ومساعيكِ الحميدة لما تثمر بعد؟».

«صدقت، وربما عجزت عن إقناعهن. كلامهن كثير وثقيل، ولا يستوعبن العواقب. بعضهن يُظهرن عدم الاهتمام باحتمال تنزيلهن إلى أدنى طبقات الجنّة، وأخريات يعتبرن أنّ الخلود يثبت الطبقات أو يرفعها، ولكنه لا يخفضها. لا يوجد بينهن من تظن باحتمال الخروج من الجنّة».

«يبدو أنهن يعرفن حقوقهن تماماً، ويتمرّدن على الواجبات، لكن هذا مخالف للديمقراطية».

«هذه الديمقراطية..» تنهّدت نفيسة وأزاحت بكفّها بعض حبات

اللؤلؤ فوق التراب الزعفراني ثم واصلت: «.. هذه الديمقراطية هي سبب المشكلة. ينظرن إلى ما يجري على الأرض ويطالبن بالمساواة مع الرجال في السماء».

«لكن المساواة لا تعمّ أي بلد على الأرض. اجمعيني بزعيمات التمرّد فربما أقنعتهن على الأقل بالانتظار. هل كلهن مسلمات أباً عن جد؟».

«لا فرق بين المسلمين إلّا بالتقوى. فبعضهن أي المسلمات سليلات مسلمين، وبعضهن الآخر ممن تشفّع لهنّ جدي إكراماً لعروبتهنّ أيام الجاهلية، وغيرهن من عصور أبعد واعتبرن مسلمات لحسن نياتهنّ وخير أعمالهن، وأكرمن ببعض طبقات الجنّة السبع الدنيا، لكن بينهن أيضاً نساء أُحضرن هنا أخيراً. كل منهن لديها حجج مشتركة مع الأخريات، ومبرّرات إضافية مميّزة عن غيرها».

تذكّر ياسر أنّ والدة نفيسة كانت أعجمية، أم ولد، وأسلمت بعد زواجها من الحسن بن زيد بن الحسن بن علي زوج فاطمة بنت الرسول عليه السلام، فندم في قرارة نفسه على سؤاله عن أصول المنتفضات، ولكنه قرّر عدم التأسف واعتبار ظنّها بجهالته أفضل من تذكيرها بأنه يعرف ولكنه سها عن الأمر. عاد إلى موضوع الحوار بسؤالها: «هل التمرّد واسع الانتشار؟».

«الأمر يقتصر على السابعة وما تحتها..» ألقت نفيسة بياقوتة خضراء في مياه النهر فتحرّكت الدوائر صافية، وشاهدا الياقوتة تهبط الهوينا حتى حطّت بين أخواتها من مختلف الأحجام والألوان: «.. الطبقات العليا صافية مثل هذا الكوثر».

«مشاكلنا هنا وسط أصناف هذا النعيم واللذات، وما لم تره عين ولا سمعت به أذن، يذكّرني بالمشاكل أيام الشقاء على الأرض».

كان في نفس ياسر غرض لهذه المقدمة، ولم يكن يعرف إذا كانت

نفيسة تملك قدرة الاطلاع على ما يشغله ويدور في رأسه أم لا. واصل حديثه: «بعض سكان طبقتنا أبلغوني بنعمة اللّه عليهم في التواصل عبر الحلم مع أحبائهم على الأرض..» كفّ عن الكلام وفهمت أنه لا يملك هذه الهدية ويتمنّاها.

«إنها نعمة ربانية يا ياسر، ولها أحكام وشروط، ويمنحها الجبار من يريد بغير حساب. لو كان بوسعي إرشادك إلى طريقها لما بخلت عليك. لكنها كما قلت، غير مكتسبة بعلم وإنما هي منحة». نهضا عن صخرتين ذهبيتين وسارا في ظلّ شجرة تتدلّى أفرعها أمامهم محمّلة بأنواع متعدّدة من الفواكه الناضجة. قطف حبة تين فنمت أخرى محلها قبل أن تصل يده بالتينة إلى نفيسة، التي كانت تشرح له فلسفة وشروط التواصل عبر الحلم بين أهل الجنّة وأهل الأرض. صاحب تلك المنحة هو الإنسان طيّب القلب والذي لن يستغلّها أبداً لغير طمأنة أعز من يحبّهم. لا يحدّثهم عمّا في الجنّة حتى لا يُكرههم في حياة الأرض، أو يبعدهم عن أعمالهم ومعيشتهم ليتفرّغوا للعبادات ضماناً للجنّة. لا يطالبهم بثأر ولا بعمل شر أو خير، وإنما تبادل الطمأنينة. فكلما توسّعت هي في الشرح، يزيد اقتناع ياسر بأن نفيسة تعرف غرضه من السعي خلف منحة التواصل مع أهل الأرض، وبالتالي تتلاشى أمانيه، وشعر ببعض الانقباض حتى قالت له: «ستجد هنا الكثير مما يشغلك عن الأرض، إحمدْ ربك وأكثرْ من الشّكر والتعبّد، فأنت هنا خالد مدى الدهر، تنعم ولا تيأس، لا يبلى لك ثوب ولا يفنى شبابك، وسيصلك بعض رفاقك تباعاً».

«الحمد للّه على هذا النعيم. جنّات الآخرين لا تقارن حتى بأدنى طبقات جنّتنا، الحمد للّه. رفاقي هنا من الأطياب أيضاً، ولكني لا أخفيك شوقي لرؤية رفاق في طبقات أعلى».

«بوسعهم زيارتك هنا متى شاؤوا، وبوسعك زيارة من تريد في الطبقات الست الأولى. لا تنسَ أنّ القدير خصّك بفرصة اللقاء مع أصدقائك من أهل الكتاب أيضاً».

«الحمد للّه والتسبيح له، هذا حق، والشكر لأبينا إبراهيم خليل اللّه، فهو الذي تشفّع لي ووفّر لي هذا التخصيص، ولولاه لكنت الآن في النار يتفرّج عليّ فيها من يريد من سكان كل طبقات الجنّة». خرّ ياسر على ركبتيه وجارته الضيفة وانغمسا في الصلوات.

ارتحلت نفيسة بعد أن وعدت ياسر بالمرور على بعض رفاقه وإبلاغهم تحيّاته وآماله، وحصل منها على أسماء أزواج بعض المتذمّرات من سكان طبقته وجلّهم من أفضل أصناف عرب الجاهلية، وكبار فئة من فازوا بالشفاعة، أولئك الذين عملوا المتناقضات من كبائر الإيجابيات والسلبيات وانتقلوا بعد العقاب من النار إلى الطبقة السابعة في الجنّة.

«أين الملفات التي تركتها على الطاولة هنا؟».

«رأيتها فارغة فأفنيتها حتى يروق لك المكان». أجابته حورية وهي تمشّط شعرها الأشقر وتضيء حليها المكان المحيط بها، فتتقاطع دوائر النور مع ما يشعّ من أخواتها الحوريات الستّ.

«من الآن فصاعداً لا تنظّفن ما على المكتب إلّا حين آمركن بذلك».

«سمعاً وطاعة يا بعلنا». قالت السبع بصوت موسيقي ناعم وقد لمع بريق أسنانهن كعقد اللؤلؤ.

«لست ببعلكنّ، ولكنكنّ جوارٍ خلقهن الخالق في الجنّة لخدمتنا. كون زوجتي غير موجودة معنا هنا، لا يعني أني بعلكن». قبل أن يغادر ياسر باب خيمته وهن من خلفه مجيبات طائعات خافضات

الرؤوس، أكمل حديثه بشيء من الحدّة: «عندما أعود أريد رؤيتكن بلباس غير هذا الشفاف، ولا أريد رؤية عظامكنّ من خلال بياض البدن. تستّرن قليلاً لزيادة التشوّق». تذكّر بعد خطوات من باب الخيمة أنه يريد طبخة ملوخية بالأرانب، فقد أعادت له زيارة نفيسة طعم تلك الأكلة التي عشقها منذ أيام دراسته وإقامته في مصر، وحرص على أكلها مرة كل أسبوع على الأقل حتى دسّوا له السمّ فيها. عاد إلى الخيمة فوجدهن قد عدن إلى العناية بأنفسهن: «أريد اليوم ملوخية بالأرانب، سأرى إذا كانت إحداكن تتقنها».

وقف ياسر أمام بيت اهتدى إليه بسهولة عبر السؤال والوصف الذي أبلغته به نفيسة: «يا كلثوم بن مالك، ضيف ببابك فاخرج للسلام». فُتح باب يتوسط جداراً من حجارة فضية، وظهر خلف مَنْ فتحت الباب عرش عظيم من خشب الأبنوس: «أين كلثوم يا جارية؟» سألها وقد خفض رأسه حتى لا ينظر إلى حريم غيره.

«لست بجارية لأحد، وهذا البيت لا جواري فيه. من أنت عرِّف بنفسك قبَّح اللّه ألفاظك».

«ياسر عرفات، رئيس فلسطين وناصر شعبها..».

«عرفتك، فقد تابعنا أفعالك، ولا أدري ما الذي أوصلك إلى هنا، ولولا أصول الضيافة لأسمعتك غير ذلك». عرفها قبل أن تذكر اسمها، فمن أجلها حضر ليتحدّث مع بعلها.

«من أكرمك بهذا المقام أكرمني أيضاً يا ليلى بنت مهلهل التغلبي. أين كلثوم يا ابنة خال امرئ القيس وابنة أخي كُليب، لا تطيلي عليَّ الحديث؟».

«لست ببطلة مؤتمرات الحديث الطويل الفارغ، كلامي مختصر، وكلمة مني تقتل الملوك، فأنا أم عمرو بن كلثوم. ستجد غايتك على نهر البيدخ، فإن شئت فانصرف إليه». تجرّع ياسر الإهانة

بوصفها له بطل مؤتمرات وليس مثل ليلى التي قتل ابنها ملك الحيرة في دار ملكه. لم يكن يتوقّع أن كلثوم يذهب إلى نهر البيدخ ليتفرّج هناك على الحور الناشئات، فيلمس معصم من تعجبه منهن لتتبعه حيث يريد.

«أفرغت بيتك يا بنت الأكارم من حور العين، منحه اللّه لعباده الصالحين، فذهب بعلك إلى البيدخ يتصيّد. أليست الأولى أفضل من الثانية؟».

«وماذا ينقصني ليختار إحدى السيئتين؟ ألم يقل عزّ وجل في كتابه عن أمثالي (عرباً أتراباً)» قاطعها ياسر بأن القرآن وصف الحوريات أيضاً بأنهن «كواعب أتراباً»، وكأنها توقّعت مثل هذا الاستشهاد وتعوّدت الردّ عليه إذ أكملت: «.. صحيح، لكن الرسول فضّل نساء الأرض على الحور العين كفضل الظهارة على البطانة».

«وهل تظنّين أن الرسول الكريم وأياً من الأنبياء يقبل بما تخطّطين له».

«إذا جاءنا أمر رباني، أو سمعنا من فم الرسول مباشرة طلباً بالخضوع ونبذ السخط وقبول هذا الحال، فسوف نأتمر فوراً. ما نريده لا يغضب اللّه والرسول والأنبياء». تذكّر ياسر أن مهمته العثور على حل وسط، وهي تتطلب إبقاء الخطوط مفتوحة مع ليلى وأخواتها، كما اعتبر جملتها الأخيرة مفصلية.

«هذا واللّه يا أم عمرو عين الصواب، واعلمي أنني تنازلت طوعاً عن غالبية الحور في خيمتي، ولولا الخوف من اتهامي بالجحود لاستغنيت عن السبع المتبقيات».

«إذهب وأقنع من تجدهم على البيدخ بكلامك هذا وستجد بعضهم يملك زوجات من نساء الأرض ألبس اللّه وجوههن النور،

وأجسادهن الحرير، بيض اللون ناعمات. فهم يملكون سبعين حورية، ولا يكفيهم كل ذلك فيذهبون لتصيد الجواري في البيدخ. إن قالوا لك هذه من نِعَم اللَّه، ماذا ستقول لهم؟».

«سأطالبهم بأن يكتفوا ببعضها. أستودعك اللَّه، وأتمنى أن يتواصل حوارنا».

جلس ياسر على حافة نهر البيدخ ينتظر خروج كلثوم، والجارية التي اختارها، من الماء. تعجب من دناءة نفس الرجال الذين فتحت لهم أبواب الجنّة؛ صحيح أن كل ما فيها من متع خصّصت لهم، ولكنهم هنا أزواج أيضاً، الصالحون للصالحات. ثم ما هذا التعلق بالجنس بينما النكاح دحماً دحماً ولا مني فيه ولا حبل ولا ميلاد. ألا يكفي واحدة طالما أنها تعود كل ليلة بكراً كما كانت لتدحم كما يحلو لبعلها؟ نعم، من الذين لا زوجات لهم، أو من لم تحضر زوجاتهم إلى الجنّة يمكن تخييرهم بين بعض الحوريات، أما سبعون واحدة متشابهات في حسن الأجساد والعشرة لينكحهن كلهن، فلا مبرر له.

«السلام عليك يا ابن القدوة، وأهلاً بك على ضفاف البيدخ». قاطعت التحية حبل أفكاره؟

«وعليك السلام يا ابن مالك، يا من جدّك عتاب، أفرس رجال عصره، يا بعل أجمل وأذكى وأشرف نساء العرب».

«تحيتك الطويلة توحي بلقائك للتو ليلى وكسبها لك نصيراً. ظننتك وصلت للاستمتاع، وأنت المحروم من الزوجة. وجودي هنا لا يخالف أمر اللَّه، بل هو شكر على نعمته. إذا قضى اللَّه أو رسوله أو ملائكته غير ذلك فسأكون من الطائعين». استمع ياسر إلى هذا الشرح الكامل الوافي المعبّر عن الموقف بدقة، واختار تغيير الحديث بطلب توضيحات من كلثوم عن حياة ليلى على الأرض.

«تبادلت بالفعل بعض الحديث مع ليلى قبل وصولي إلى هنا، ولا أخفيك أنها بهرتني بكلامها، وإن كنت لم أفهم بعض قولها، مثل أن كلمة منها تقتل ملكاً».

«كلمتها، أو كلمتاها، قتلت ملك الحيرة عمرو بن هند. قالت واذلاه! يا لتغلب! فقتل ابني الملك». لبس كلثوم ثيابه الحريرية الصفراء والخضراء، وصرف الجارية وسار إلى جانب ياسر على ضفاف البيدخ يحدّثه عن تلك الأيام من الجاهلية، وعزة النساء وكثرة انتساب الفرسان والملوك إلى أمهاتهم. كان عمرو بن هند قد سأل ندماءه إذا كان هناك بين العرب من تأنف أمه من خدمة هند. «أخبروه أنها ليلى بنت المهلهل زوجتي وأم عمرو سيد تغلب من بعدي. اغتاظ ابن هند وأرسل دعوة إلى ابني في الحجاز أن يحضر لزيارة الحيرة ويحمل معه أمه لزيارة هند. ذهب ولدي بالفرسان ولم يدر أن ملك الحيرة طلب من أمه هند أن تذل ليلى إذا ما جلستا إلى الطعام». سحر كلثوم ياسر بهذه الرواية التي حدثت بعد مماته وعرف تفاصيلها بعد أن نالته الشفاعة ودخل الجنّة. «طلبت هند من ليلى أن تناولها طبق طعام، فردّت زوجتي عليها بأن على صاحبة الحاجة أن تقوم إلى حاجتها، لكن هند كرّرت السؤال، فكرّرت ليلى الإجابة مرتين وصرخت في الثالثة واذلاه، يا لتغلب». اقشعرّ جسد الرجلين وتبلّلت مآقي الأعين، ثم واصل كلثوم بعد ثوانٍ: «سمع ابني من الخيمة المجاورة نداء أمه، نظر إلى عيون الملك واستشفّ مخططه، وقعت عيونه على سيف الملك معلقاً على عمود الخيمة، وكان الجميع تركوا أسلحتهم خارجها. قفز إلى السيف وأطار عنق عمرو بن هند، وسيطر رجال تغلب على الأمر ونهبوا منازل ابن هند وعادوا من دون أن يخسروا رجلاً واحداً».

«للّه درّك ودرّ ابنك، وهل تُترك زوجة كهذه وحدها في البيت؟».

«كان ذلك قرارها، طالبتني بطرد حور العين ففعلت، وأنا أنفّذ كل طلباتها».

«إذاً هي راضية عن حضورك للبيدخ! فهمت من نبرتها غير ذلك».

«اللّه ورسوله وملائكته راضون عن أفعالي. لقد نفّذت طلبها فيما يخصّ الحال في البيت، لكن حقوقي وحريتي خارجه شيء آخر».

«لكن البغاء لا يرضي الزوجات، وأنت ستغضب لو هي فعلت مثل فعلك». تعجّب ياسر من خروج تلك الكلمات من فمه، وقبل أن يخفّف من وقعها على كلثوم قابلهما الحجاج ابن يوسف، فانشغلا في ردّ التحية، ووقف الثلاثة يتجاملون حتى نوّه كلثوم بمعرفة الحجّاج بالتطورات وعاد لوصل الحديث.

«يمكنك أن تسمِّيه ما تشاء، لكن حقيقة الأمر أنه مسموح هنا كما كان مسموحاً ومعروفاً أيام الجاهلية. نساؤنا شرفنا، ومن أجلهن أشعلنا حروباً. والذين قُتلوا لتعدِّيهم بالقول على الشريفات أكثر من اللواتي قُتلن لإخلالهنّ بالشرف. يعرفن أن عليهن صون فروجهن، ولم يخف عليهن أبداً اتخاذ الرجال لجاريات. نحن ميّزنا بين الزوجة ورفعتها واحترامها وصيانتها، وبين الجارية التي يمكن فعل ما تريد معها. هذا الحال الآن ليس مختلفاً، فلماذا يردن حجبنا وفرض الطاعة علينا؟».

«إن كيدهن لعظيم. لولاهن لما كنت أنا في السابعة معكم». قال الحجّاج وسط استغراب الرجلين من انعدام لباقته.

«يمكنك النزول إلى الأولى يا ابن يوسف، أو حتى العودة إلى الجحيم إذا لم تعجبك جيرتنا». تحرّك كلثوم بعد تذكير الرجل

بإقامته في جهنّم ردحاً من الزمن، وجاراه ياسر وتبعهما الحجاج مُفسراً.

«ظننتكما تعرفان قصتي مع أم البنين وأنها السبب في وجودي بينكما، ولم أقصد الترفّع عنكما...».

«إذاً اضبط كلامك، لسانك هو الذي أوقعك مع أم البنين أيضاً، مرة حين ذممت النساء أمام الخليفة الوليد وبلغ الأمر زوجته، والمرة الثانية حين روّجت عنها قصة غرام مع وضّاح اليمن، وهذه الأقاويل، مع أرواح الأبرياء الذين قتلتهم ظلماً، وضعتك في النار دهراً».

«لا أدري لغضبك سبباً يا كلثوم، لقد رحمني اللّه وأنت تواصل تحقيري. كيف كان حال العراق لو لم أعاملهم بالشدّة وأضبط أمرهم؟».

«أسوأ من حالهم الآن لا يمكن أن يكون. أنت بداية الخراب، استغللت تسامح الخليفة ورحمته وعربدت على الناس، لو كنت الآن على الأرض لحاكمك الأميركيون كما يحاكمون صدّام..».

تدخّل ياسر طالباً منهما استغفار اللّه والتروّي ولكنهما تجاهلاه.

«ويحك يا ابن مالك، أتشبّهني بصدّام الذي هرب واختفى كالفأر المذعور أمام جيوش من الحريم؟».

«بالضبط هذا ما أفعله، أنسيت أنك هربت أمام سيف غزالة وحماتها جهيزة؟ ألم تقسم غزالة أن تصلّي الجمعة في مسجد الكوفة وفشلت أنت في منعها؟ لمن قال حطان بن عمران بعد فضيحتك:

أسدٌ عليّ وفي الحروبِ نعامةٌ
فتخاءُ تنفُر من صفير الصافرِ

هـلا بـرزتَ إلـى غـزالـة فـي الـوغـى
أم كـانَ قـلـبـكَ فـي جـنـاحـي طـائـرِ
صـدعـت غـزالـةُ قـلـبـهُ بـفـوارسٍ
تـركـت نـواظـرهُ كـأمـس الـدابـرِ

هل تريد أن أذكّرك بما قاله ابن خريم أيضاً..».

«اللعنة على الخوارج، لقد قتلتها وشبيب زوجها وأمه جهيزة..». قاطع الحجّاج كلثوم بينما حملته ساقاه بعيداً عن الرجلين، فأسمعه كلثوم:

«قتلتهم نعم، ولكن بالخديعة، كالعادة. لا تنس أننا هنا نلمّ بتفاصيل الماضي ونعرف مقدار عزّة اللّه في تغيير قباحة وجهك على الأرض إلى جمال وشباب دائم هنا، ولو بقيت على خلقتك لما قبلت بك أي من جواري البيدخ». هدأ كلثوم فلم يعد الحجّاج على مسمع منه. «لو قابلته على الأرض لقطعت رأسه ثم وبّخته، لكنّا هنا مُنحنا نِعَماً ومُنعنا من أخرى».

«كم أودّ لو رزقنا اللّه نعمة رؤية المستقبل، أريد الاطمئنان إلى فلسطين والعراق».

«لو فعل ذلك يا ياسر لشغل بالنا ونكّد نعيمنا، اترك تدبير الكون لخالقه، فهو العليم الحكيم. يكفي إشراكنا في معرفة الماضي، وكيف يسهل علينا في لمحة بصر استرجاع أي موقف، دع معرفة الغيب لربك».

«والنعم والإيمان برب العزّة. كيف ترى نهاية مطالب النساء؟».

«لا حول ولا قوة إلّا باللّه، أنا لا أعرف الغيب، ومنع علينا التنجيم. ربنا أمرنا بأشياء ونحن ننفّذ. إذا أراد تغيير وضع النساء فهذا بيده، وإذا أردن تصعيد مواقفهن فهذا بإذنه. أنا مطيع لربي غير متآمر على زوجتي بل مُحترم ومنفِّذ لرغباتها في البيت. نحن

هنا إلى أبد الآبدين، كنا قبل الإسلام وبعده والآن قوّامين على النساء، وحين يأذن الرب أن يصبحن قوّامات سنقبل ونحمد ونشكر».

سرح ياسر أثناء عودته إلى لؤلؤته المجوّفة بما سمع عن أم البنين، وركّز ذهنه تجاه غزة فرأى رئيس وزرائها الجديد جداً، إسماعيل، يعلن إفلاس خزينة الدولة، بينما خزائن بعض الدول الإسلامية تطفح بالأموال وحكامها يسبحون في البذخ الفاني. أم البنين، أبوها عبد العزيز بن مروان والي مصر لعقدين من الزمن، وعمّها الخليفة الأشهر، عبد الملك بن مروان، وأخوها الخليفة الأعدل أبو حفص عمر بن عبد العزيز الذي تزوّج فاطمة بنت عبد الملك. أما زوج أم البنين فهو ابن عمّها الوليد بن عبد الملك باني قبة الصخرة والمسجد الأموي ومسجد النبي، وفي عهده فتحت الأندلس وبلاد الترك والهند. أين الخلف من السلف؟ تمتم ياسر دون أن يخطر في باله أنه قد يكون أحد أسباب استمرار النكبة. امرأة بتلك العزّة والتربية اتُهمت في شرفها بقصة مختلقة لينتقم منها الحاسدون، وها هي في الفردوس تحفّها الملائكة، ومن اتّهموها شوتهم النار.

كانت في الحج مع زوجها بعد تولّيه الخلافة، فحمل محمد بن يوسف الثقفي، والي اليمن وأخو الحجّاج، هدية للخليفة. تشكّكت أم البنين في شرعية جمع الهدية فطُلب من محمد أن يحلف أنها حلال، واستُحلف بين الركن والمقام خمسين يميناً أنه ما غُصب أحد شيئاً منه ولا ظُلم. النتيجة أنه مرض بداء شديد ومات، ووصل خبر موته إلى الحجّاج عشية موت ابنه محمد. بعد سنوات توجّه الحجّاج لزيارة الخليفة في دمشق، ولاحظت أم البنين أعرابياً غارقاً في سلاحه يجالس زوجها، فأرسلت للوليد تسأل وتحذّر. ردَّ

عليها أنه الحجّاج بن يوسف فاطمئنّي، ولكنها أعادت الجارية لتقول للخليفة، واللّه أن يخلو بك ملك الموت أحبُّ إليَّ من أن يخلو بك الحجّاج بن يوسف. لم يخف الخليفة عن ضيفه ما وصله من رأي ابنة عمه. بدل السكوت تطوّع الحجّاج لنصح الخليفة قائلاً: «يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تطلعهنّ على سرّك، ولا على مكايدة عدوك، فإن رأيهن إلى أفن، وعزمهن إلى وهن، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تطل الجلوس معهن، فإن ذلك أوفر لعقلك، وأبين لفضلك».

في ذلك اليوم أخبر الوليد أم البنين ما قاله الحجّاج، فكتمت غيظها وطلبت من الخليفة أن يرسلها ليسلِّم عليها حين يعود بالغد. أراد الحجّاج التملّص من السلام ولكن الخليفة أمره فذهب. حجبته طويلاً قبل أن يدخل إليها، ثم خاطبته من خلف سترتها: إيه يا حجّاج، أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل عبد اللّه بن الزبير ابن حواري رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم)، الصوّام القوّام المستغرق الساعات في الطاعات، ذي المناقب الشهيرة الكثيرة؟ وابن أسماء ذات النطاقين؟ وأول مولود وُلد في المدينة المنوّرة من المسلمين بعد الهجرة؟!! يا حجّاج وأنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث؟! واصلت أم البنين التجريح ببلاغة ووصفت قباحة وجهه ولأنه شرّ خلق اللّه فقد ابتلاه برمي الكعبة بالمنجنيق، وبأنه لولا نجدة أهل الشام له لكان مثل البقة، وأن النصرة تمّت بجمع المال والحلي من النساء وفي مقدمتهن نساء أمير المؤمنين. عندما انتهت من توبيخه خرج يتخبّط

مدهوشاً حتى أوصلوه لأمير المؤمنين الذي انقلب على ظهره من الضحك مما أصاب الحجّاج.

صدق رسول اللّه بقوله: «إن صنائع المعروف تقي ميتة السوء». قال ياسر لنفسه وقد تراءت له صنائع أم البنين الكثيرة ومنها ما فعلت مع الثريا. الثريا بنت علي بن عبد اللّه الحارث من أجمل بنات عصرها وكأنها نجمة الثريا بالفعل. فيها وفي زوجها سهيل، الذي حمل اسم نجم هو الآخر ولكنه كان أقبح رجال عصره خلقة، فيهما قال عمر بن أبي ربيعة:

أيـهـا الـمُـنـكـح الـثـريّـا سـهـيـلاً
عـمـركَ الـلّـه كـيـف يـلـتـقـيـانِ
هـي شـاميّـة إذا مـا اسـتـقـلّـت
وسـهـيـلٌ إذا اسـتـقـلّ يـمـانـي

حضرت الثريا بعد طلاقها إلى أم البنين تطلب أن تسدّ عنها ديناً كان عليها وعجزت عن قضائه. دخل عليهما الوليد فعرفته زوجته بأن الضيفة هي الثريا، فسألها إن كانت تحفظ شعراً لعمر بن أبي ربيعة، ظنّاً منه ومزاحاً أنها ستقول البيتين أعلاه. أجابت الثريا بأنها تحفظ وقالت: كون عمر رحمه اللّه كان عفيف الشعر سأروي لك من ذلك:

وحـسـانـاً جـواريـاً خَـفِـراتٍ
حـافـظـاتٍ عـنـد الـهـوى الأحـسَـابـا

ضحك الوليد لفطنتها وأمر بتسديد دينها.

لكن أم البنين أغاثت أيضاً قبل ذلك الشاعر عبيد اللّه بن قيس الذي مدح مُصعب بن الزبير بن العوّام وأكثر في ذلك أثناء خروج عبيد اللّه ومصعب على الخليفة عبد الملك. وصلتها رسالة من عبد

اللَّه بن جعفر بن أبي طالب، آخر من رأى النبي، وكان الشاعر بعد الهزيمة قد التجأ إليه. ذهبت أم البنين إلى عمّها ففطن لغاية في نفسها وقال: قضيت لك كل حاجة إلّا واحدة، وهي عبيد اللَّه بن قيس. فقالت: يا أمير المؤمنين لا تستثنين علي. غضب الخليفة ونفخ فأصابها، لكنها صمتت وأطرقت وتساقطت دمعاتها. خاطبها عمّها وقد تندّم: ارفعي يدك عن وجهك يا أم البنين، قد قضيتُ لكِ حاجاتك كلها.

دخل ياسر اللؤلؤة يتمتم: نصرتِ فنُصرت، هنيئاً لك ما أنت فيه. أشتمّ رائحة الملوخية، ووجد سبعة أطباق مطهوّة بطرق شتّى تنتظره. هنا يمكنك أكل ما تريد، لا جوع ولا شبع، لا بول ولا غائط، لا سمنة ولا ضعف، لا ترهّل في الجسد ولا قسوة في تفاصيله.

الجنّة درجات

«مع كل المشاكل القائمة على الأرض، والأخرى المتوقعة هنا، ولا تجد يا شريكي سوى هذا الاقتراح؟ لماذا لا تذهب أنت شخصياً إلى أحد الأنبياء ليتوسّط عند اللّه بإطالة غيبوبته، أو ليرسله إلى الجحيم مباشرة؟ بصراحة يا ياسر أنا وصلت هنا عبر وساطة، ويصعب عليّ الآن تحريك لوبي لهدف غير طيب».

«كلهم رفضوا مقابلتي..» واستدرك ياسر: «.. ولم يتجاوبوا مع طلبي للآن، حتى جمال ترفّع وأرسل إلي بالقول: اذهب إلى شريكك رابين ليساعدك، وكأنه أمر يخصّني وحدي».

«لكل أجله، وربما لا تعرف أنت أن إطالة الغيبوبة تتمّ بواسطة لصالح شارون وليس ضدّه، يريدون كسب الوقت لإثارة العطف عليه حتى يفوز بموقع أقرب إلى الرب وأبعد عن جهنّم. الأفضل لك السعي لمنحه الصحة وإطالة عمره على الأرض، أو الدفع بالحسم السريع في مصيره. لكن نصيحتي أن تريح نفسك وتستمتع بما أنت فيه من نِعَم. نحن اليهود لا جحيم ولا نار أبدية هنا تشوينا، ولا جنّة مثلكم عن نِعَم ولذّات الأرض تغنينا».

«لقد خفضت عدد الحوريات إلى سبع فقط حتى أتفرّغ للشأن السياسي ومتابعة ما يجري على الأرض. أحياناً أفكّر في التحوّل إلى جنّتكم بعيداً عن المتع الحسّية هنا». لم يظهر على ملامح ياسر

إذا كان يريد ملاطفة رابين بهذا القول، أم أنه بالفعل لا يريد المتع.

«أو تنصّر واذهب إلى جنّة المسيحيين فستجد هناك بالتأكيد الكثير من أبناء شعبك وأنسابك وأصدقائك، ولكنهم أيضاً هناك لا يتناكحون». أجابه رابين ضاحكاً بعد أن انتقل في طوافه من الكتف الأيسر إلى يمين عرفات الملتفّ بالقماش الكاكي، ويكاد يتفرّد فيه عن لباس كل سكان طبقات جنّة المسلمين من الحرير وما هو أنعم منه. ثم أضاف: «عموماً جنّتنا مفتوحة للصالحين من كل البشر والديانات، وأعتقد أن بوسعي الحصول على إذن لك بالزيارة».

«سبعون حورية أسهل من إنسية واحدة. إنهن يخطّطن الآن في جنّتنا للقيام بانتفاضة ولديهن مطالب ديمقراطية ستثير غضب الأصوليين». لم يعلّق ياسر على الدعوة لزيارة جنّة اليهود، فقد حسب على الفور أنه سيعجز عن الردّ بدعوة إسحاق إلى جنّة المسلمين، كما خطر تساؤل في ذهنه: ماذا سيفعل لو التقى هناك الذي أمر بدسِّ السمّ له؟ هل سيلطمه أم سيشكره؟

«أترى! هذه مشكلة في صميم الديمقراطية وتستحق منك التدخل بدل إشغال ذهنك بشارون ومصيره. ماذا تريد نساؤكم؟ إذا لم يكن الأمر سرّاً بالطبع».

«أنسيت أنك شريكي ولا يوجد بين الشركاء أسرار؟ لم أعرف بعد كل مطالبهن، وصلني أنهن يرغبن في المساواة مع الرجال، وهذه ورطة. عندما أعرف التفاصيل سأخبرك بها. مَن سيحضر من طرفكم إلى مؤتمر يوم القيامة؟» أراد ياسر بهذا السؤال تحويل الحوار مع إسحاق إلى موضوع آخر، حتى لا يكتشف شريكه أنه يخفي عنه تفاصيل مطالب النساء التي أبلغته بها السيدة نفيسة.

«كل من تفكّر فيه من طرفنا سيحضر، وكل من يُطلب رأيه أو

شهادته سيُجلب. هل لديك فرصة أو حصلت على دعوة للمشاركة؟» أجابه إسحاق بنبرة تحمل تهديداً مبطّناً.

«طبعاً سأكون في مقدمة الحضور، وبصراحة سأتفق وأتحالف مع كل مَن يطالب بتأخير موعد القيامة...». كان ياسر يعدل في وضع إكليله المزيّن بالدر والياقوت وقد عاد إلى شبابه وكحّل عينيه فبدتا أوسع مما كانتا على الأرض عندما كان في الثالثة والثلاثين: «.. إذا لم توجّه لك دعوة، سأطلبك للشهادة عن الظلم الذي أصاب شعبي».

«لا تورِّطني في مشاريعك. سأجد طريقة لحضور المؤتمر، كمراقب فقط». كان إسحاق يحلّق للخلف ويتأمّل الغبار الذي حطَّ على ياقوتات إكليل شريكه: «اللون الكاكي لا يتناسب مع هذه الحلي، لماذا لا تتزيّن بأناقة أو تتقشف فعلاً؟» لم ينتظر من ياسر أي إجابة وعاد إلى موضوع المؤتمر: «إذا اتفقت معك على أن شعبك قد قاسى قليلاً أو كثيراً، فلماذا لا تريد التعجيل في القيامة وإراحته؟».

«وهل يُعقل أن تقوم القيامة قبل أن ينال الاستقلال والدولة ويتمتّع قليلاً على الأرض مثل بقية الشعوب؟».

«طبعاً يُعقل ونص. في الانتخابات القادمة ستفوز حماس بالرئاسة، وإذا قامت دولة فستكون على غرار جمهورية الإمام الخميني، وربما تستقلّون عن بعضكم بعضاً في عدة دويلات، وستنشب الحرب وتتواصل مآسيكم، وستشيدون لكل دويلة عدة سجون. دعهم يقرِّبون موعد القيامة يا رجل، أم أنك تخاف على شعبك أن يذهب إلى النار لتأييده قتل اليهود بدون تمييز، قتل أهل الكتاب؟».

«بل إلى أعلى طبقات الجنّة...». لم تكن أي مسحة غضب قد

اعتلت ملامح ياسر وهو يردّ على كلام شريكه في محاولة صنع السلام، وترك له بسهولة فرصة أن يقاطعه قبل إتمام جملته.

«إذا كان الأمر كذلك فتمنّ القيامة سريعاً. معارضتك ستفسّر إما بالأنانية وأنك لا تريد الجنّة لشعبك وللمسلمين، وإما أنك تريد إدخالهم الجنّة شهداء قاتلين لليهود ومقتولين منهم. قصة أنك تريد لهم دولة يتمتّعون فيها لن تنطلي على أحد».

«إيه يعني تنطلي، عايز تقول إني أخّرت قيام الدولة الفلسطينية على الأرض وأخرب فرصة شعبي في الجنّة؟».

«لا تنرفز عليّ وتتكلم بالمصري، أنت الذي قلت الآن إنك خربت الفرصة على الأرض وناوي تخريبها في السماء». جلس إسحاق على كتف ياسر الذي واصل تمشّيه في المنطقة العازلة بين جنّتي اليهود والمسلمين، وعاد صوته لنغمة عادية: «نحن اليهود لا متع لدينا في الجنّة مثلكم، ديننا يعطينا نعمة الحياة والانبساط على الأرض، والراحة الروحية في السماء بتقريب الأنبياء والصالحين من الرب بمقدار طاعتهم. ما أريد قوله إنك ستجد الكثير من المؤتمرين اليهود يؤيِّدونك في فكرة تأخير موعد القيامة لتمكين شعبهم من المتعة على الأرض لأطول زمن. موقفهم هذا سيضعك في عزلة أكبر في جنّتك، وربما أنزلوك إلى أدنى طبقات الجنّة».

أقل من الدرجة السابعة؟ لا أظن. تمنّيت منطقة الفردوس في الوسط، ولكن نصيبي كان ثلاثاً وتسعين درجة أسفل العليا. الحمد للّه حتى لو أعادني إلى أدنى درجات الجنّة، فكما ترى أني أتنازل عن الطيّبات طوعاً».

«أي تنازل هذا! خيمتك لؤلؤة مقعرة، وجذوع أشجار حديقتك من الذهب، وبدل السبعين استكفيت بسبع يعدن كل صباح أبكاراً. ماذا قلت لي في المرات السابقة أيضاً؟... نعم، تقطف الفواكه

عن الأفرع وأنت متّكىء على فرشات الحرير، وتشتهي الطير فيخرّ أمامك مشوياً. يا حرام تنازل عن الطيّبات وتقشف بالكاكي وتيجان الزمرد والياقوت».

«احمد ربك أنني هنا لآخذك إلى هذه النزهات وأشاغل ذهنك بشؤون غير العبادة. أين تتوقّع أن يكون موقع شارون، أقرب إلى الرب أم إلى جهنّم؟». محاولة من ياسر لامتصاص ما ظنّ أنه غيرة وحسد في صوت شريكه الذي وصل إلى موقع من الرب لم يكن يستحقّه على أفعاله، ولكنه فاز به في جنّتهم بسبب اغتياله من قبل يهودي.

«حب الرب لليهودي يعتمد على تميّزه عن الآخرين. كلما تميّز الإنسان عن غيره زادت محبة الرب له...». قبل أن يكمل إسحاق تفسيره اقتربت منهما حافة سحابة من الرضع النصارى الهائمين في المنطقة العازلة. حدّقت بهما العيون الحمراء المبلّلة بالدموع، واستدارت السحابة خلفهما، ولاحقهما العويل والتوسل بالوساطة.

«هذا يهودي وأنا مسلم، لا يمكننا تعميدكم وإنهاء تشرّدكم وهيامكم، ولكني أعدكم بطرح قضيتكم أمام الجميع في المؤتمر القادم». كانوا يعرفونه من مرات سابقة، لكن هذه أول مرة يقدِّم لهم ياسر خبراً عن مؤتمر قد يغيِّر حالهم.

«أنتما من الأرض المقدّسة، وجارا أبينا، وكلاكما في جنّته، أحضرا لنا قسّاً في نزهتكما القادمة ليعمّدنا وربما تنتهي ورطتنا». لم يعلِّق الشريكان بشيء، وخفضا رأسيهما واختفيا دون وداع.

المساواة

فرغن من صلاتهن على ضفّة نهر العسل فسلّمن على بعضهن بعضاً مجدداً. عشرون أنثى من نساء الأرض ألبس اللّه وجوههن النور، بعد أن كنَّ في الدار الدنيا عجائز رمصاً شمطاً، فأعادهن اللّه هنا عذارى، عرباً متعشقات متحببات، أتراباً، على ميلاد واحد. لم يكن الاجتماع كبيراً ففي العادة يتجمّع منهن المئات على شاطىء بحر اللبن للتداول في رؤاهن والتوفيق بين مطالبهن. غايتهن الأخرى من هذه اللقاءات العلنية، التي لم يُعقد أي منها بعد على نهر الخمر، أن يثبتن الفوارق بينهن وبين حور العين المحظور عليهن مغادرة الخيام والبيوت والقصور أو الانكشاف على غير أسيادهن.

أفصحت ليلى لرفيقاتها في بداية الحديث عما مرَّ بها، وخمّنت أن وساطة جديدة قيد الإعداد، وتوقّعت تآمراً بين الرجال ليتحالفوا ضد مواقفهن، خصوصاً وأن نفيسة احتارت بين تفهُّم الموقف وبين الصمود على الطاعة العمياء. «عموماً لا يمكن توقُّع أكثر من ذلك من قِبل نفيسة الشريفة، وكلّي ثقة أنها ستوصل الأمر بأمانة لمن يعنيه الأمر. لكن تدخل ياسر ومجاراته للرجال وعدم قطعه الحبال مع أي كان، هذه المحاولة يفترض أخذ الحذر منها».

«ليس بجديد مطالبة ليلى لنا بالحذر من الرجال وخداعهم. كلكن يعرفن أنني أوقفت الحرب التي دامت أربعين سنة بين عبس

وذبيان، ولكن الفضل نُسب للحارث بن عوف وهرم بن سنان، وذلك بفعل أشعار زهير بن أبي سلمى التي بفضلها لا يعرف أحد على الأرض أي دور لأنثى في وقف تلك الحرب. هذه جلسة غير شاملة، وربما أصبح علينا الحسم وتحديد مطالبنا الدنيا والعليا حتى لا يُفرّق بيننا ونضعف بسبب الحيل وأشباه الحلول». صاحبة هذا الرأي هي بُهيسة بنت أوس زوج الحارث بن عوف التي واصلت التمنّع عن زفاف زوجها إليها حتى نشط وأوقف الحرب ودفع من ماله ديات القتلى وأصلح ما أفسدته الحرب.

اغترفت بُهيسة بملعقة من الذهب بعض العسل من النهر الجاري أمامها، فسلكت حنجرتها من غصّة تذكرها ذلك الجحود وواصلت: «النقطة المفصلية الأولى أمامنا، هل نريد المساواة بإنزالهم إلينا أم بارتقائنا إليهم؟» بدا أن لديها إجابات ولكنها صمتت إفساحاً لسماع رأي الأخريات.

اعتدلت أُمامة بنت الحارث في جلستها ونظرت في البداية إلى ابنتها التي تشابهها في كل شيء الآن، وعن في ذاكرتها قبل التحدث ما قالته لابنتها من وصايا عشر خالدات قبيل أن تزفّ لزوجها. «إذا طالبنا لأنفسنا ما هو ممنوح لهم وما نراه غير حميد، فنحن واللّه كالحاسد المتمنّي المشاركة في الشرور، وإن طالبنا بالحدّ من مسرّاتهم وإقرانهم بنا من دون الحوريات والجواري، فسنكون كمن يغذّي نار خصومة، ولن يوافقنا أي ذكر منهم على ذلك. لقد تحايلنا عليهم وحافظنا على الجنس العربي حين أخفينا المولودات عن آبائهن. ابنتي هذه ما كان لها أن تكبر وتتزوج ملك كندة عمرو بن حجر جد امرئ القيس، وتنجب له لو أني لم أخفها عن عوف بن ملحم الذي طالبني بوأدها. بالتروي سنصل إلى ما نريد، وأمامنا الدهر والخلود، لا نطمئن فنقعس، ولا نتسرّع فيفسد

مسعانا. لا ينقصنا شيء لتلبية رغبات الأزواج، فنحن المفضلات الناعمات، ونحن الراضيات أيضاً، طوبى لمن كنا له وكان لنا. كلام رسولنا الكريم يجب أن يكون شعارنا، وبالاعتماد عليه نُخرج حور العين مشكورات من بيوتنا..».

قاطعتها أم سلمة بنت يعقوب: «.. كلامك جواهر وحكم، لكنهم سيكثرون حينها من البحث عن متعهم خارج البيت، ولن يمكننا تكتيفهم وربط أرجلهم. أؤيِّد طرد الحور، ولكني أفضّل طرد الأزواج أيضاً حتى نحرِّك زوبعة توصلنا للتساوي بفرض القناعة عليهم». المستمعات يعرفن تجربة أم سلمة مع ثلاثة رجال في الدنيا، من خانت عشرته يسكن الآن في طبقات أعلى، ومن رفعته بمالها ليصبح خليفة ليس بين سكان أي طبقة، ونصيبها هنا الثالث الذي خانها مع جارية فهجرته حتى ماتت وجاء أمر اللَّه أن يكونا معاً هنا بعد بعض العذاب. كانت زوج عبد العزيز ابن كل من الوليد وأم البنين، وحين مات عنها أعجبت بأبي العباس بن محمد العباسي فأرسلت جاريتها وخطبته ونقدته الدنانير ليذهب ويخطبها من أخيها، ففعل ونال مالها الذي ورثته عن والدها وعن بعلها، وفاز بأسرار بني أمية ومكامن ضعفهم بإرشادها اليومي له حتى أصبح السفّاح أبو العباس ذابح كل أمراء بني أمية، والذي تناول طعامه على أجسادهم. عاهدها بعدم اقتراب النساء والجواري ولكنها شكّت فيه وعاقبت صحبه من الشعراء الذين زيّنوا له التقرّب من النساء. بعد موت السفّاح شاباً في الثانية والثلاثين، أحبّت وتزوّجت عبد اللَّه بن الحميد المخزومي، فأغدقت عليه وتكرّم هو بمالها على الشعراء، ثم اتّهمته بجارية وهجرته غاضبة. عصارة تجربتها ونصحها لبني جنسها الآن هي طرد الرجال وحور العين اللواتي صنعهن العزيز الحكيم لأهل الجنّة، طردهم من البيوت.

«وحِّدن اللَّه، واسمعن كلامي وتمعنَّ فيه. نحن هنا خليط من الجاهليات المشفوع لهن والمسلمات المعاقبات. العظيم الجبار عاقبني على كثرة كلامي وتقريحي لزوجي أبي الأسود، ثم أنعم عليّ بهذه الطبقة العليا للمعاقبين. لسنا ممن بشروا بالجنّة، أو من المسلمين الذين دخلوها بسرعة عبر الصراط المستقيم. اللَّه غفور رحيم، لكنا نحتاج لتوسيع مؤيدينا من الجنسين وإرسال أفكارنا إلى الطبقات العليا حتى نُخرج مطالبنا من قيد ما دون الطبقة السابعة».

لم تحتج أي منهن على مقدمة أم عوف وما تحويه من شبه اتهام. أعادت طرحتها الحريرية الخضراء فوق رأسها، تماماً كما فعلت حين اشتكت زوجها، أثناء حضوره، أمام الخليفة معاوية بن أبي سفيان. واصلت حديثها وسط إنصات رفيقاتها. «لا نريد أن يقال عنا الشامتات الجاحدات الساخطات. سنحتاج لرجال يتطوّعون لتطبيق مطالبنا في حياتهم اليومية فيصبحون مثالاً يُحتذى به ويخرجوننا من أخطار العزلة..».

«ها قد أعدتنا إلى طاعتهم يا أم عوف، لقد رفض زوجك الكفّ عن طلاقك حتى مع تدخل الخليفة، وكاد يأخذ طفلك من بين ذراعيك، والآن تظنين أن بينهم من قد يتنازل عن منحه ومزاياه طوعاً؟» قبل أن تعيد أم سلمة رأيها بطرد الأزواج والحوريات معاً تدخّلت أم أناس ابنة أمامة، ونصرت رأي أم عوف مؤكدة أن زوجها، ملك كندة سيقبل بالاكتفاء بها زوجة ويبتعد عن الحوريات والجواري، وطالبت بأن تفكر كل منهن في فرص إقناع زوجها وكسب بعضهم.

عادت أم عوف تواصل ما انقطع من حديثها: «لقد انتصرت بالحجة على زوجي أمام الخليفة وفي مجلس رجال، زوجي آنذاك، أبو الأسود مؤسس علم النحو، أفصح رجال عصره. قلت لمعاوية

إني أعوذ بساحتك من العار الوبيل، والأمر الجليل، الذي يشتدّ على الحرائر ذوات البعول الأجائر. سألني عن بعلي فقلت، هو ذاك أبو الأسود ظالم بن عمرو. عندما استوضحه الأمير قال ما طلّقتها لريبة ظهرت ولا هفوة خطرت، ولكني كرهت شمائلها، فقطعت حبائلها. وادّعى من كان بعلي أنني كثيرة الصخب، دائمة الذرب سليطة، مهينة للأهل، مؤذية للبعل. وطالبني الخليفة وألحّ أن أعلِّق على هذه التهم فقلت: إنه سؤول جهول، ملحاح بخيل، إن قال فشرٌّ قائلٍ وإن سكت فذو غوائل، ليث حيث يأمَن، ثعلب حين يخاف، شحيح حين يُضاف، إن ذُكر الجود عنده انقمع لما يعرف من لؤم آبائه وقصر رشائه، ضيفه جائع وجاره ضائع، لا يحمي ذماراً ولا يضرمُ ناراً». بقية قصتها توجز برفض زوجها الكف عن الطلاق، وعندما حضرت مع طفلها اليوم التالي ليفصل الخليفة بينهما خطف أبو الأسود الطفل فنهره الخليفة، فإذا به يقول: يا أمير المؤمنين، لقد حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه. فردّت عليه أم عوف بالسليقة: صدق واللّه، لقد حمله خفاً وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة ووضعته كرهاً، وقد كان حجري حواءه وبطني وعاءه وثديي سقاءه. فحكم لها معاوية برعاية الطفل وأقر أنها غلبت زوجها بحسن حجتها.

«إذا كان معاوية قد أنصفك، فإنه قد سامحني وأنصفني، أنا التي حرّضت على قتاله يوم صفّين، ثم عدت أطالبه أن يقضي حاجتي في الكبر، ففعل. لكن يا أم عوف، وأنت الآن بدون زوج هنا، ألا ترين الخير لنا أن نطالب ببعض ما ينعم به الرجال؟ ألا يحق لنا المطالبة بسبعة وليس بسبعين، من الذكور القوام الذين يعادلون لنا خدمة الحور للرجال؟ نحن في أمان هنا ولا بأس من الحديث بحرية والاسترشاد برأي كل واحدة ثم في النهاية الأخذ برأي

الأغلبية». أثار حديث بكارة الهلالية تململاً بين الإناث غلب عليه التأفف.

«هذا واللَّه مبالغ فيه ولا يجوز الحديث عنه. لو فعلنا فنصبح مثلهم، باحثات عن المتع، وسيقال لنا إن أزواجنا منحهم اللَّه قدرة النكاح دون ضعف أو ملل ولأي عدد من النساء والحوريات، وهم بذلك لا يقصرون في رغباتنا مهما كثرت، وسوف نُسأل حينها ماذا نريد أكثر من ذلك. الأفضل أن ندعم مطالبنا بإحياء قيم العائلة والقبيلة، والتوجّه إلى متع أخرى في الجنّة بعيداً عن الجنس والحوريات والجواري. إني أؤيِّد الرأي بكسب الرجال، وأعتقد أني بمشيئة اللَّه سأقنع زوجي، المهلهل بن وائل، أبا ليلى، بالسير في طريقنا، وأتمنّى أن تبحث كل منكن عن فرص عمل مشابه. آنذاك لن يقال عنا الجاهليات المشفوع لهن، والمعاقبات المغفور عنهن، ولكن المُحسنات الناصحات الفالحات».

فكّرت بكارة الهلالية أن تردّ على هند بنت عتيبة بأن اقتراحها الفوز بسبعة ذكور يخلقهم اللَّه من طين الجنّة، أهون من المطالبة بحق التمتّع بعدة أزواج من أصل الإنس على غرار ما ساد على الأرض، لكنها أمسكت عن ذلك القول إذ شعرت بسيادة روح التروِّي والحكمة بين المجتمعات في متابعة التطورات، واكتفت بالتعليق: «إن شاء اللَّه لا تشتعل النيران في البيوت والخيام والقصور عندما تحاولن إقناعهم بما عزمتن».

«آمين». قالت أم عوف واقترحت تعميم الفكرة على بقية المناصرات في اجتماع شامل، وذكّرت الأخريات التمعن في مقترح إيصال الأفكار إلى الطبقات العليا.

الديمقراطية

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم، السلام الجبار القاهر والحليم. أرحِّب بكم، وأنقل لكم تحيّات الرب والأنبياء الذين قرّروا المراقبة من بعد عما سيدور هنا». خرَّ الحضور سجوداً عند سماع جبرائيل يذكر بعض أسماء صاحب العزّة وينقل إليهم تحية أنبيائه المختارين. انتظر وهلة حتى ينتهوا من تقديم آيات الاحترام ثم تابع افتتاحه للمؤتمر. «بإذنه تعالى تمّ تجميعكم من مختلف أنواع الجنّة والنار وطبقاتها لعقد هذا اللقاء المفتوح بين الجميع من كل العصور والديانات. ناقشوا ما تريدون، لكن لا تنسوا أو تتجاهلوا أن الهدف هو تبادل الآراء حول موعد يوم القيامة. الواحد القهار يسمع كل ما تقولون أو تقرّرون، لكن حتى إجماعكم على أي شيء لن يعني تلبيته. ما يعرفه بعضكم باسم الشورى أو الديمقراطية لا قيمة له هنا». ارتفع خليط من الهمهمات بين قول آمين وبين تساؤل عن فائدة اللقاء.

«لكن الاحتمال وارد أن يستجيب الرب لطلبنا، أليس كذلك؟».

«الإسكندر، كل الحضور هنا لا يمثلون إلّا أنفسهم حتى لو كانت آراؤهم تلقى تأييداً من غيرهم. اللَّه فقط هو صاحب الأمر والنهي والقرار.. نعم يا حمورابي ماذا تريد القول؟».

«أولاً الشكر للرب على تقديره لنا والسماح بهذا الاجتماع في

الفردوس. أودّ الاستفسار إذا كانت اجتماعات سابقة كهذا، قد أثمرت باستجابة الرب لبعض ما تمخّضت عنه من آراء».

تبسّم جبرائيل، فامتلأ المكان بمزيد من النور، وشرح للحضور أن قصد حمورابي هو الاستفسار عن التوافق الذي وقع بالصدفة بين رغبة مؤتمرين وبين أمر إلّهي بتقصير مدة بقاء الموتى في القبور وجلبهم للمحاسبة تباعاً من دون انتظار ليوم القيامة. «آنذاك أراد اللّه تكريم شهداء القرن الإسلامي الأول، فقرّر إلغاء طول انتظار الموتى بكل أصنافهم في القبور والتعجيل في حسابهم. ثم إن رغبات الأنبياء ذات وزن مختلف عن أمنياتكم وقراراتكم، ولهذا لن يحضر هذا اللقاء أي من أنبياء اللّه».

«من نِعَم الرب على عباده أنه لم يلغِ قراره بتقصير فترة سكن القبور». صمت ديجول ثواني ثم استرسل في مداخلته: «حسب معرفتي المتواضعة بالمسلمين ودينهم، يمكنني الظن بعدم وجود خلاف كبير بين تفاصيل وشروط يوم القيامة لدى المسلمين والمسيحيين عموماً. لو كان ظني أقرب إلى الصحة لأمكن القول إن تقصير زمن عذاب القبر وإحياء الموتى لمحاسبتهم يعني تطبيق جزء هام من يوم القيامة..».

«لو كنت تعرف شيئاً عن المسلمين ودينهم لما مانعت في إعادة رأسي من متحفكم إلى جثتي في بلدي». حاول عبد القادر الجزائري إعادة سليمان الحلبي إلى مقعده، وتردّد جبرائيل في منعه من مقاطعة ديجول واختار فتح المجال أمامه. «لا أدري فائدة وجودك هنا، لكن اللّه عليم حكيم. عذاب القبر يمكن أن يكون شديداً حتى وإن قصرت مدته، ويمكن للقبر أن يكون نعيماً للصالحين بفضل اللّه. يعني إحياء الموتى ومحاسبتهم لا يجب أن

يرتبط بموت الأحياء يوم القيامة ثم إحياء الجميع ليوم الحساب. يبدو أنك من أنصار التسريع بيوم القيامة وتتفلسف بالتنويه أنها ترتبط بتقصير الإقامة في القبور. كالعادة تفهمون ما تريدون وليس ما يقال..».

«.. قاطعتني وفسّرت نيّاتي. أتفهم موقفك، وقطع رأسك تمّ قبلي بكثير وعقاباً لقتلك كليبر، ولم يُلفت انتباهي كثيراً أثناء رئاستي للجمهورية لوجود رأسك في بلدي. مع ذلك لا يمكن أن تتّهمني بالعداء للمسلمين، اسأل جارك عبد القادر، وأي إنسان آخر، ستجده يعرف ما قاسيت بسبب إنهاء الاستعمار للجزائر وفك ارتباط فرنسا بها. أنت يا سليمان عارضت استعمار بلادكم بأسلوبك، وأنا أنهيت ذلك الاستعمار، ربما لذلك يوجد كلانا في هذا اللقاء».

«ما رأيك يا ياسر، بودِّي أن أذكّره ببناء بلاده لمفاعل ديمونة والقنبلة النووية الإسرائيلية؟».

«واللّه يا شيخ ياسين يا حبيبي الأفضل أن نركّز على جوهر اللقاء، فبين لحظة وأخرى سيتدخل جبرائيل ويحوّل النقاش إلى وجهته». كانا يتحدثان همساً، وانغمسا بسرعة في حديث خاص شغلهما عما يدور ويقال من حولهما.

«بأي سرعة اجتزت الصراط المستقيم؟ قصدي هل كدت أن تنزلق لرضائك عن العمليات الانتحارية؟».

«كنت على ثقة برحمة اللّه، لم أنزلق وقصر طريقي. شاهدت أهل النار وتعرّفت على الكثيرين منهم، ولكني افتقدت البعض أيضاً. ربما كانوا في طبقات سفلى من جهنّم».

«أنا نفعتني شفاعة أبينا إبراهيم الخليل إذ حملني ملائكة فوق الصراط». تنحنح ياسر تحت نظرات ياسين وتحديق عيونه،

فأضاف: «خفت الانزلاق إذا قطعته على قدمي فحملني ملاك».
وضع ياسين يديه على فمه لحجب الضحكة من شكوك ياسر حتى في الشفاعة، وظنّه أنه قد ينزلق.

«العظام في بطنك تقرقع. ليتك فزت ببعض النار جزاء لك عن قليل مما فعلت. هل عوقبت في القبر؟».

«شفاعتي وصلت وأنا في باريس، ولهذا تأخرت في الانتقال إلى الدار الآخرة. لكن طوال أيام الاحتضار وأنا في عذاب نفسي أليم. أحياناً كان يتراءى لي ملك الموت بوجه جميل وحوله ملائكة الرحمة بيض الوجوه ومعهم أكفان بيضاء وحنوط من الجنّة. يبشّرونني برضى اللّه، وأشاهد مقامي في الجنّة السابعة، وأحياناً أخرى يصلني ملك الموت وملائكة العذاب يحفّونه ويبشّرونني بسخط اللّه، وأنظر إلى جهنم بعيني فيرتعد جسدي، وتكاد سكرات الموت تغلبني، ويرتبك قلبي لكن لساني عاجز عن التعبير. يا للهول يا ياسين يا خويا».

«يبدو أن المفاوضات كانت أثناء ذلك على قدم وساق بشأنك. المهم، ولحسن حظك، أن نتيجتها كانت إيجابية. طبعاً لو كان لك دور في التفاوض لكانت النهاية سلبية ولكنت زرت جهنّم ولو لفترة، وحينها كنت ستعرف نعمة ما أنت فيه في الطبقة السابعة».

«أنت فهمتني بشكل خاطىء، أنا لم أقصد التذمّر حين حدّثتك عن السابعة، ولكني أردت أن ألومك لأنك لم تزرني طوال إقامتي فيها، ولولا هذا اللقاء الذي جمعنا هنا في الفردوس ربما لم تكن تفكّر في المرور على لؤلؤتي...».

صمت ياسر برهة ولم يتلقَّ رداً من الشيخ ياسين، فأضاف: «هذه الزيارة للفردوس غير محسوبة، فلن يُسمح لنا بمغادرة محيط المؤتمر، ولن نرى شيئاً».

«تكفيك السابعة ومنحة اللقاء مع شريكك. إذا وعدتني بالكفّ عن اللقاءات معه سأحضر لزيارتك وسأوصل رسائلك لمن تريد وأحثّهم على زيارتك». اتّسعت حدقات ياسر وسقط فكه وهو يستمع إلى كلام ياسين.

«ازاي يا خويا تطالبني بالكف عن اللقاء مع شريكي رابين، ومخالفة منحة ربانية بواسطة أبونا الخليل، ازاي؟ بعدين أنت عارف أن علاقتي معهم هي اللي ساعدتني على اجتياز حدود جهنّم ورفقة إبليس. أنت عايزني أعمل زي جماعة حماس في الحكومة الآن؟ يرفضون اللقاء والحديث مع الإسرائيليين ويستعدون العالم على شعبنا ويمهّدون للحصار والتجويع وقطع الدعم».

«يعني أيامك كانت معاملة الإسرائيليين أحسن للحكومة والشعب؟ هل تريدني أن أذكّرك بما فعلوه بك من حصار وإهانة وتجويع وقتل للجميع؟». تلفّت بعض مَن يجلسون قرب ياسر وياسين، فأكمل الأخير بصوت أخفض: «كنت وجماعتك تستولون على كل الدعم، أو توظّفونه لمصالحكم، بينما معظم الشعب جائع ومحتاج. في مقابل ذلك كنتم تبيعون فلسطين. الآن لا دعم وبالتالي لا سرقات من الحكومة، وكل الناس سواسية في الفقر، وأقرب إلى بعضهم بعضاً، والمهم لا بيع لفلسطين».

«قصدت أن أموال الدعم كانت أيامي رشوة، وكنت أحرم الناس منها؟ يعني لو كبرت الرشوة وتوزّعت على الناس لقبلوا بيع فلسطين. حرام عليك يا ياسين أنا قضيت حياتي على الأرض متقشفاً، والفلوس كانت تذهب للموظفين والشرطة، وهم يعيشون ربع الشعب في فلسطين..».

«ربع الشعب في الضفة والقطاع، وبقيتهم جوعى، ومن في الخارج نسيتهم، خصوصاً سكان مخيمات بيروت والأردن. عموماً

لم أتّهمك بالسرقة والمنفعة الشخصية، لكنك، كما نعرف الآن وكنا نعرف على الأرض، تركت المجال للفساد والفاسدين، واستغللت الأموال للرشوة والسيطرة، ولهذا لم يتقدّم نضالنا...». صمت ياسين ونظر في عيون ابن بلده، وأدارا وجهيهما معاً من حيث جاء صوت تعرّفا فوراً على صاحبه.

«لا يمكنني السكوت على تعليق شارل، وهذا بالمناسبة له علاقة مباشرة بمؤتمرنا». سلّط جمال عبد الناصر عيونه باتجاه ديجول وأكمل: «أنهيت استعماراً، ربما، ولكنك سلّحت دولة استعمار هاجمتنا واحتلّت بلادنا بطائرات فرنسية، واعتمدت في عدوانها على امتلاك مفاعل نووي وقنابل نووية صنعت بتقنية واتفاقات فرنسية. طبعاً بعد عدوان حزيران سبعة وستين تغيّر موقفك تماماً ضد إسرائيل، ولكن بعد ماذا؟ بفضل اللّه نرى الماضي والحاضر ولا نعرف المستقبل. الماضي والحاضر جليّ بأن بلدكم ليس الوحيد المُسيّر من اللوبيات. خنوعه أقل من الولايات المتحدة وألمانيا وبريطانيا، ولكن دوركم كبير جداً في المصائب التي حلّت بالمسلمين، وأظن أن أي كارثة ستقع في المستقبل ستكون بفعل إسرائيل ولها فيها أصابع، وبالتحديد بالقنابل النووية الإسرائيلية..».

«أو الإيرانية يا جمال. في البداية سيقصفوننا بها، ثم يسيطرون على الخليج والنفط والمسلمين، ويضعون الغرب تحت رحمتهم». سكت رابين بعد هذه المقاطعة في انتظار الردّ من جمال، لكن بوتو تدخّل على الفور:

«لدينا قنابل نووية منذ زمن، وعلى عكس ما روّج من انعدام المسؤولية في دول العالم الثالث فلم نستعمل سلاحنا ضد الهند بالرغم من حروبنا معها، ولم نضرب بها إسرائيل أو حتى نلوح

بذلك، ولم نبتزّ دول نفط الخليج. القوة النووية الوحيدة التي استعملت ذلك السلاح هي الولايات المتحدة، وهي أكثر من استعمل الأسلحة الكيماوية الأشد فتكاً. باكستان دولة إسلامية أقرب عاطفياً للعرب وفلسطين من إيران. الأسلحة النووية التي دخلت وستدخل للمنطقة الآن هي للردّ على قنابل إسرائيل، الدولة الأكثر تطرفاً والقائمة على أساس عنصري وديني، والتي لا تعترف بحدود وترفض الالتزام بحدود القرار الدولي الذي أسّسها، وتشنّ الحروب التوسعية. هذا كله ربما أوصلنا إلى يوم كارثي أشبه وأقرب بيوم القيامة».

«هذا بالضبط ما كنت أريد قوله عندما قاطعني رابين، ودعني أضف تخميني بأن إيران تمتلك أسلحة نووية وربما استعملتها ضد مَن يعتدي عليها. لا يوجد عندي تفسير آخر لتصريحات قادة طهران العنترية غير امتلاكهم لسلاح نووي، وإذا صحّ ذلك فهم لم يستعملوه ضد أحد حتى الآن ولكن ربما تغيّر الموقف إذا اعتُدي عليهم». كان جمال يعلم بامتلاك طهران لقنابل نووية صغيرة اشترتها عند انهيار الاتحاد السوفياتي، ولكنه أبقى الأمر في ثوب تخمين.

لم يتمكّن ياسين من شدِّ ياسر ليبقيه جالساً ويمنعه من التعليق، فقد تخوّف أن يعلن عن قنابل إيران: «هناك تفسير آخر يا سيادة الرئيس لكلام قادة طهران. المبالغة. كم مرة بالغنا في ادعاء امتلاك الأسلحة لتدمير إسرائيل والردّ على أي عدوان ثم يثبت عدم صحة كلامنا؟ آخر مرة كانت من صدّام وصواريخه وادعائه بقدرة تدمير نصف إسرائيل وهزيمة أميركا. لماذا لا يكون كلام قادة إيران تهويلاً لدوافع داخلية أيضاً وقد يجرّ عليهم الويلات؟ بعدين مين قال إن إيران لو كان عندها مليون قنبلة نووية ستضرب ببعضها

إسرائيل؟ لماذا؟ من أجل عيون الشعب الفلسطيني؟ ألم يفتوا لنا لنأكل الكلاب والقطط أثناء حصار الأخوة لنا في مخيمات بيروت؟» نجح ياسين في جذب ياسر لأسفل وأجلسه وقد قرّر أن يؤنِّبه على هذا الموقف غير المفهوم، فهو ليس مع جمال والعرب والمسلمين، وليس مع إسرائيل، ولا يفهم منه إذا كان يؤيّد تقريب أو تأجيل يوم القيامة. لكن قبل أن يُسمعه رأيه في انفجاره هذا شدّ انتباهه متحدث جديد، شمشون الجبار:

«على زماننا كانت العضلات والحيل هي أسلحتنا. ما نراه الآن أسلوب جبان للقتل من بعيد. عندما أسرتني حبيبتي الغزاوية ربطتني بدل الثور لأطحن للفلسطينيين، هدمت البيت عليّ وعليهم. ذلك انتقام كاف. لو كان مسموحاً للإناث حضور هذا المؤتمر لقالت لكم دليلة بأن احتمالات القيامة عالية جداً، وأن أسلوبها هو الحرب النووية، وأن مشعلها أحد رؤساء أميركا، وأن هذه التطورات الجارية على الأرض تشابه ما هو معروف عن علامات يوم القيامة، بينما أهوال ذلك اليوم، عندما يحين موعده تطابق نتائج التفجيرات النووية».

سأل ياسين جاره ممازحاً إذا كان شمشون مع المسلمين، أم مع اليهود، وتمنّى أن يقابل دليلة، وأضاف: «لو سمعك حبيبك الإمام الخميني تتحدّث بهذا الشكل عن جماعته لزعل منك».

«لن يزعل، لو كان عنده القنابل النووية قبل مماته لرماها على إسرائيل وأراحنا من زمان. لكن ورثته حصلوا عليها بالأموال من تجار روس، ويهدرون وقتهم الآن لإثبات قدرات بلادهم العلمية، وسترى أنهم في النهاية سيتلقون ضربة مثل جارهم تعيدهم إلى العصر الحجري».

«عندما استعرض لك صدّام أسلحته واتفقت معه على احتلال

الكويت والزحف على السعودية ثم الالتفاف إلى الأردن وفلسطين، لماذا لم ترفض مخططه أنت والرئيس اليمني؟ كان بوسعك فضحه».

«لو فعلت لأغرقني الشعب العربي في البصاق ولأصبحت الخائن الذي أفشل خطة تحرير الأمة. قلت له لنبدأ بالأردن فهو أسهل، ثم ندخل معاً الضفة والقدس. تحجّج بنقص الأموال وأخذ يُنظّر ويتفلسف بأن امتلاك النفط سيضع الغرب تحت الجزمة وسوف تستجدي إسرائيل الحل والسلام. حاولت جهدي معه وفشلت، فسكت».

القيامة

أنهى شمشون خطابه طارحاً تساؤلاً استغرابياً حول وجود بعض مَن يطالبون بتعجيل يوم القيامة، إذ من وجهة نظره، أو وجهة نظر دليلة، كما قال، فإن أهل الأرض يقيمون قيامتهم بأيديهم، ونهايتهم الانتحارية ستكون قريبة. جاءت الإجابات مطوّلة من الشيخ محمد الشعراوي، فشرح للمجتمعين أن القيامة أمر ربّاني ولا يجوز أن يقوم بها أحد نيابة عن اللَّه. كما أن لها علامات معلومة سلفاً وهي آخذة في التحقق:

«عندما تحين الساعة يُنفخ في الصُّور مرتين، الأولى تميت الأحياء، والثانية تحيي الموتى من القبور، فيبعثون ليوم الحساب. هذا يعني أن الذين بُعثوا حتى الآن، بعد اختصار مدة الإقامة في القبر، سوف يواجهون الحساب أمام اللَّه، وربما لذلك نجد من يودّون تأجيل القيامة لإبقاء خطاياهم وأفعالهم مستورة، وحتى لا تسود وجوههم. معظم علامات الساعة تحقّقت، وأهمها ما يحصل في فلسطين..».

«لماذا لا تحدّثنا قبل ذلك عن أنواع القيامة وعن العلامات التي تحقّقت فعلاً؟» أراد ياسر بهذه المقاطعة التشويش على الشيخ حتى لا يتطرّق لأطروحة أن اللَّه جمع اليهود في فلسطين تمهيداً للتخلص منهم، واعتبار ذلك إحدى علامات القيامة. وطلب من ياسين، قبل المقاطعة، أن ينطلق إلى الشيخ يوسف ويحثّه على استعراض

أشراط الساعة التي جمعها ونشرها في كتاب. المهم هو تعطيل أفكار الشيخ محمد ريثما تحين فرصة حديث خاص معه لإقناعه بالسكوت عن تفسيراته التي يعتمد فيها على تأويل آيات من القرآن.

«لا بأس من البداية بالحديث عن أنواع القيامة. هناك القيامة الصغرى الخاصة بكل إنسان عندما يموت، إذ تأتي قيامته. ثم القيامة الوسطى، والتي تخصّ أمة أو جماعة تصيبهم حوادث جمّة متتالية مثل الأمراض أو الزلازل والمجاعات والحروب. والقيامة الثالثة، هي العظمى لعموم البشر، وهي يوم الحشر أو يوم البعث، وتسمّى أيضاً يوم الدين. القيامات الصغرى جارية دوماً، والوسطى وقع الكثير منها وما زالت تحدث بأشكالها القديمة والحديثة في كل بلد. أحياناً تأتي كمجاعة أو فيضان أو إعصار أو حرب، وبالطبع حوادث نووية مثل تشرنوبل، وما سيأتي أعظم».

قبل أن يواصل الشيخ محمد شروحاته، انتهز الشيخ يوسف التقاط المتحدث لأنفاسه وتدخّل في الحديث متوجهاً في البداية إلى جبرائيل. «كل شيء بيد اللّه الواحد القهّار الرؤوف. القيامة ليست عملاً سلبياً فقط، فالقيامات الوسطى كان منها بعث نبيّنا الحبيب، وموته أيضاً كان قيامة وسطى، وفتح المسلمين لبيت المقدس انتحل تلك الصفة، ومثله طاعون عمواس في فلسطين، وظهور الفتن بكثرة هو من القيامات الوسطى وهي ما أصبح يصعب إحصاؤه. من هذه الظواهر الأخرى نحصي: استفاضة المال والاستغناء عن الصدقة، وظهور مدّعي النبوة، وظهور نار الحجاز، وفتح القسطنطينية، وكثرة إضاعة الأمانة، وانتشار الجهل، وشيوع الزنا والربا، والعزوف عن التقوى، وإمكان شرب الخمر، وبالطبع تطاول البنيان، والعقوق، وكثرة الزلازل والخسف والمسخ والقذف، وظهور الكاسيات العاريات، وكثرة شهادة الزور والقتل، وصدق رؤيا المؤمن، وتفوّق

أعداد النساء، ورجوع أرض العرب مروجاً وأنهاراً، وانكشاف الفرات عن جبل من ذهب، وكلام السباع والجمادات، وكثرة الروم وقتالهم للمسلمين».

«هذه العلامات يا شيخ يوسف قابلة للتأويل. إذا فسّرتها بتساهل، يمكن في كل عصر، ادعاء أنها حدثت، أو التأكيد أنها لم تحدث إذا أخذتها بحرفيتها. والنتيجة أنه يصعب علينا كبشر تخمين موعدها، وما دام أمرها بيد الرحمن فواجبنا هنا يقتصر على التأمل والرجاء متى يأمر بها. بعضنا يودّها قريبة، وغيرنا يودّونها بعيدة. الخمر والزنا ومعظم ما قلت وجد عندنا في أندلس القرن الرابع الهجري، وما لم يوجد آنذاك نراه قائماً وملموساً هذه الأيام». عبرت مداخلة عبد الرحمن الناصر عمّا جال في نفوس الكثير من الحضور، وأكّد جبرائيل مجدداً أن افتراض إجماع كل الحضور على اكتمال علامات القيامة لن يؤثّر في قرار الرب بموعدها.

«نعم أمرها محتوم ومحسوم عند الغفور». عاد الشيخ يوسف للحديث وأضاف: «لكن علاماتها ليست من بنات أفكارنا. إذا تحقّقت علامات القيامة الكبرى أو اقتربت من الاكتمال، فهذا سوف يهدينا إلى حوار مُركّز. دعوني أختتم بذكر أشراط القيامة الكبرى كما وصلتنا أثناء الحياة الدنيا في حديث نبوي، وهي عشر علامات: ظهور الدجّال، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: بالمشرق، وبالمغرب، وبجزيرة العرب، والدخان، وطلوع الشمس من مغربها، والدابة، والنار التي تسوق الناس إلى محشرهم، وهذه العلامات يكون خروجها متتابعاً، فإذا ظهرت أولى هذه العلامات فإن الأخرى على إثرها».

«هذه المعطيات لا تساعد في شيء، فقد يحدث أولها غداً

وتتوالى، أو ننتظرها مليون عام ولا تأتي. ولكي نصل إلى نتيجة ما من هذا المؤتمر أقترح تشكيل لجان تراقب ما يدور على الأرض وتقدّم للمؤتمر رؤيتها واستنتاجها ثم نتناقش حولها من منطلق الاتفاق على رأي ونترك الباقي على اللّه». أيّد جبرائيل اقتراح ديجول هذا وقبل الانتهاء من إعلانه فترة استراحة وتعارف بين الحضور قاطعه ياسر:

«ما هي مدة انعقاد المؤتمر؟».

«حتى تتفرّقوا أو يأمر اللّه بنهايته. هل أنت مستعجل العودة إلى السابعة في السابعة؟» جاءه الجواب.

«العكس تماماً، خصوصاً إذا سُمح لنا بحرية التجوال في الفردوس».

«تعرف أنه غير مسموح بذلك، ولكن ما يتاح للجميع في مساحة محدّدة سيغنيكم عن أي شيء آخر. في المنطقة المسموح التجوّل بها يمرّ نهر الخمر، فلكم أن تشربوا ما أردتم من دون أن تسكروا، وتأكلوا ما تشتهون وبأي كميات تريدون، وتتداولوا ما شئتم من الأمور، هل من أسئلة قبل فضّ الاجتماع؟ تفضّل يا الإسكندر بسؤالك».

«عفواً، هل يمكن لغير المسلمين مشاهدة بعض حور العين أو..».

«لا مشاهدة ولا أو. كل واحدة من حور العين مخصّصة لمؤمن ولا يراها غيره».

«لكني سمعت اليوم أن المؤمنين يرون حوريات بعضهم بعضاً، وإذا مرّت فوقهم غيمة وتمنّوا حوريات فإنها تمطرهم بأجمل النساء. طالما أنعم الغفّار علينا بضيافة الأكل والشرب فليكمل معروفه ببعض المطر الخاص بنا. لا تنس أنني وُجدت على الأرض

قبل المسيحية بثلاثة قرون وثلث القرن، وتقريباً قبل ألف عام من الإسلام، آنذاك لم يخبرني أحد بوجود إسلام وحوريات في جنّتهم. كل المدن الكثيرة التي حرّرتها تحسّن وضعها ولم أدمِّرها أو أفرض على أهلها ضرائب، تماماً كما فعلت جيوش المسلمين فيما بعد. ألا يعطيني هذا التشابه بعض الحقوق؟».

«ربما يا الإسكندر تحصل على حقوق لو لم تكن كاذباً». قاطعه سعد وأكمل بهدوء «ألم تحاصر صور ثمانية شهور وتقتل ثمانية آلاف من سكانها وتبيع ثلاثين ألفاً كعبيد؟ وكم جارية اتخذت في غزواتك؟».

«دعونا من هذا الآن، وسنعود للاجتماع بعد الاستراحة». حسم جبرائيل النقاش وهو يشعر بامتنان لتدخل سعد وتخليصه من إصرار الإسكندر.

اقترب شمشون من جماعة تضمّ ياسر ومحمد ويوسف وياسين. كان ينظر إليهم حيناً ويتأمّل جسده حيناً آخر، فقد منحه اللّه خلال فترة المؤتمر جسداً يشابه ما كان عليه وهو ابن ثلاثة وثلاثين، عضلات مفتولة، ووجه جميل تزيّن بشعر أسود مجعّد طويل. صمتوا عن الكلام عندما وصلهم، وردّوا تحيته.

«الحمد للرب الذي منحني كل النِّعم وسهّل علي التفاهم معكم بلسانكم العربي».

«والنِّعم بالعلي القدير». ردّوا معاً، وتبعهم ياسر بسؤال لم يتمكّن من كبته: «كيف حال دليلة؟ هل تعيشان معاً؟ أيعمر الحب قلبيكما بالفعل؟..».

«إنها في أحسن حال وكانت تودّ الحضور لولا المنع الرباني. حكمته كانت أن نجتمع معاً في جنّة اليهود وأن نحب كل مَن حولنا».

«أرجوك يا شمشون يا حبيبي أن تبلغها مني مئة قبلة».

«سأفعل، ولكن هذا الحب كله لأنها هزمتني في غزة، صحيح؟». قبل أن يجيب ياسر أسمعه شمشون سؤالاً آخر وسط إنصات بقية الحضور: «هل سعيت فعلاً للسلام مع اليهود أم كنت تتصيّد الفرص وتمهِّد للانقضاض عليهم؟».

«وهل هذا سؤال يا شمشون يا خويا، ألم يجمعني العليم مع رابين كما جمع بينك وبين دليلة؟».

«يعني لا تريد الإجابة، ولا أدري إذا كنت تخفي عني الحقيقة أم أنك خجلان من الاعتراف أمام الشيوخ. وبالمناسبة ماذا قصدت بكلامك يا شيخ محمد بأن ما يحصل في فلسطين الآن هو إحدى علامات القيامة؟».

استغفر الشيخ ربه كثيراً قبل الإجابة، فهذا بالذات ما كان الآخرون يتحدثون معه بصدده قبل وصول شمشون، وكانوا يطالبونه بالسكوت في هذا الأمر. «كان قصدي أن كثرة الظلم من اليهود للمسلمين في فلسطين لن يرضي الرب طويلاً». تنفّس الآخرون الصعداء، فهذه ليست كذبة، بل كلام يعبِّر عن المحتوى نفسه.

«لو منح العزيز الحكيم دليلة جسدها منذ أيام الشباب وسمح لها بالحضور معك إلى هنا لكانت حياتك الآخرة قد اكتملت، أليس كذلك؟». عاد ياسر بهذا السؤال لشمشون.

«سامحك اللّه يا مكّار، تريد تغيير الموضوع، سأحدِّثها عن حيلك لتعرف أنها ليست وحيدة في قومها. سأترككم تتآمرون على راحتكم، ولكن لا تنسوا أن الرب أمكر الماكرين، وإن باعنا ليس بقصير».

تركهم شمشون بين ضحك وتبادل نظرات فيما بينهم حتى قال ياسين: «أي استشهاد لنا بآيات من القرآن حول اليهود سوف

يستغلّونه للادعاء بأن كل ما يحصل في فلسطين هو بأمر رباني. الأفضل تجاهل هذه البنود وانتظار أمر كان مفعولاً. إذا كان ما يجري هو دليل على اقتراب القيامة فلندعها تأتي، وإذا لم يكن كذلك فلا جدوى من وضع ذخيرة في أيديهم».

«لكن ما في القرآن..».

«لا أحد يجادل في ذلك يا شيخ محمد، لكن ما جدوى أن تخبرهم مثلاً بالآية 104 من سورة الإسراء ونصها: ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لفيفاً﴾. ستقول لهم هذه علامة على اقتراب الآخرة، وسيردون أنك تريد إبادتهم، أو على الأقل سيقولون إن وجودهم وتجمّعهم في فلسطين من بعد الشتات وسكنى كل البلاد، هو طلب رباني موجود في القرآن، وأن طردهم من هناك الآن هو بالتالي مشيئة ربانية ولا تتمّ بحرب أو مفاوضات. كل ما تفكّر فيه من القرآن بأنه ضدهم سوف يسخّرونه لصالحهم. الأفضل ترك هذا الأمر والتباحث في شأن موعد القيامة، أي هل نتمنّى على اللّه أن يقدّمها أو يؤخّرها، وماذا نستفيد من هذا أو ذاك». كان وجه ياسين يشعّ بالأسى المختلط بالاستسلام أثناء محاولته إظهار المطب للشيخ محمد.

قبل أن يتواصل حديثهم وصلهم المفتي وكمال فسلّما على الحضور لكن ياسر أصرّ على قبلات لا نهاية لها لرفيقه كمال، ثم انهال على المفتي بالترحيب بل وتقبيل اليدين والجبين. «تمنّيت أن أراكما منذ وصولي إلى السابعة، الشكر للّه على هذه الفرصة». تجاهل الاثنان رنّة العتاب في صوت ياسر وأخبرا الشيوخ أنهما قادمان على أثر نقاش مع جمال وخالد، لكن ياسر سأل المفتي إذا كان يعرف آخر ما يقال عنه هذه الأيام على الأرض.

«تقصد الجاهل الألماني مدّعي اكتشاف أنني كنت على اتفاق مع

هتلر لقتل اليهود، ووجود خطة هتلرية بإرسال جيوشه إلى فلسطين لإبادتهم هناك بعد تجميعهم؟ هذا أسخف كلام مما يمكن قوله، لأن هتلر قبض ثمن ترحيلهم من أوروبا إلى فلسطين من الحركة الصهيونية، ولو كان يريد إبادتهم كلهم لما تركهم يهربون منه أولاً ليلاحقهم عندنا. هتلر كلب ابن كلب وبلفور وجماعته الإنجليز عموماً أنجس من ذنب الكلب..».

«كفى يا حاج أمين، لدينا عمل آخر». قاطعه كمال وواصل مخاطباً ياسر: «يجب أن تكفّ عن المهاترات والتخبيص. جمال وخالد يريدان من الجميع وضع أهداف لهذا المؤتمر أمام الأعين. الأهم هو التوصل لجبهة ضد السياسة الأميركية وإظهار ما تجرّه من مصائب على العباد من كل الأديان، فلعل الله يخصّهم بقيامة على مقاسهم. إنهم أعداء اللّه، وأعداء الأنبياء، والسلام، وهم مزيِّفو الكتب السماوية. إذا حدّ اللّه من سطوتهم فهذا إنجاز عظيم لنا».

«هل نطالب إذاً بتقديم موعد القيامة أو تأخيره؟».

«لا هذا ولا ذاك يا شيخ يوسف، اترك التوقيت للّه. علينا تبيان مظالم أميركا وإسرائيل».

«لكني يا حاج أريدها قريبة لأرى وجه اللّه العزيز الجبّار كما وعدنا في كتابه».

«ستراه عندما يحين موعد الحساب، لماذا الاستعجال؟ لا موت يهدّدك ولا ينقصك شيء. انتظر يا شيخ يوسف». أجابه كمال وواصل حديثه ممسكاً ياسر من كتفه: «لا تستغربوا رؤية سليمان الحكيم في المؤتمر أيضاً. لقد تمّ تصنيفه ملكاً وهو ليس من الأنبياء كما اعتبرناه على الأرض. ليزن كل واحد كلامه، ويختصر ويعرف مراده مما يقول».

«لا يوجد لدينا أي سبب لاستعجال القيامة، ديننا ينتشر سلماً

بسرعة في كل مكان، وأعداد المسلمين بازدياد بينما الآخرون كلهم في تناقص». قال الحاج أمين وقد استعاد صوته الهدوء الظاهري.

«أظن يا حاج أن اليهود أيضاً يريدون تأخير موعدها حتى لا يواجهوا عقاب اللّه الذي وعدهم به في كتابه المبين».

«فليكن يا شيخ محمد، فليكن». أجاب المفتي، وقبل أن يترك مع كمال الجماعة ليمرّوا على غيرهم التحق بهم ياسر، ولكن بعد أن تعهّد لهم الإنصات والموافقة على أن ما قد يسمعه يعتبر سرّاً.

سليمان

«يا لروعة الصانع والمصنوع. لو توصّلنا على الأرض لإنتاج مثل هذا الخمر، لكنّا قد اقتربنا من الجنّة خطوات قبل الموت». فتح سليمان فاه ليلقي فيه عصفور حبة توت بيضاء تذكّر مذاقها، فتمنّاها، فأُحضرت له. ثم ارتشف مجدداً بعض ما انتشله من النهر في كأس ذهبي تزيّنه حبات من اللؤلؤ الأزرق الشفاف».

«الأنباء التي وصلتنا عن حياتك وقصورك وموائدك، وقدراتك الجنسية التي منحك إياها اللّه، كانت تعني لنا أقرب شيء يمكن تصوّره عن الجنّة التي وعد اللّه بها كل العباد الصالحين. لم نكن ندري أن خمرتكم لم تكن طيبة المذاق. لو صنعتموها من التين كما فعلنا في الأندلس لاقترب مذاقها من خمر هذا النهر. خمورنا كانت طبعاً تُسكر، وبسرعة، وهنا أحد الفوارق الكثيرة بين صنع اللّه وصنع العبيد».

«كلامك يا عبد الرحمن يُشتمّ منه بعض النقد وكأنك أردت القول إني تمتّعت بكل الطيبات من دون بقية الناس حولي، بينما الخمر كانت في متناول الجميع في أندلسك».

«حدسك وحكمتك هما كما وصلنا عنك. لقد صدق أنفك في تحديد بعض الرائحة».

حاول جمال وبعض الجمهور التدخل في الحوار بين الملك والخليفة، لكن سليمان أشهر إصبعه وعاد لحديثه مع الناصر رافعاً

نبرته بعض الشيء ليُسكت المتدخلين. «لو لم أكن عادلاً، كما تنوّه، فلماذا اصطفاني الرب في الجنّة وأوصلني إلى درجة قريبة من عرشه، بينما اختصك في الطبقة الأولى الأدنى من جنّتكم؟».

«بل وضعني الملك المهيمن فترة طويلة في النار قبل أن يرحمني وينقلني إلى أدنى طبقات الجنّة. عدلك ودهاؤك كملك على الأرض كانا مشهودين، ألم تعزم على قطع الولد نصفين لتعرف أمه من المدّعية أمومته! ألم تلمع بلاط قصرك لتنظر فيه ملابس ملكة سبأ الداخلية، ضيفتك التي زارتك من اليمن! في أندلسي كانت الفوارق بين الأغنياء والفقراء معقولة، لكن اللّه وضعني في جهنّم لأني ذبحت ابني بيدي، عاقبته على تآمره ضد أخيه ولي العهد. وعاقبني الرحمن على ذلك ثم خصَّ عبده بطبقة من الجنّة أعتقد أنها أفضل من أعالي جنّات أخرى». كان عبد الرحمن قد توتّر قليلاً وهو يتذكّر حزّ رقبة أحد أولاده الأحد عشر صباح يوم عيد في قرطبة. تدخّل ملك سابق آخر في الحوار الثنائي بين الاثنين:

«استغفروا اللّه، يهدكم الهادي». قال خالد بينما سليمان وعبد الرحمن يبحلق أحدهما في عيني الآخر، وواصل: «نحن المسلمين نحترم كل الأنبياء والمرسلين ومَن يتبعهم، ومقامك يا سليمان بيننا رفيع، ولم نذكر اسمك على الأرض إلّا مقترناً بلقب سيدنا. هدفنا من هذا اللقاء الجانبي هو التشرّف برؤيتك والحديث معك والاستمتاع بهذا الشراب الرباني معاً. أنت بالتأكيد تعرف أن فترة حكم عبد الرحمن في الأندلس كانت قمة التعايش بين معتنقي الديانات الثلاث، وربما لهذا السبب تحدّث الآن من دون تكلّف».

توقّف خالد ريثما يطوف على الحضور بعض الولدان المخلّدين من خدم الجنّة، الذين يحسبهم مَن يراهم لؤلؤاً منثوراً. حملوا على أطباق عاجية، كؤوساً ذهبية مليئة بأنواع شتّى من الشراب الذي

يهب لذّة ونشوة لا يعرفهما أهل الأرض، ولا تُسكران أو تُذهبان العقول. اكتفى البعض بتناول الشراب وهم ينظرون إلى جمال الغلمان ويسبّحون للخالق، بينما أخذ آخرون من أطباق الطعام بعض اللحوم المشوية أيضاً. تبسّم ياسر، إذ تذكّر وهو ينظر إلى الغلمان رغبة الإسكندر في حوريات، وتخيّل وجهه وردّة فعله حين ينظر إلى هذه المخلوقات الذكورية التي صنعها اللّه في الجنّة، تماماً مثلما صنع الحوريات. نفض رأسه وأبعد تلك الأفكار وتذكّر وعداً قد أعطاه.

«لو سمحتم لي أن أرجوكم الاتفاق على طلب صغير لا يشكّل أي خلاف». نظر الجميع إلى ياسر وهو يقضم ورك طير مشوياً ويتحدّث في الوقت نفسه. «لقد وعدت الرضّع النصارى الهائمين في المنطقة العازلة أن أطرح قضيتهم على المؤتمر، وها أنا أضعها في أيديكم من الآن لنتّفق عليها ونقرّها ضمن ما نتّفق عليه فيما بعد رسمياً. إنهم بحاجة لمن يعمّدهم حتى يدخلوا الجنّة. عذابهم الحالي سببه موتهم وهم صغار قبل أن يُعمَّدوا في كنيسة». شعر جمال بارتياح لكون مداخلة ياسر جاءت في شأن إنساني ولم يتقوّل بما يكدّر أحداً أو يُضعف قضية، واقترح عليه أن يسأل الحضور إذا كان بينهم مَن يمانع في الشفاعة للصغار. وافق الجميع على التشفّع وكلّفوا ياسر الحديث مع جبرائيل في الأمر للتمنّي على الجبار أن ينهي تشرُّد الصغار.

«لقد أكّد جبرائيل أن أي إجماع حول موعد القيامة لن يؤثّر في قرار اللّه. لكن مع ذلك فلا يضرّ لو توافقت الآراء، إن أمكن، وعلى الأقل، لتقديم أو تأخير الموعد. وإذا اختلفت آراء المجتمعين حول الموعد فربما نتّفق حول التمنّي بتخفيف أهوال ذلك اليوم، فاللّه رحمن رحيم غفور، ولم يخبرنا أحد أن مثل هذا

الطلب مرفوض سلفاً». بهذا الطرح أعاد جمال الحضور في هذا اللقاء، تحت شجرة طوبى، إلى موضوع المؤتمر، وأضاف مسعى خالد تلطيف الأجواء التي توتّرت نتيجة تراشق الخليفة عبد الرحمن الناصر والملك سليمان.

«هذا جميل ونعمة لكل البشر، وطالما فشل معظم أجيالنا في التعايش والسلام على الأرض، فليكن توافقنا على رحمة الجميع عندما تحين القيامة، هذا طبعاً إذا أمكن ذلك، فربما يُعتبر ذلك تدخلاً في شأن الحساب والعقاب ويحتاج لوساطة وشفاعة أنبياء». كان إسحاق يتحدّث ببطء ويوزّع نظراته بين ياسر وسليمان وجمال.

«تخفيف أهوال يوم القيامة مطلب لا علاقة له بنتيجة الحساب وإرسال الناس إلى الجنّة أو النار. هذا بالفعل شأن رباني والشفاعة فيه تحتاج لأنبياء، أو بالأحرى لشفاعة الرسول محمد، عليه السلام، الذي أجّل أمنيته من اللّه أثناء حياته على الأرض ليستعملها هنا لصالح أمته يوم القيامة. مطلب تخفيف الأهوال يمكن حصره في إنهاء حياة أهل الأرض برأفة من دون إرهابهم. ثم محاسبتهم بسرعة، وربما بسرية بين اللّه وكل عبد على حدة حتى لا تتكشّف نقاط ضعفهم وعوراتهم وأسرارهم للآخرين». اكتفى المفتي بهذا التوضيح وترك المجال لتعليقات الآخرين حول قضية تخفيف الأهوال، لكن رابين عاد للحديث وتُرك له المجال ريثما يستكمل كلامه.

«من أجل الاستيضاح فقط، هل وصلت يا حاج من القبر إلى الجنّة مباشرة، أم مررت ببعض العذاب كنتيجة لسياستك وأفعالك؟ وهل أفهم أنه بالرغم من كونك في الجنّة فأنت لا ترغب يوم القيامة في شيوع أسرارك؟». قبل أن ينفجر المفتي تدخّل ياسر وأسمع إسحاق والحضور أن الحاج أمين حضر مباشرة إلى الطبقة

العاشرة في الجنّة، ومهما أُذيع عنه يوم الحساب فموقعه في العاشرة مضمون، وربما ترفّع بعد الحساب إلى طبقات أعلى، وقال إن هدف التخفيف من أهوال يوم الحساب هو مطلب لكل مسلم، رحمة وحباً منه لإخوانه المسلمين. بعد إمساك المفتي مشاعره سامح إسحاق على ما اعتبره استفزازاً في غير موقعه، وقال إنه لا يعترض على الحديث الصريح حول ما يدور في ذهن رابين والإجابة عن أي سؤال.

«لا داعي الآن للانحياز بالنقاش إلى تفرّعات، الوقت أمامنا طويل إن شاء اللّه وسنعود لتصفية ما في الخواطر بين الحاج ورابين». أراح سليمان ظهره على وسائد مرتكزة على نتوء في ساق الشجرة الذهبية، وواصل حديثه بين إنصات الحضور: «أسهل ما يمكننا في البداية الاتفاق عليه، وربما لا يعترض الرحمن على ذلك، هو توحيد النظرة للجنّة والنار». صمت سليمان ولكن أياً من الحضور لم يعلّق على اقتراحه الغامض، وانتظروا التوضيح. «شخصياً أقترح اعتماد النظام الإسلامي للجنّة والنار. إنه نظام يرضي الجميع ويفتح المجال لممارسة الوضع الروحي الصرف، أو الحسّي التام، أو الخلط بينهما. اليهودي والمسيحي يمكنهما العثور على جنّتهما الحالية في جنّة المسلمين، ولكن المسلم لا يمكنه رؤية جنّته لدى الآخرين. جميعنا من أصل واحد، وأنبياؤنا بعثوا في مناطق متقاربة».

أثناء الحديث، ولوهلة بعد الانتهاء منه، كان معظم المستمعين يحكّون بأصابعهم خلف آذانهم، أو يمرِّرون راحة أيديهم أسفل ذقونهم. أفاقوا على صوت أنثوي قوي: «وماذا عن بقية البشر؟ الذين وجدوا قبل دياناتكم، أو الذين لم يعتنقوا ما اعتنقتم، هل من الحكمة نسيان الأولين بهذه السهولة؟» كانت قد انضمّت إلى

حلقتهم أثناء حديث سليمان ولم يتنبّهوا لوصولها، وعندما سمعوا رأيها وتأكّدوا من جنسها لم يحسم أي منهم الأمر بتعليق على رأيها أو سؤال عن كيفية وجودها في دائرة مجال المؤتمر المحرّم على الإناث. «لا تندهشوا هكذا، لست أنثى عادية، أنا أحد الاستثناءات لكوني إلّهة مما سبق عصوركم. بالتأكيد يعرف أهل العلم منكم عثترت، أو عشترت كما تسمِّيني قبيلة سليمان، الأم البكر، إلّهة الخصوبة». هزّ الحضور من المسلمين رؤوسهم بالتأييد بعد أن ركّزوا أذهانهم وتعرّفوا بسرعة على عثترت وماضيها. قبل أن يكتمل نهوض ياسر ليهجم عليها بالقبلات شدّه كمال بقوة وأعاده للجلوس. ثم واصلت حديثها مخصّصة معظم نظراتها إلى سليمان. «تريد الانضمام إلى جنّة المسلمين لأنها تشابه الحياة في قصورك، وتنسى الذين مهّدوا لكم التقرّب إلى اللّه والإيمان برسله».

«بل في أيامه كان الوضع بالنسبة له أفضل مما هو في جنّتنا..» أسرع الناصر بهذا التدخل متشجّعاً من موقف إلّهة الخصب والحرب الكنعانية، «.. لدينا هنا سبعون حورية، وكان لديه سبعمائة جارية وثلاثمئة زوجة. لا توجد هنا ملكية خاصة، فكل واحد يملك ما يريد ولا يختصّ بشيء، بينما كان سيّدنا سليمان يأمر الجنّ والإنس ويخاطب الطير وقد سخّرت له الريح تحمله وجنوده إلى حيث يشاء. لو استجاب اللّه إلى طلبه الآن، كما فعل على الأرض، فالجنّة ستكون شيئاً متواضعاً عما تعوّده».

«لو تأمّلت خلق اللّه على الأرض الآن يا عبد الرحمن، ستجد أن القدير منح الملايين الآن ما خصَّ به الملك سليمان عندما بدأ عهده قبل 2967 سنة». كان أكثر من واحد على وشك التعليق على كلام عبد الرحمن ولكن الجميع صمتوا واستمعوا إلى ابن خلدون

وهو يتحدّث إليهم بهذا التقييم الغريب، خصوصاً بعد قول الناصر إن حياة سليمان على الأرض كانت أرفه مما هو في الجنّة. واصل ابن خلدون كلامه: «نعم الملايين الآن على الأرض يسيرون بمراكب تجري من تحتها الريح، ويركبون الطائرات بأنواعها ويوجّهونها حيث شاؤوا، بل حطَّ بعضهم على القمر. أما النكاح فهو شبه مباح، وهناك بلاد يتباهى ذكورها وإناثها بحجم تجربة الجنس قبل الزواج، ويمكن تزوُّج الإناث إناثاً والذكور ذكوراً. ولديهم منشّطات توفِّر حتى للعواجز قدرة الانتصاب، ومساحيق وأصباغ تبقي الشهية قائمة على مَن وصلت إلى السبعين. طبعاً لم يمنح اللَّه أياً منهم قدرة أربعين رجل على المضاجعة، كما منح سليمان، ولكن قدراتهم لا يستهان بها، وطعامهم وفير ومساعد على ذلك».

«إن سخطهم لقريب، هذه هي علامات الساعة..». ارتفعت الأصوات بآراء متنوّعة ولم يعد أحد يسمع احتجاج الشيخ يوسف فأنصت، وسمع من يتساءل عن حكمة سخط مَن وجدوا جنّتهم على الأرض! لم يدم الهرج أكثر من ثوانٍ، وشعر الجميع بأن الفوضى لا تليق بهم.

«لا تظلموا سيدنا سليمان، أعتقد أن اقتراحه بتوحيد الرؤية للجنّة والأخذ بالنظام الإسلامي موفّق وله مبرراته كما ذكرها. لا تنسوا أن سليمان غير نهج والده النبي داوود وجده الملك شاؤل، ولم يقاتل الفلسطينيين مثلهما، بل احترم آلهة من عهود سابقة، ونظّم المملكة على نمط ممالك مجاورة، حاكمها مطلق السلطان كثير الأبهة والترف والزوجات. وذلك طبعاً، مجاراة للدواعي الدبلوماسية. هذا التحديث والتغيير أثارا عليه الأصوليين وعجّلا في تفكك مملكته بعد أن توفّاه اللَّه». وجّه جمال كلماته الأخيرة إلى

الناصر وفي عيونه رجاء له أن يخفِّف من المناكفة. لم يكن جمال يعرف سبب تغيير مكانة سليمان من نبي إلى ملك، وظنّ أن الأصوليين ضغطوا على اللَّه لإحداث هذا التحول، ولكنه لم ينفِ احتمال أن يكون سليمان قد طلب ذلك من ربه شخصياً. المهم أن جمال تلبّسته فكرة كسب سليمان لقرب موقعه من اللَّه، ولاحترامه بين اليهود والمسلمين. أراد كسبه إلى جانب خطة إحداث قيامة على مقاس الولايات المتحدة. ظنّ أن تأييد رؤية سليمان في توحيد الجنّة قد يساعد على إقناعه بما يغيّر من نهج أميركا وإسرائيل سعياً للسلام على الأرض.

«لم أتناس الأولين، ولكني هنا عبد مثل غيري لا سلطان لي على جن أو إنس. اللَّه سبحانه هو صاحب القرار، وطالما أنك مدعوة لإبداء الرأي في هذا المؤتمر، فبالطبع يشمل اقتراحي سكان أي جنّة من أي عصر حتى لو كان قبل اليهودية، هذا إذا كنتم تريدون الحياة في جنّة المسلمين». اختار سليمان الردّ على كلام عثترت من دون الانخراط مجدداً في مناكفة الناصر.

«كلكم من خلفنا يا سليمان. يمكنكم القول إني أمكم جميعاً، وديننا تابع لما سبقه، وهو أيضاً أساس دياناتكم. لكل عصر قيمه التي يُضاف إليها قيم وقوانين وقصص سابقة ومعاصرة. أخذنا ديانتنا في كنعان عن بابل وآشور، واستفدنا من قوانين حمورابي الذي أكرمنا اللَّه برؤيته هنا. مَن سبقونا أخذوا عن آدم وإدريس ونوح، ومن تبعونا من اليهود أخذوا عنا وأعطوا للمسيح، ولخاتم الأنبياء والروايات والإضافات، محمد، رسول الدين الأحدث والأوسع والأسرع انتشاراً على الأرض الآن. أعتقد أنني سأنضمّ إلى مطلب اتخاذ جنّة المسلمين لمن أرادها من سكان الجنان الأخرى».

لم يهضم كل الحضور هذه الرؤية، ولكنهم على اختلاف دياناتهم سكتوا، فالرب هو الذي أمر بحضور إلّهة الخصب الكنعانية هذه إلى هنا، وسبحانه يعرف الآن ما تقول، وربما أحضر كبير آلهة الكنعانيين أيضاً، السيد بعل. انتزع ياسر نفسه من مقيّديه وأسرع تجاه عثترت مرحّباً وواصفاً إياها بأم الفلسطينيين، لكن هانيبال القرطاجي وصلها قبله وقبل يديها، فهي أم الفينيقيين وقد حملوا تماثيلها معهم إلى المستعمرات التي استوطنوها كمحطات تجارية في جزر البحر وإفريقيا وإيبيريا.

اهتزّت بعض أغصان شجرة طوبى التي يستظلون بها على شاطىء نهر الخمر، فتفتّقت ثمارها عن ثياب، كل ثمرة أنزلت سبعين ثوباً من السندس الحريري الرقيق زاهية الألوان، ومن الإستبرق الأكثر سماكة. أثواب لم يرَ أهل الأرض مثلها. حرّكت ريح الجنّة المزيد من الأغصان فبدت لهم أنواع اللهو واللعب والطرب بما فاق خيالهم. نظر جمال وخالد كل إلى الآخر واعتبرا ما يحصل علامة رضا من الرحمن، فاستبشرا خيراً وانخرط الجميع في أحاديث ودية بعيداً عن السياسة. تساقطت عليهم أوراق من الزمرد الأخضر والجواهر، فتذكر سليمان كيف كان يأمر الجن أن تغوص له في البحر لجلب اللؤلؤ والمرجان والكنوز.

تقدّم المفتي من رابين وسأله إذا كان يريد التمشي معه قليلاً ليصفّيا ما في القلوب، فوافقه وانسلا من بين الجمع. «الحديث الثنائي من دون مستمعين يعطي نتائج أفضل وإقناعاً أسرع».

«أمورنا هنا محسومة يا حاج، فالإقناع لا يقدِّم ولا يؤخِّر».

«صدقت يا إسحاق، أضف لذلك أنه بالنسبة لنا، كمسلمين، لا توجد أسرار عما حدث على الأرض. هل بوسعم في جنة اليهود رؤية الماضي بصفاء وعلى حقيقته الثابتة؟».

«للأسف لا. لو كان ذلك متاحاً لعرف كل منا الآن الحقيقة ولما وجدت أسباب للحوار والاختلاف».

وضع المفتي يده على كتف رابين وشرح له استحالة كذب سكان الجنّة، وبدأ شروحاته حول رأيه من المحرقة. «بالنسبة للمسلم فقتل امرئ أو قتل كل الناس يتعادل، هذا يعني أن كل شخص له أهميته وثقله. سواء قتل هتلر ستة أو ستة ملايين فالأمر مرفوض ومشجوب. نحن العرب لم نشارك في لعبة الأرقام لأننا لم ننكر مساوىء هتلر. بدأ القتل فيكم ولبقية جيرانه وأهله، وأشعل الحروب، وكان يتجه لاحتلال بلادنا عندما انهزم، بعد أن تسبّب في إبادة خمسين مليوناً من خلق اللّه». لم يكن هناك حتى الآن ما يستوجب التعليق من إسحاق فترك المجال لمرافقه يسترسل في الشرح، بينما كان هو يقطف ما يشتهيه من الفواكه المتدلية من الأغصان. «لا أدري لماذا أصبحت القضية مرتبطة بالأعداد هذه الأيام. يفترض بالعقلاء على الأرض أن يعودوا إلى إحصائيات السكان في الدول الأوروبية قبل عام 1933، وهي متوافرة، ثم مقارنتها بالإحصائيات بعد نهاية الحرب، وحينها بقليل من التروي في تحديد الموتى بحكم السن من بين اليهود يمكن حصر تقريبي لأعداد المفقودين. فيما يتعلق بنا، فأنت تعرف أن الهجرة اليهودية كانت في السابق من العواجز الذين يرغبون في الموت بالقدس، ولكنها بعد تولي هتلر في برلين تحوّلت إلى هجرة شبان وتهريب أسلحة إلى فلسطين وإقامة مستوطنات، وتدفّق أعداد كبيرة. أريد أن أقول إن الأمر أضرّ بنا، وانتهى الحال إلى الحرب وطردنا من بلادنا. في كل مرحلة طرحتم شعارات مختلفة تناسب ظروفها، ولكنكم على الدوام تجاهلتم حقوقنا. نحن في فلسطين قبلكم، ولم نغادرها مثلكم، وكتبكم وعدتكم بالعودة ولكن ليس على حسابنا.

تركتم أوروبا وحضرتم لمحاربتنا، طردتمونا بالقوة، وأخذتم تباعاً حقوقكم وتعويضاتكم عن كل ما أمكنكم تذكره في بلادكم الأوروبية، ولكنكم لم تفكّروا في حقوقنا التي اغتصبتموها، وها أنتم ترفضون السلام وتعطّلونه بكل الطرق وتركّزون جهودكم على تشويه صورتنا بدل أن نتعاون سواسية». صمت الحاج وتمنى بعض اللوز المقشّر، فكان في رمشة عين يُقدم إليه من أحد الغلمان في إناء بلوري وردي.

«لو كان الرب يريد غير الذي حصل ويحصل، لما سمح به ولكان قد ألغاه على الفور. نحن نؤمن بكثرة وباستمرار اختبارات الرب لشعبه المختار. ما قاسيناه بعد الخروج الأول من أورشليم وحتى تجمُّعنا الذي اعترضت عليه، هو اختبار متواصل نجحنا فيه ضد أعتى خلق اللّه في كل بلاده وعصوره. يمكنك الآن أن تفحص بأسلوبك بعض ما عاناه اليهود طوال تاريخهم خارج فلسطين. ربما كانت نتيجة الحرب بيننا عام 1948 هضماً لحقوقكم، هذا يحدث في كل الحروب. لكن هل نسيت أنك كنت أول معارضي قرار التقسيم لفلسطين كدولتين؟ لو قبلت القرار وأقنعت به شعبك والعرب بدل أن تهيّجهم، لو قبلت لكانت القدس دولية ومشتركة للجميع الآن، ولأخذ كل فلسطيني وإسرائيلي حقه حسب ما هو ثابت له من أملاك، ولكان بوسع كل شخص أن يعيش في دولة الآخر أو بيع أملاكه والانتقال إلى دولته. لم يكن شيء سيضيع أو ينهب أو يسلب أو يقتل، وربما كنا تطورنا كجيران خير وتعاون. أنت زرعت فكرة الرفض، والآن يمارسه ورثتك من جماعة حماس بتأييد من أغلبية السكان، ويجرون على أنفسهم الخراب وربما يصيبهم مثلما أصابكم». استدارا على أعقابهما عائدين للجماعة، وقبيل أن يصمت إسحاق ليعطي محادثه فرصة،

راودته خاطرة. «نعم أخذنا تعويضات عما أصابنا من الألمان، وسخرناها لمصلحة الدولة والسكان. لو كنت في موقعكم لادّعيت على الألمان وحمّلتهم مسؤولية ما جرى كنتيجة لما فعلوه باليهود ولطالبتهم بتعويضات. لكنك رفضت التقسيم، ورفضت رؤية خصم آخر غيرنا».

«كيف كان بوسعي قبول التنازل عن النصف الأفضل والأخصب من بلادي لمهاجرين وصلوا للتو من بلدان أوروبية؟ ولم يكن في نيّتكم الاكتفاء بالتقسيم أصلاً، وأخذتم ذلك العام ثلاثة أرباع فلسطين وليس نصفها، وطردتم الناس دون احترام للقرار..».

«هذه تخمينات وسوء تقدير. التقسيم كان جغرافياً سياسياً، وليس انتزاع ملكية. أنت رفضت القرار دون تروٍّ، واستنجدت بالعرب وأشعلتم الحرب فخسرتم، ولم يكن لدينا فيما بعد أي مبرر لاحترام القرار الذي رفضتموه. والمهم أنكم لم تتعلّموا من تلك التجربة، فلا زلتم تخسرون وترفضون وتتراجعون. وعلى الرغم من عدم وجود جيوش عربية تؤيدكم الآن فأنتم استمعتم إلى صدّام ومجدداً تتعلقون بوعود إيران، بينما ينقصكم الخبز والدواء والتعليم ووضعكم يسير من سيىء إلى أسوأ. تريدون لإيران إبادتنا نووياً! هل تعرف، بما منحك اللّه من قدرة، حجم قوتنا النووية؟»

«أعرفها بالطبع. ولكنك تبالغ في رغبتنا في التدمير، نحن الذين دُمّرنا كما قلت أنت، ونعرف أن أي تراشق نووي بينكم وبين إيران سيكون على حسابنا نحن. لديكم سبل وقاية من الدمار، وكل الضرر سيحطّ على رؤوس جيرانكم وجيران إيران، علينا وعلى بقية العرب والمسلمين. نحن آخر من يرغب في حرب بأسلحة غير تقليدية، ونحن الطرف الأول المحتاج للسلام، وأنت تعرف أن جماعتك لا يريدون السلام العادل».

«لا يوجد سلام عادل بعد الحروب، هناك سلام المنتصر، وبعد أجيال ربما تتوافق الآراء ويتحسّن السلام. لا يوجد أمامكم سوى خيار القبول ومجاراة رغباتنا المعلنة للسلام. ما يفعله ورثتك الآن لا ينمّ عن مخطط، ولو منحك اللّه القدرة على رؤية المستقبل كما ترى الماضي، لكنت تحسّرت على رفضك قرار التقسيم، وتمنّيت أن تقبل قبيلتك الآن ما يعرض عليها. لسوء حظكم أن ياسر أيضاً لم ينتهز الفرص التي أتيحت له بعد اغتيالي».

«لم يكن بوسعه قبول شيء يمسّ سيادتنا على القدس، وتحديداً على ساحة الحرم الشريف ومسجدي قبة الصخرة والأقصى، أو تقبّل رفضكم حلاً عادلاً يعيد اللاجئين، أنتم تدّعون حق عودة بعد ثلاثة آلاف عام، وترفضون حق عودة أناس ما زالوا أحياء!».

كفّا عن الحديث مع الاقتراب من الجماعة، واستمعا إلى صوت ديجول الجهوري قبل أن ينضمّا إلى الآخرين، وفهما أنه مُكلّف تنظيم اللجان لمراقبة الأوضاع وإعداد المقترحات حول موعد القيامة وكيفيتها، وبالطبع حول الأمور التي استجدّت أثناء الحوارات الجانبية.

أهل النار

اقترح كمال استدعاء عدة شخصيات أميركية من سكان جنّة النصارى وإشراكهم في اللجان، وسلم ديجول قائمة بعشرين اسماً حتى يعطيها بدوره إلى جبرائيل.

«هل يمكن يا شارل استدعاء بعض سكان جهنم لأخذ رأيهم والاستفادة من خبرتهم؟».

«لم أسمع بذلك ولا أعتقد أنه ممنوع. يمكن طلب رأي وشهادة أي إنسان من الأموات. ضع مَن تريد على قائمة كمال». جاءت إجابة ديجول عن سؤال ياسر بين ضحكات البعض، وهزّ آخرين لرؤوسهم تعجباً من خواطر ياسر الذي عاجل ديجول بسؤال آخر.

«هل يمكن تشكيل لجنة لدراسة مطالب النساء في الجنّة؟» تحيّر ديجول، فهو غير ملمّ بالأمر، وأسرع خالد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

«ذلك موضوع داخلي بين المسلمين، ومحصور في الدرجات السبع الأولى من الجنّة. نحن هنا في مؤتمر خاص بيوم القيامة على الأرض، وربما نتطرّق لشؤون يوم الحساب».

«يا حبّذا لو طلبنا من كل لجنة أن تجعل من ضمن اختصاصاتها مراقبة بعض علامات القيامة، وهكذا نجمع الآراء حولها من لجان متعددة». كان الشيخ محمد يعرف أن هذا الأمر غير محبّب وقد رفض في نقاش سابق، ولكن تدخله هنا جاء للتغطية على سؤال ياسر وتحويل الحوار عنه إلى نقطة الخلاف هذه.

«دعونا نسمع من شارل ما قاله له الآخرون من المؤتمرين حول تشكيل وعمل اللجان». همَّ ديجول بالاستجابة لطلب ياسين، لكن عثترت سبقته وتدخّلت قبل أن يتحدث سليمان أيضاً.

«أريد معرفة مطالب النساء المسلمات في الجنّة. لا يهمّ إذا كان هذا من اختصاص المؤتمر أم لا، ونحن هنا في لقاء عفوي أصلاً..».

«لكن المؤتمر حول موضوع واضح، والأفضل أن نعطي كل الوقت لذلك الشأن حتى نتقنه..».

«يا شيخ يوسف، أنت قاطعت عثترت، وترفض طلبها. أرجوك السكوت، أو الحديث ضمن سؤالها». وضع هانيبال يده على وسطه وكأنه يتحسّس مقبض سيف أثناء نصرته لآلهة الخصب والحرب.

«في الواقع قضية النساء هذه، التي لا أعرف شيئاً عنها للآن، تخصّنا جميعاً وليست محصورة بالمسلمين. قبل قليل كان بيننا إجماع على فكرة توحيد الجنان واعتماد الطراز الإسلامي. إذاً من الواجب معرفة مطالب النساء، فهذا يخصّ الجميع، كما أن الجنّة يفترض أن لا أسرار فيها، وإحساسي أنكم تلفلفون شيئاً تخجلون من كشفه». هكذا وضع سليمان الذكور المسلمين في حرج وطالب ياسر بالإفصاح، وكانت العيون الغاضبة والشامتة مثل المتطفلة قد سلّطت عليه.

«لا يوجد في مطالبهن ما يؤثّر على نعيم الجنّة يا سيدنا. هناك قلّة من نساء الأرض ساكنات الجنّة يطالبن بالتساوي مع الرجال، أو بالتحديد، كما فهمت، يردن اكتفاء الرجل بزوجته والتنازل عن السبعين حورية التي صنعها اللّه من طين الجنّة الكافوري لكل مؤمن». هكذا اختصر ياسر القضية وتخلّص منها.

«هذا طلب معقول. كما عرفت فإن اللَّه أعاد نساء الأرض في الجنّة شابات جميلات لا ينقصهن شيء ويعدن أبكاراً بعد كل مضاجعة، وهنّ بذلك في منزلتين كإلّهة أُم وبكر، فما الذي يتمنّاه الرجال أفضل من ذلك النعيم؟».

«السؤال يا عثترت هو، ماذا ينقصهن لو كان عند بعلهن سبع، أو حتى ألف حورية بإذن من اللَّه، طالما أن البعل يكفي كل منهن حاجتها وقتما تشتهيه وتتمنّاه؟».

«الجواب يا سليمان هو: لماذا يحتاج الرجل لعدة نساء طالما أن زوجته كاملة الصفات وتعطيه حاجته كلما اشتهاها؟ إن لم تكن الزوجة خصبة، وقصّرت في إشباع شهية بعلها، فبوسعه آنذاك الاستعانة بحورية يصبّ شوقه ونهمه فيها، هذا إذا كان شهوانياً ولا يرى في النساء غير المضاجعة».

كان ذلك آخر ما سمعه ياسر، وأراد أن يزعق بصوت مرتفع أن الحوريات متشابهات في الشكل، ولكن ياسين واصل دفعه بعيداً عن الحضور وهو يحتضنه من وسطه ويتمنّى عليه السكوت.

«دعهم يعرفوا يا أخي الحقيقة، كيلا يتّهمونا أننا ورّطناهم في جنّتنا، ويطالبونا بالحوريات».

«هذا من اختصاص ربنا، والجنّة هنا مليئة بما يشتهون من غير النساء والجنس. المؤمن منهم سيجد فرصته في التعبد، والفالت سيتعامل ربنا معه. دعنا من ذلك الآن. مَن هم الذين تودّ رؤيتهم في جهنّم؟» استطرد ياسين ضاحكاً: «عليك أن تحذر هذه الأمنية، فربما استجاب العلي لك ولكن بشكل آخر. هناك لا عنب ولا موز ولا تين، بل ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: 52-56].

«أعوذ باللّه من الشيطان يا أخي. وددت لو رأيت بعض الشهداء من رفاق الدرب الذين لم يصلوا إلى الجنّة».

«لو كانوا شهداء لدخلوها آمنين في أرقى الدرجات». تنهّد ياسين إثر كلماته هذه، واعتلت وجهه علامات من الغمّ من جراء ما تطرّق إليه ياسر، وأضاف: الكثير ممن سبقوني ولحقوا بي وظننتهم شهداء لما يصلوا إلينا بعد». صمت قليلاً وطلب منه ياسر تفسير هذا اللغز، فقال: «أنواع الشهداء كثيرة، منهم من مات دفاعاً عن بيته أو دينه أو ماله، ومنهم الذي مات مظلوماً. الشهيد، كما عرفت بعد فوات الأوان، هو الذي يقتل قاتلاً في الحرب، ولكن من يقتل أبرياء بعيداً عن الميدان، ويموت، فلا يعتبر شهيداً على الفور، وعليه تلقّي العذاب حسب ماهية الذين قتلهم، وربما فاز بالجنّة فيما بعد لأن نيته كانت حسنة. وكل من يقتلهم العدو من مدنيين أو مجاهدين، فمصيرهم الجنّة حتى لو قتلوا في فراشهم».

«هذه ورطة يا شيخ، كيف أخفيت عنك هذه التفسيرات أثناء معاشك على الأرض؟».

«شراسة الاحتلال، ومشاعر الانتقام المتّقدة في النفوس، وعوامل الضعف الذاتي أيضاً، كلها زيّنت لنا طريق الإضرار بالأعداء وقتلهم من ديون تمييز».

«هذا يعني أن شهداءنا أكثر من شهدائكم وفق كل المقاييس والنسب والتناسب». تبسّم ياسر لهذه الخاطرة التي جالت في ذهنه وأخذ يترحّم على كل موتى المسلمين سواء كانوا في النار أو في الجنّة.

«النسبة الأعلى من شهداء شعبنا هي من المدنيين، الذين ماتوا لاجئين خارج بيوتهم، والذين سقطوا من القصف ومن الاغتيال ومن جرّاء سياسة الحصار العسكري والاقتصادي. أعتقد أن أعداد

ونسب أبناء شعبنا في النار هي الأدنى على الإطلاق بين شعوب الأرض. من هو الذي كنت تودّ رؤيته هناك يا ترى، وفي أي طبقة يتشلوح؟».

«لعلّهم كثر. كوني لا أعرف من هم سكان الطبقات العليا في الجنّة، فلا يمكنني تخمين من أُرسل بهم إلى جهنّم. وأنتم سكان الطبقات السفلى مشغولون عني».

«ما رأيك في اقتراح سليمان بإحضار الجميع إلى جنّتنا؟».

«ليت هذا هو اقتراحه، فحينها يمكن تسريب الأمر إلى الأرض، فربما ساعدهم هذا التطور على عزل المتشدّدين من كل الأطراف، وخصوصاً أصوليي البيت الأبيض. لكن اقتراحه هو تخيير من يريد من اليهود والنصارى أن يشاركنا في جنّتنا. ولا يخفى عليك يا ياسين ما يعنيه هذا».

«سيحضر إلينا الشهوانيون فقط، وسيخلقون المشاكل منذ البداية في أي طبقة يوضعون. ربما كانت هذه رغبة سليمان فقط؟».

«لا أعتقد أنها رغبة سيدنا سليمان وحده، إذا سمح لهم الرب بالاختيار، فمن الطبيعي أن يختاروا جنّتنا ونعيمنا الحسي والروحي. أي شيء، بإذن اللّه ورضاه، هو أفضل من حالتهم الآن في جنانهم والملل الذي يعيشونه هناك. إذا حضر الشهوانيون منهم فقط، فهذه مصيبة، وإذا حضروا كلهم فالمصيبة أعظم لأن بعضهم سيسعون إلى تكييف حياتنا مع رؤيتهم».

«هذه بعيدة عنهم». قال ياسين «وفي أول مناسبة سأطرح فكرة أن من يُرد مشاركتنا في الجنّة عليه اعتناق الإسلام أولاً، وعلينا التثبت من حسن نياته أيضاً. لكن قبل هذا يتوجّب سؤال جمال وخالد رأيهما، فقد تقبّلا فكرة سليمان دون اعتراض. يجب أن نلتقي معاً من دون الآخرين لنسمع ماذا عندهما ولنوحِّد رؤانا».

«تصوّر أن يفوز شارون بواسطة ويحضر إلى جنّتهم، ثم نراه هنا على دينه مع حورياتنا. لا لا فكرة سليمان هذه من أتعس ما سمعت. إذا رفضوا الانتقال إلى الإسلام قبل الفوز بنعيم جنّتنا، فعليهم على الأقل الخضوع في الأرض للسلام العادل الذي يعيد لشعبنا كل حقوقه وتعويضاته عما عانى وخسر، والعيش مع أهلنا هناك في ظل الإسلام أيضاً، أما أن يكسبوا الدنيا والآخرة، فهذا مستحيل. دعنا نعد لنرى ماذا صنعوا». انطلق ياسر مهرولاً يحادث ياسين الذي يطالبه بالتروِّي والتمهل. «مَن يُرد جنّتنا عليه أن ينشوي بنارها أيضاً. شارون وكل مَن ساهموا في قتل الأبرياء أو سكتوا عنه يجب أن ينالوا عقابهم في جهنّم أولاً، ثم يمنحون طبقة دنيا في الجنّة. أنصار السلام اليهود أهلاً وسهلاً بهم بيننا، أليس كذلك يا ياسين؟».

«رويداً رويداً، لا تستعجل، لن يتم الفصل في شيء بسرعة من دوننا، وعموماً كل القرارات بيد اللَّه». عاد ياسر للمسير المريح واستطرد ياسين في محاولة للإجابة عن سؤال ابن بلده: «جهنّم أُعدِّت للكافرين. نحن لا نعرف الآن عن الجحيم الكثير، لا ندري أستكون على الأرض أم هنا في السماء. الجحيم الحالية في الأعالي أعدّها القاهر موقتاً عندما قرّر اختصار فترة القبور، وعلى أغلب الظن أن النار ستكون على الأرض يوم القيامة، وتحت البحار. نحن هنا أيضاً لا نعرف من هم سكان النار الآن وكم من الوقت سيمكث كل منهم. نعرف فقط بعض الذين يصلون إلى هنا بعد تلقِّي نصيبهم من العذاب. هكذا فأمر شارون وأمثاله بيد اللَّه، وربما يتعذّب الآن أثناء غيبوبته الطويلة بما لا يخطر على بال أي

منا». توقفا تحت نخلة، وهزّ ياسر جذعها الذهبي فتساقط بعض الرطب ببطء فتناولا بعض الحبات وسرحا لحظات حتى عاد ياسر للحديث:

«أهل النار معروفون بصفاتهم وحسب أعمالهم، وليس من الصعب تخمين من سيذهب إلى هناك».

«حسب معرفتنا فكل حاكم يحكم بين الناس سيحبس يوم القيامة ويأخذه ملاك من قفاه إلى جهنم حيث يتلقّى أمر اللّه بإلقائه في الهاوية أو غير ذلك. أنت ورابين لم تمرّا بهذه التجربة، ولا نعرف نتيجة الأحكام على الآخرين أو ما سيكون يوم القيامة. من قرّر الرحمن سلفاً أن مصيرهم النار هم جالوت، وهامان، وقارون، وفرعون لأنهم ظلموا اليهود أو اتّهموا موسى بالسحر والكذب، ثم أصحاب الفيل وأبو لهب مصيرهم النار، ومثلهم عقبة بن أبي معيط وأبو عامر الفاسق وعمرو بن عبد ود، وعبد اللّه بن خطل، لكونهم أساءوا إلى نبيِّنا بشكل لا يُغتفر. هذا لا يعني أن أعداد أصحاب النار ستكون قليلة، فقد شبّه النبي الناس بالفراش الذي يتهاوى إلى النهار وقال: أنا آخذ بحجزكم أدعوكم إلى الجنّة، وتغلبوني ألّا تقحما في النار».

«خوفي أن الجنّة تزدحم بسرعة بينما النار لا تجد وقوداً لها سوى الحجارة». قال ياسر لياسين وقد وصلا إلى الجماعة فوجداهم يتناولون أطعمة من كل صنف ولون، امتدّت بينهم على موائد عاجية وفي أطباق من البلور والذهب. جلسا إلى الجمع وشاركوهم في الأكل من دون أن يكون أي منهم جائعاً أو شبعاً، فأهل الجنّة ليسوا بحاجة إلى طعام أو شراب، والإكثار منه لا يُشبع ولا ينفع أو يضر.

أولى القبلتين

«لا أدري بالضبط ماذا تريد يا سيدنا من سؤالك هذا عن القبلة، لكن القدس مهمة لنا من قبل الإسلام، وبالطبع من بعده. لهذا اتخذها المسلمون الأوائل عاماً ونصف العام قبلتهم، ثم تحوّلوا عنها إلى مكة بأمر قرآني، لذلك هي أولى القبتلين..».

«وثالث الحرمين الشريفين». أكمل الملك سليمان حديث صلاح الدين، وأضاف: «أهميتها للمسلمين نابعة مباشرة من أهميتها لليهود من قبلهم. أما ثالث الحرمين فهو المسجد الذي أقمته أنا، وبارك اللّه من حوله».

«لكن هيكلك يا سليمان هدم من قبل الرومان ولم يدم إلّا بضع سنوات. لا تنس أن تشييده وإقامة معبد مركزي كانا ضد رغبة اليهود، فهو يعارض معتقداتهم التي تُفضل حمل العقيدة والآلهة مع القبائل أينما تحرّكوا. أنت أردت تقليد ملوك المنطقة، واليهود لم تعجبهم تحديثاتك. وبعد الهدم حاول بعض من قومك إعادة بناء الهيكل ثلاث مرات، وفي كل مرة تتزلزل الأرض تحت البناء ويقع. يبدو أن الهيكل أُنيط بك وبزمانك فقط!».

قبل أن يرد سليمان على الملك الصليبي ريتشارد، سبقه صلاح الدين بالقول: «نحترم هيكل سليمان ونعتبر سيدنا معتنقاً للإسلام كما ورد في القرآن، ونقدِّس معبده كمسجد. كلام قلب الأسد ذكّرني بقصة ملك الحبشة الذي أراد هدم الكعبة، بيت سيدنا وأبينا

إبراهيم خليل اللَّه. أراد الحبشي تحويل الحج إلى معبد بناه في بلاده، ولم يجد بين العرب من يقف أمام جيوشه وأفياله، فأرسل اللَّه عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجِّيل، فجعلهم كعصف مأكول».

صمت الثلاثة هنيهة يتأمّلون سبب رواية صلاح الدين لهذه القصة القرآنية، التي حدثت قبيل الإسلام، حتى قال سليمان: «قصدك أن الرب حمى بيته في مكة، ولم يرسل الطير لتعصف بالرومان عندما هدموا الهيكل، بل إنه سبحانه زلزل الأرض تحت أساسات محاولات إعادة بنائه؟».

«هذا لا يعني أنه أقل أهمية وقداسة، ولكنّ للَّه شؤوناً في خلق عباده وجماده..».

«يبدو لي أنكما تتناغمان ويكمل أحدكما الآخر. الحقيقة أن النبي موسى ولد ومات ودفن خارج فلسطين، والنبي محمد لم يولد في فلسطين، وإنما أُسري به من القدس للسماء السابعة، ولم تدم صلاة المسلمين الأوائل طويلاً تجاه القدس». نفخ ريتشارد صدره ونقّل النظر بين محادثيه، ثم وضع يمناه على صدره وواصل: «أما نحن، فالقدس وفلسطين تعنيان لنا كل شيء. هنا وُلد وصُلب نبينا، وترعرع ديننا تحت أشد ظروف الاحتلال والقهر والمؤامرات».

«يشرّفنا جميعاً انتشار دين ابننا المسيح في كل بلاد الأرض، فهو يهودي فلسطيني، ويخزيكم ما فعلتم باسمه من مذابح ضد اليهود والمسلمين في فلسطين والقدس وتحويلكم الأقصى الشريف إلى إسطبل لبغالكم..».

«ليس يهودياً ولا فلسطينياً، إنه ابن اللَّه وابن مريم. كيف تناقش في هذا الأمر ونحن هنا في نبع الحقيقة؟» قاطع ريتشارد سليمان

بحدّة، فأعاد هذا عليه أنه قال ما قال ولم يخرس اللّه لسانه، أو تصله رسالة عبر ملاك بتعديل مقولته، فتدخّل صلاح الدين بينهما:

«هذه قضية لا جزم فيها، فاللّه واحد أحد لم يلد ولم يولد، ولكن النبي عيسى تكون من نفخ الملاك بروح من اللّه في مريم العذراء، فكان ما كان. غضبك يا ريتشارد لا يلغي مقولة سليمان بالفظائع التي ارتكبتموها دوماً باسم رسول الحب والسلام. ها هم جماعتك، بالتحديد قومك، لم يتّعظوا مما وقع لك وخراب ملكك بعد تخريبك بلادنا. يحتلّون الآن بلادي، العراق، مجدّداً لنهب النفط كما نهبتم كنوز الشرق قبل ذلك. آنذاك ادّعيتم الحضور لنجدة الدين فقتلتم النصارى واليهود والمسلمين، والآن يدّعي أحفادك أنهم يغزون لتصحيح الإسلام ونشر الحرية. النتيجة نراها في الفظائع اليومية والتناقضات الجلية بين الأقوال والأفعال».

«كيف تقول هذا يا ابن الأيوبي؟ أهلك الأكراد هم أكبر مستفيد من الحملة الإنجليزية الأميركية على العراق. أزلنا لكم المتسلط الذي دوّخكم وأرهب الجيران وفشل العرب كلهم في تهذيبه. وضعناكم على طريق الديمقراطية والحرية برئاسة كردي مثلك وتقول...».

«أقول إنكم أخبث وأكذب من صنعهم اللّه. تقسيماتك هذه لا تعجبني. كل مشاكل الأرض لكم فيها ضلع أو أنتم سببها بشكل أو بآخر. تخلقون المشاكل وتهرولون منها قبل حتى إطفاء النيران، ثم تدّعون نشر الحرية والعدالة. إمبراطوريتكم انحسرت وجيرانكم الأقربون من اسكوتلنديين وويلش وإيرلنديين هم الأشد كراهية لكم، ولا توجد أمة على الأرض تحبكم، أو تتذكّركم بالخير». توقّف صلاح الدين وتحوّل بنظره إلى سليمان واستدرك. «عندما حطّ ريتشارد بمراكبه في ميناء عكا أثناء حصاري لها، أرسل مَن يخبرني

أنه يحمل مجموعة صقور كهدية، ولكن السفر أنهكها ويريد مني لحوماً ودجاجاً ليطعمها ويسمِّنها قبل أن يهديها إليّ. وصل إلينا جائعاً ولم تنطل علينا حيلته فأطعمناه، وقتل منا آلاف الأبرياء خيانة وغدراً، ثم أسرته وطبّبته وأرسلته إلى بلاده آمناً. هم هكذا دوماً عراة ويظرطون أغطية».

«وأنتم تنكرون الجميل وتعضّون اليد التي تساعدكم. نريد رفعكم إلى مصاف الأمم الحرة والمتحضرة ولكنكم تنقلبون علينا...».

«دعك من الكذب والتلوّن. الأمور جلية، جئتم للسرقة ولإزالة صنيعتكم بعد أن استنفد دوره ضد الثورة في إيران. ثم عن أي حضارة تتحدث؟ حضارة التعري والأنانية وتجارة الأطفال واستعمالهم في البغاء؟ لم نطلب حضارتكم ولم نستنجد بكم. المشاكل التي تخلقونها كلما تدخّلتم هي أعنف بآلاف المرات من التي تدّعون أنكم أردتم حلّها، أنظر ماذا فعلتم بفلسطين بعد انتدابكم عليها، سلّمتموها إلى عنصريين وهرولتم من دون تطبيق هدف الانتداب أو ضمان تنفيذ قرارات الأمم المتحدة. وأنتم الذين خنتم الشيخ خزعل في عربستان ومكّنتم عميلكم رضا خان من احتلال الأحواز. أنتم أيضاً الذين سلّمتم الجزر الثلاث في الخليج إلى إيران قبل يومين من انسحابكم من مياهه. حتى الحرب الإيرانية ـ العراقية جاءت من تحت رأسكم بعد توقيع اتفاقية 1937 ومنحكم إيران حقوقاً في شطّ العرب. وانظر ماذا يحدث في العراق الآن بعد تحريركم له. لماذا لا تنخمدون في جزيرتكم وتريحون خلق اللّه؟».

«يبدو أن حجم الاختلاف بينكما هو سبب وجودكما في هذا اللقاء. هل تتّفقان أم تختلفان حول...».

«دعك يا سليمان من دور الحكيم هذا، أنتم خنتم المسيح

وحرّضتم على قتله، وسيعود إلى قدسنا كإشارة إلى اقتراب يوم القيامة. لا تظن أن مداهنة قادة إسرائيل الآن للغرب تنطلي علينا. القدس لنا وحدنا، وإذا أردتم الأمن فالأفضل عدم المساس برموزنا الدينية».

«لا داعي لتوترك، وأنا هنا لا دور لي فيما يجري على الأرض، وكما قال لك صلاح الدين، فأنتم تقعون في شرِّ أعمالكم. القدس ليست لأحد غير اليهود. دولتنا قامت وتجدّدت هناك حسب وعد رباني. طالما أنك في الدنيا الآخرة وتؤمن باللَّه والجنّة والنار والعقاب والثواب فلا يمكنك التملص من وعد الرب». استدار سليمان من مواجهة ريتشارد إلى عيون صلاح الدين المسلّطة عليه واستطرد، «هذا يعيدنا إلى سؤالي الأول: لماذا اتخذ المسلمون في عهد النبي محمد من القدس قبلة لهم، وذلك قبل فتح فلسطين أو بناء أي جامع فيها؟».

«ليس من أجل بقايا هيكلك، ولكن لأن اللَّه أسرى بالنبي من المسجد الحرام إلى القدس وصلّى فيها بالأنبياء ثم عرج منها إلى السماء، فأصبحت القدس والصخرة والمسجد الأقصى، الذي صلّى فيه قبل بنائه، أصبحت أماكن مقدّسة منذ الأيام الأولى على الدعوة الإسلامية». خفّف صلاح الدين من حدّة نبرته وأضاف «لم أتوقّع منك الجزم بأن القدس لليهود، يمكن تقبّل الأمر لو قلت إنها لكل الأديان بدون اضطهاد من القوي للضعيف. لديكم وعد قديم ولدينا وعد أحدث منه، والجديد يلغي القديم. حتى لو أخذنا بصحة وعدكم، فالرب لم يقل لكم أن تقتلوا وتبيدوا سكان القدس وتعقّدوا حياة المسلمين والنصارى فيها حتى يرحلوا عنها. الظلم الواقع منكم على الفلسطينيين الآن هو أحد علامات اقتراب القيامة، وفي قناعتنا، عندما تحين القيامة، أن كل حجر سيخبر

المسلم عن اليهودي المختبىء خلفه. أنتم في النهاية إحدى قبائلنا السامية، وعليكم التصرّف من هذا المنطلق. ما سمعته منك ومن ريتشارد الآن لا يشجّعني على تأييد مقترحك لفتح جنّتنا للمؤمنين من كل الديانات، فبعد فترة ستدّعون أنها جنّتكم ونحن فيها ضيوف».

«أنا لا أؤيِّد مشروع الجنّة المشتركة ولا الآراء المطالبة بتعجيل يوم القيامة». قال قلب الأسد وقد استعاد هدوءه: «أحفادي في بلادي يعيشون في جنّاتهم المادية على الأرض، والمؤمنون منهم سيجدون طريقهم إلى جنّتنا الروحية في الآخرة، بالقرب من الرب وابنه».

«أي جنّة التي تتحدّث عنها على الأرض يا رجل؟ بلادكم تتاجر بالعبيد من كل الأعمار، تقتل البشر، مليئة بالدعارة، لو منحكم اللّه مزيداً من ساعات الشمس لاستغنت إناثكم عن اللباس القليل الذي يستر عوراتهن الآن، رجالكم مخنثون وأعدادكم في تراجع...».

«نعم نعم أرى مثلك أن كل ذلك يجري في بلادي وبلاد نصارى العالم الغربي. هذا بالضبط هو سبب قولي إنهم في جنّة على الأرض، وضعهم هناك أشبه بوضع جنّتكم هنا. ألا ترى معي أن الرجال في بلادكم يسيرون متخفّين تحت براقع النساء، ومحجباتكم يحشرن أجسادهن في أضيق لباس؟ أليس الذين يهربون من بلادكم طلباً لجنّات بلادنا، هم ملايين أضعاف المجاهدين الطالبين للجنّة عبر الاستشهاد؟ إنهم يدفعون آخر نقودهم لعصابات التهريب ويغامرون بحياتهم لوضع أقدامهم على أرضنا. ثم عن أي عبودية تتحدث يا صلاح الدين، إناثنا العرايا حرائر، ومحجباتكم مكرهات حتى في اختيار أزواجهن وتعليمهن، وحوّلن الحجاب إلى سلعة

إغراء..». بدا أن ريتشارد لديه المزيد من الآراء للردّ على خصمه وصديقه حين كانا في فلسطين، لكن سليمان عاد للتدخل على الرغم من استنكارهما السابق لقيامه بدور الوسيط الحكيم:

«سجالكما هذا لا يخدم هدف اللقاء. نحن نرى من هنا كل شيء على الأرض، ويمكن للمسلمين مراجعة التاريخ وصولاً إلى عصورنا وما سبقها أيضاً، والمطلوب منا هو إبداء الرأي في موعد القيامة. أرى أنكما عارضتما اقتراحي بتوحيد الجنّة، وريتشارد يعارض أيضاً تقديم موعد القيامة. الاختلاف حول ملابس الإناث لن يساعدنا، لكل عصر لباسه، ولكل قوم ما يناسبهم ويريحهم. إناثنا أيضاً عليهن تغطية شعورهن، ولكن ذكاءهن دفعهن لتغطية الشعر بباروكة أجمل من الشعر الأصلي. هكذا يُطعن الرب، ويفزن بعيون أزواجهن. مهما بدا لك يا صلاح الدين من خطيئة في تعرِّي النصارى، فالبشر بأغلبيتهم ما زالوا يؤمنون بالأديان ويمارسون تعاليمها بما يتوافق مع ظروفهم. أنتم المسلمين لديكم مبالغة في شأن الجنس والأجساد، خيالكم مطاط». استمرّ إصغاء ريتشارد وصلاح الدين إلى سليمان وكأنهما تذكّرا الهدف من لقائهما في الفردوس، فواصل حديثه: «أول دعوة نشرها الإسلام هي منع العبودية وتحقيق المساواة بين الناس، لكن ذلك لم يتحقّق على الإطلاق في أي عصر وزمان. المهم أن ذلك التشريع وفّر لمن يريد فرصة للتحرر. والذين يرسلون الآن صغارهم للبيع في دول الغرب الغنية، يشبهون الذين كانوا يبيعون صغارهم لتصديرهم للدول الإسلامية في أيام عزِّها. فقراء العالم الآن يرون الجنّة في الدول الغنية، ومواطنو الدول الغنية يشعرون بأن حياتهم أشبه بالجحيم من كثرة العمل وضغط المتطلبات. نحن من موقع المراقب المطّلع نقدِّم الأحكام وفق مقارنات لا تخطر على بال سكان الأرض».

«ربما، ومع ذلك فموقعنا هنا لا يخوّلنا الحكم بنهاية الحياة على الأرض. أنا مثل ريتشارد أعارض التلاعب بموعد القيامة. نعم الإسلام يمرّ بفترة حرجة كنتيجة لتعاسة الحكام، إنما الأفراد والأمة والدين بخير. الإسلام هو الأسرع انتشاراً الآن، المسلمون في زيادة بالولادة وبالاعتناق، ودينهم يزحف سلماً إلى كل بقاع الأرض. ربما هربوا من بلادهم لكن دينهم في قلوبهم ينشرونه أينما حطَّ بهم ترحالهم. قوى الشر المضادة لهم كثيرة وذكية وغنية، ومع ذلك فالزحف مستمر ومن يقع منا على الطريق سيجد الجنّة الأبدية في انتظاره. قوى الشر والعدوان تحتل أرض الإسلام لكنها تفشل في نشر مبادئها، بل على العكس، كل احتلال يتبعه تمسك بالدين وزحفه جغرافياً إلى بلاد المعتدين. وهكذا لا أرى ضرورة لتمنِّي الإسراع في نهاية الحياة على الأرض».

اقترب منهم ملاك يصحبه ثلاثة رجال بدوا مبهورين بما يشاهدون في الفردوس، عرّفهم الملاك على بعضهم بعضاً. جلسوا وحضر غلمان يحملون الشراب والطعام للقادمين الجدد. «للواحد الجبار حكمة أن يقود إلينا هؤلاء الضيوف الأندلسيين الآن». تأمّل صلاح الدين وجه محمد العامري وعرف أنه قادم لتوّه من النار، وخاطب ربيع وحسداي: «أنت أسقف قرطبة وأنت طبيب الناصر، (!!) كانت حياتكما قبل استيلاء صاحبكما هذا على الحكم».

«صدقت يا سيدي، عرفنا أننا هنا حسب استدعاء من مولانا الخليفة الناصر. لم نستوعب بعد كل شيء، لكن ما رأيته وسمعته للآن يعجبني. من ألطاف الرب أن يجمع بين صديقين متحاربين ملك مثلك ومثل الملك ريتشارد، ويسمح بانتقالي من جنّة النصارى إلى جنّتكم للقاء مع مولاي الخليفة الناصر».

«أعتقد أن الرب أراد لك يا صلاح الدين أن ترى وتتذكّر

الأندلس وأهلها وما آلت إليه». تأوّه صلاح الدين وهو يستمع إلى ريتشارد وقد عرف أنه سيلقي عليه خطبة. «أخذتم إيبيريا قهراً، ولم تتوقف خلافاتكم فيها، والمنصور، هذا القادم من عذاب جهنّم لتوِّه، كان يغزو ويدمّر ويقتل ممالك جيرانه النصارى مرتين كل عام. هذا هو أحد الأسباب التي دفعتنا للتفكير في الحملات الصليبية...».

«عفواً يا سيدي، الفتح الإسلامي للأندلس أنقذ سكانها من مظالم القوط، ومنحنا نحن اليهود مثل النصارى حقوق المسلمين نفسها. الأندلس حتى عهد خليفتنا الناصر كانت الدولة الأولى في كل شيء، ولم يمر اليهود بأمن ورخاء مشابهين منذ مملكة سيدنا سليمان».

«هي كذلك يا حسداي، لكن كلام ريتشارد فيه قليل من الحقيقة وتحديداً حديثه عن هذا الأحدب الملقّب بالمنصور». قالها صلاح الدين باشمئزاز: «كان يدمِّر بدون هدف، قاتل دولة الفاطميين في المغرب أيضاً، نشر الفساد داخل الأندلس بعد أن خان وصية وعهد الخليفة الحكم ابن الناصر فانقلب على ولده وحبسه وقتل أعمامه وشتّت الأمويين وسلّم الحكم لأبنائه الذين مهّدوا للفتنة ولبداية النهاية في الأندلس». استدار صلاح الدين إلى ريتشارد واستطرد «أفعاله أضرّت بالمسلمين وبأهل الأندلس أكثر مما أضرّت بغيرهم، وإذا كان هو سبب التفكير في الحملات الصليبية فكان الأجدر الاكتفاء بزحفكم على الأندلس».

وقف العامري وأخذ يدور بالقرب من الآخرين، ويحكّ رأسه وكأنه يُسرع في استرجاع ما فاته من عصور أثناء إقامته في الجحيم. «ستحتاج لبعض الوقت حتى تستوعب ما جرى». خاطبه

سليمان وأخبره أن بوسعه المشي دون عرج هنا وأن النقرس في ذاكرته فقط وليس في قدميه. «أنت أول من أقابله من سكان النار، هل لك أن تصف لنا الحياة هناك؟».

«مَن يُرِدْ معرفة الشيء عليه ممارسته، اذهب للجحيم تر بعينيك». كان محمد بالفعل يحاول التعرف على المجريات وموقع صلاح الدين، ويجهد ذهنه في تقدير سبب استدعائه من قبل الناصر، وهل هناك علاقة لاستدعاء كل من النصراني واليهودي معه. «لم تعجبك سنوات حكمي للأندلس، أنا لم آخذ كرسي الخلافة من هشام، ولم أنفِّذ ضد النصارى سوى رغبات أهل قرطبة والأندلس، أما فشل أولادي في الحفاظ على ما تركته لهم فلا أتحمّل تبعاته إلا إذا تحمّلت أنت تبعات ما آلت إليه الأحوال بعد تسليمك الحكم لأولادك. قاتلت الدولة الفاطمية في المغرب اقتفاء لأثر الناصر والحكم، أما أنت فخنت أمانة الفاطميين في تسليمك الوزارة وقطعت الدعاء لهم في المنابر وأنهيت دولتهم في مصر بعد موت سلطانك». كان محمد يذهب ويجيء في نطاق عدة أمتار وهو يخاطب صلاح الدين: «... ثم كيف تجلس مع هذا الخائن الذي أطعمته في أول لقاء لكما في عكا، ثم أخلَّ بالمعاهدة لتسليم المدينة وذبح ثلاثة آلاف من سكانها تحت ناظريك يوم الجمعة الثاني عشر من تموز 1191؟ ولماذا بعد أن دارت عليه الدوائر في القدس طبّبته وأطلقت سراحه؟».

«عليك بدل أن تطرح مثل هذه الأسئلة أن تبحث عن إجابة لماذا أنا في الجنّة وأنت في جهنّم وبئس المصير؟» سكت محمد وعاد يعرج في دورانه ويتمتم «عذاب النقرس ومناكفة أهل قرطبة في

الدنيا وعذاب اللّه هنا في الآخرة، ليتني بقيت كاتباً أمام مسجد قرطبة الجامع».

تدخّل سليمان لتهدئة النفوس واقترح قبل الافتراق أن يتأمّل كل واحد برهة من الوقت ما يدور الآن على الأرض في البقع التي يختارها، ثم تبادل الانطباعات. «هذا يعيدنا إلى الغاية من اللقاء في الفردوس، ويسهل إبداء الرأي في موعد القيامة».

الزقّوم

حرص سليمان على الاقتراب من العامري وأسمعه تطمينات بسعة الوقت وعدم الحاجة للقلق. «مؤتمرنا حول يوم القيامة سيطول، وطالما أنهم استدعوك فلن تعود بسرعة للنار، وربما وجدت طريقة لإطالة إقامتك في إحدى طبقات جنّتكم».

«أعرف شيوخنا جيداً، ولا تستبعد أن يحسموا الأمر بسرعة».

«الأمر ليس بيدهم وحدهم، كما أنهم أقلية، الأغلبية من المدعوّين قيادات حربية وأهل سياسة، وخليط من كل الأزمنة، لن يتّفقوا بسرعة، ولن يستعجلوا في الحسم تاركين هذا النعيم. أعان اللّه أهل النار وغفر لهم بعض ذنوبهم وقصّر عذابهم. أعتقد أن كل الأوصاف التي سمعناها في الحياة الأولى عن النار لا تكفي لتبيان ما يجري هناك». محاولة جديدة من سليمان لاستنطاق جليسه حول جهنّم.

شرب العامري جرعة طويلة أتمّت على كل الخمر في الكأس مرة واحدة ونظر باتجاه الغلمان ليعيدوا الإرواء. شعر بتقارب مع سليمان بعد صدامه مع صلاح الدين. «حين سقطت عن الصراط المستقيم، هويت وسط نيران أربعين عاماً وكانت حرارتها تشتدّ أثناء السقوط. كلما انسلخ جلدي من الشي يعيده اللّه كما كان فأعود للعذاب ذاته وأنا موثق بالحديد لا أرى فضاء ولا سماء، لا تستقرّ الأقدام على قرار، ولا تلتقي الجفون على غمض نوم، ولا

يرتوي الجوف بشراب بارد». تنهّد العامري وكان ينظر إلى الفراغ وهو يحادث سليمان. «ظننت أن النار لن تمسّني وسيغفر لي جهادي، وعندما تشكّكت في ذلك قبيل اقتراب الأجل، ظننت أنها لن تكون سوى أيام معدودة، وها هي بدون نهاية».

«تسود الظنون أنه بعد يوم القيامة ستدوم النار أربعين عاماً ثم يعفو اللّه عن الجميع، لكنّا لم نكن نعرف أن العقاب قد بدأ حتى قبل يوم القيامة وقبل الانبعاث من القبور. هل يتعرّف سكانها بعضهم على بعض؟».

«أي واللّه يا سليمان، فبالرغم من شدّة العذاب ورمينا بين اللهب وحمم الصخر المذاب، فإننا نعرف بعضنا بعضاً ونتعرّف على جرائمنا عندما تتراءى لنا. لا أدري مَن هم الحكام والقادة الذين تتحدث عن وجودهم هنا، لكن جهنّم مليئة بهم، وكنت أظن أنهم كلهم معنا هناك. يهود ونصارى ومسلمون وملل أخرى عديدة يأكلون معنا من شجرة الزقّوم ونملأ منها البطون غلياً في الأحشاء كغلي الحميم».

«لماذا تأكلون منها إذاً؟» سأل سليمان العامري بشفقة وأضاف «إنها الشجرة التي لو أن قطرة منها قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم؟».

«هي بعينها. لا مناص لنا منها إذ يُلقى علينا الجوع فنستغيث، ونغاث إما بشجرة الزقّوم وإما بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع. وعندما نستغيث بالشراب يُدفع إلينا بكلاليب الحديد، فإذا دنت من الوجوه تشوى، وعندما يصل الشراب إلى البطون تتقطّع الأحشاء». تحسّس العامري بطنه فوجده في مكانه، وشعر بارتياح لم يحس به منذ مماته في مدينة سالم وسط الأندلس. «أتعرف يا سليمان، لقد عذّبتني أوجاع جسدي في الحياة الدنيا،

وكنت أكوي النقرس في قدمي وأنا أخطب في الناس، فيشمون رائحة الشواء ولا يرون تغيراً في قسماتي. وما لاقيته في جهنّم بدا كقمة التعذيب، لكن عندما ترى ما يحدث مع أبي جهل تهون عليك أوجاعك. كان يقول في حياته إن شجرة الزقّوم التي يخيفكم بها محمد ليست سوى عجوة يثرب، ولئن أمسكنا منها لنتزقمنها تزقماً. لم يصدّق أنها طعام الأثيم، ولهذا فهو يأكل منها ثلاث مرات كل يوم، وكل مرة ينسلخ جلد وجهه ويضرب بمقامع من حديد فتتناثر أعضاؤه ويعاد تركيبها ثم ينسلخ جلده ويجرّه خلفه كجرِّ الرجل لثوبه، فيعود للشي العادي مثلنا بانتظار الوجبة التالية من الزقّوم».

«هل يقال لكم سبب العذاب؟».

«يقال يا سيدنا، وأحد الأسباب لما أمر به هو هذا الخمر الذي يشربه أهل الجنّة. وقد ذكرني ذلك الذنب عندما سمعته ببيتين من الشعر، قال أولهما رجل أعجبه العنب والخمر في بلدة طيزناباد فقال:

بطيزناباد كرم ما مررتُ بهِ
إلّا تعجّبت ممن يشرب الماءَ

فهتف به قائل:

وفي جهنّم ماء ما تجرّعَهُ
حلقٌ فأبقى له في البطن أمعاءَ»

أيقظ ضحكهما الآخرين من تأملاتهم، ومرَّ في ذهن صلاح الدين أن الطيور على أشكالها تقع، فهو يعتبر كلاً من المنصور وسليمان شهوانيين، أحدهما وصل إلى جهنّم والآخر خفضت مرتبته من نبي إلى ملك ويقطن جنّة اليهود لكنه يشتهي جنّة المسلمين.

«للأمانة يا سليمان أن شرب الخمر أهون أسباب إقامتي في

جهنّم. لقد تذكّرت وتعرّفت على كل الأسباب، ولو بدأت في سردها الآن لما انتهيت منها بعد شهور».

«هوِّن عليك ولا داعي لاستعادة ما لن تنساه. إن اللَّه غفور رحيم، وربما كانت هذه نهاية عذابك، فقد عرفت بانتقال الكثير من النار إلى الجنّة».

«اللَّه كريم، على الأقل لو جئت هنا وحدثت الناس بما لا يعرفونه، فحينها سيقدرون الجنّة حق تقديرها. النار ضخمة وواسعة ولكنها مزدحمة أيضاً. البشر يُجلبون إليها من أبوابها السبعة. باب قومك يا سليمان هو الأكثر ازدحاماً في العقود الماضية، وكثرة منكم يأتون من الباب الخاص بمن سلّ سيفه على أمة محمد، وبعضكم يصل من باب المنافقين. بالطبع لا يستهان بالأعداد القادمة من باب النصارى وباب المجوس وباب المشركين من العرب، وباب أهل التوحيد. يدخلون فتوصد عليهم في عمد ممدّدة، ولا أعتقد أن أهل الجنّة يتذكّروننا أو يستغفرون لنا».

«حيث لا ينفع الندم». همس حسداي لصلاح الدين، إذ كانا مثل الآخرين يسمعان حديث سليمان ومحمد في ذات الوقت الذي تابعوا فيه مراقبتهم لأحداث ومناطق متفرّقة على الأرض، ثم أضاف بصوت مسموع: «كنت أظن قبل سماع العامري أن جهنّم ستكون على الأرض، ومن بعض ما شاهدت الآن يبدو أن فئات كثيرة من الناس هناك تتعذّب، وغيرهم يعيشون كما في الجنّة لكن الجميع سيفنون ويحضرون إلى الجنّة أو النار في الأعالي».

«في واقع الحال أننا هنا في وضع موقّت، ومن غير المستبعد بعد القيامة وجود جنّة ونار على الأرض أيضاً. لقد نُقل عن نبيِّنا الكريم قوله أنه شاهد جهنّم ليلة الإسراء قرب أسوار القدس، وهذا غير مستبعد ويبدو وكأنه قد يحدث في أي لحظة الآن. كما أن

البراكين والنار والحِمم توجد تحت البحار، فإذا ما سُجرت هذه البحار فإنها تتحوّل إلى جهنّم». صمت صلاح الدين لحظات ثم أضاف بهمس على مسامع حسداي «ما رأيته على الأرض من تطورات أثناء إقامتي هنا يدفع لمزيد من التسبيح لعظمة وعظة الخالق في خلقه. قد يأمر اللّه أحد عبيده في الأرض لبداية حرب نووية لا تبقي ولا تذر، فتكون بمثابة زلزلة للأرض وإبادة الجميع تمهيداً ليوم القيامة التي قد تأتي أيضاً بأحد الأشكال العديدة الأخرى. نحن أعجز عن فهم آيات اللّه، وبصراحة لا أستوعب سبب هذا المؤتمر حول موعد يوم القيامة».

«ربما أراد اللّه اختبار سكان الجنّة، أو من الأصح القول، امتحانهم بما يريدون لو منحهم حق الاختيار». قال حسداي ذلك وعاد لمراقبة ما اختار من عدة أحداث تقع على الأرض في زمن واحد. تنبّه لرؤية بعض المتناقضات والغرائب. شاهد معاول حديد تنصهر في أيدي العمال الذين يقاومون نهر حمم بركان تفجر في أندونيسيا، وسحابة من غاز البركان تحوم فوق القرية ويمكن أن تنفجر وتحرق السكان في أي لحظة. من الولايات المتحدة وقع بصره على مريض بالسرطان يسأل طبيبه عن سبب استمرار حياته أطول مما توقّع له ذاك الطبيب، وهناك أيضاً شاهد محاكمة أميركي ادّعى أنه مصاب بالسرطان وجمع زوراً 37 ألف دولار، فحكموا عليه بالسجن عامين. كان حسداي على الأرض طبيباً ومترجماً وسفيراً للخليفة الناصر في قرطبة، وهو يجالس الآن سلطاناً مسلماً آخر تلقّب أيضاً باسم الناصر. سمع من يتحدّث عن وجود مئات الملايين من البشر المعاقين، وبالضبط عُشر سكان الأرض، منهم 25 مليوناً في الدول العربية، معاقون عقلياً أو جسدياً ونصفهم إعاقته شديدة. تعجّب من أساليب تطبيب وإطالة عمر هؤلاء، ومن

طول عمر وضخامة أجسام سكان أميركا وأوروبا. استوعب بسرعة ماهية التلفزيون ولم يفهم سر كثرة الحديث عن القطط والكلاب فيه، واستهجن انتشار براز الكلاب في شوارع الأحياء الراقية، وظنّ أن البشر اكتسبوا مناعة ضد ما تحمله الأوساخ حولهم.

رأى طفلاً يولد بثلاث أذرع، وأناساً برأسين، وجسدين برأس، وعشرات الأغنام ضربتها صاعقة فماتت. شاهد سفناً ضخمة تصيد السمك من البحار ليُصنع كطعام لأسماك أخرى تعيش في مزارع، قال لنفسه ربما كان ذلك بسبب تلوث وتسميم البحار بالنفايات حسب ما سمعه من نقاش شابتين شقراوين في بلاد الجرمان التي وجدها مشغولة بأمرين: الأول عجزهم عن اصطياد دب بني يتيم ووحيد في غاباتهم، والشغل الآخر للجرمان كان متابعة رجال يلاحقون كرة ويركلونها بأقدامهم فيثور القوم حيناً من الفرح وحيناً من السخط. ارتعب من خبر أعلن قدرة العلماء على صنع توائم، ولم يفهم لماذا لم يسخطهم اللّه حتى الآن. فكّر أن اكتشاف العلماء المنجّمين لكرة من اللهب تجوب الفضاء بسرعة 750 كيلومتراً في الثانية قد تكون الردّ، فبها حرارة تفوق الشمس بملايين المرات. لو اتّجهت إلى الأرض فستؤدي إلى القيامة والعقاب مرة واحدة. تمتم من دون أن يسمعه أحد «حتى لو كانت نياتهم حسنة ويريدون مثلاً الحدّ من نسبة المعاقين أو تحسين النسل، فهذا تدخل في شؤون الصانع».

صوّب ربيع عيونه وذهنه تجاه الشق الشمالي من القارة التي لم تكن معروفة في زمانه، ولم يكن سكانها قد أُرسل إليهم أي نبي أو نزل إليهم كتاب. كان سكانها الأوائل منسجمين مع الطبيعة من حولهم، ويتنقلون دوماً بحرية في ربوعها. الآن أصبح مستعمروها يعيشون في مدن ضيقة وفي بيوت بعضها فوق بعض تناطح

السحاب، وتبدو تحدّياً لشيء ما أو هروباً من الإجرام والجرائم على الأرض. 16900 أميركي قتلوا في حوادث إجرامية خلال عام (2005) وهذا يمثّل زيادة خمسة بالمئة عن العام الذي سبقه، وإذا استمر معدل الزيادة فإنهم سيقضون بعضهم على بعض. لصوص يهاجمون دكاكين ومحلات في وضح النهار، مزوّدين بالأسلحة الثقيلة والسيارات القوية الضخمة، فيقتلون من يعترضهم وينهبون الخزنة وبعض ما في المحل ويغادرون إلى جريمة أخرى، وذلك على مرأى ممن وجد هناك من أطفال وعجائز. تجار المخدرات ومستعملوها يسيطرون بدورهم على شق من الصورة في مدن الولايات المتحدة. إلى الشمال من هذه الجحيم وسكانها وحكومتها المهيمنة على العالم، يعيش أناس من أصول مشابهة، ولكن بأمان تام إلى درجة أنهم لا يغلقون أبواب بيوتهم أو سياراتهم ليلاً. إنها كندا المبتعدة عن الحروب وتهديد الآخر، المليئة بالخيرات، وواسعة المساحة، تضم أفضل المدن التي يمكن الحياة فيها من منظور الأمن وتوفّر الرعاية والخدمات والمناخ الثقافي والتعليم والبنى الأساسية. بلاد لا يوجد فيها فقر وفقراء، تسبح في الهدوء الكوني، وتبدو أقرب لمواصفات الجنّة على الأرض. كل ذلك على النقيض من جارتها الولايات المتحدة. لكن شمال القارة، رغم تناقضاته، لا يمكن مقارنته بجنوبها حيث الفقر والطيبة والعنف تشكّل خليطاً تجعل الناس هناك يتمنّون الرحيل شمالاً. بعد مشاهدته للشقاء والنعيم متجاورين، في البيوت والشوارع والمدن والبلدان وحتى القارات بعضها أشقى من غيره، توجّه ربيع بسؤال إلى محمد العامري عن أنواع زوّار جهنّم.

لم ينزعج محمد من السؤال وانتقل من مشاهدة شواطىء الأندلس ومراقبة تصرفات الشبان عليها، إلى استرجاع ذكريات

جهنّم التي غادرها قبيل فترة وجيزة وهو يتخوّف من العودة إليها قريباً. «في كل عصر كانت الأغلبية من القادمين الجدد تتنوّع. جيران السوء ومن خان الأمانات وأخلَّ بالعقود وظلم الضعفاء، يشكّلون العنصر الدائم. في أوقات الحروب يصلنا القاتل والمقتول من المقاتلين. هناك فئة لا تنقطع وإن كانت أحياناً تزيد وأحياناً أخرى تقل، وهم ممارسو الجنس مع الغنم والحمير ومع الحيوانات عموماً، والمغررون بصغار السن». نظر إليه الآخرون باستهجان، فأكّد لهم أن هذه الفئة وجدت في كل العصور والدول، وقال إن التغيير في العقود القليلة الماضية هو في ممارسة الإناث لهذا الأسلوب مع ذكور الحيوانات بعد أن كان الذكور من البشر يمارسونها مع إناث الحيوانات.

«لكن ماذا عن اللصوص والقتلة والملحدين والسحرة؟».

«هؤلاء يا ربيع لا يشكلون أكثرية. القتلة عموماً يحضرون إلينا، لكن بعضهم يقيم فترة قصيرة ويمضي، وأظن أنهم أولئك الذين يقتلون بعض المغضوب عليهم، ممن ساعدوا عزرائيل في عمله. أما قتلة الأبرياء، فهم في ضيافتنا خالدون. الملحدون في جهنّم قلة، فالعزيز الحكيم يحاسب الناس حسب معتقداتهم ومعارفهم. الملحد الذي لم يحارب الرسل ولم يعترض على أفكار الأنبياء، ولم يقتل الأبرياء، وممارساته اليومية مع الآخرين قويمة وصالحة، مثل هذا الملحد لا مكان له في النار. على الأقل لم أرَ من هذه الفئة أحداً، بل إن المشعوذين الدجّالين الذين احتالوا على الناس باسم الدين يتواردون على جهنّم، ولكن لا أثر يُذكر للملحدين».

«هل سكان جهنّم خليط من الجنسين، أم هناك حجاب بين الإناث والذكور؟» استهجن العامري سؤال ريتشارد واشترط قبل أن يجيبه معرفة ماذا كان يراقب ويسترجع قبيل طرح سؤاله هذا. «لفت

انتباهي دور الإناث في بلادي، منهن الملكات والزعيمات والوزيرات والشرطيات، وكل ما يشتغل به الرجال لهن فيه الآن نصيب، وذلك من دون أن يتخلّين عن صفات الأنوثة والدلال وحق المراعاة والأولوية لجنسهن. بالطبع لم يتغيّر جهادهن في البحث عن سبل التجميل». انخفض صوت ريتشارد وهو يخبر الآخرين عن مشاهدته زواج أنثيين في الكنيسة، ثم صمت.

«حتى الآن تفوق أعدادنا في النار أعدادهن بمرات كثيرة، يبدو أن اللّه يسامحهن بسهولة. لكننا خليط في العذاب والعقاب. نعم أحياناً تشاهد صاحبات أجساد ممتلئة، تُحرق ملابسهن ثم أطرافهن ثم تسيح بقية الشحم حتى يتفحّم العظم. يختلط صراخنا بصراخهن، نشاهد ما يحدث لبعض منا ولكن الذهن لا يستوعب أو يعايش سوى الألم الذاتي». خطر لصلاح الدين أن يسأل العامري إذا كان اللّه يعذّب الأحباب أيضاً أمام المذنب ليعاظم من بؤسه، ولكنه تذكّر أن العامري لا أحباب له، فقد أمر بقتل أكبر أولاده، وتآمّر على أنسبائه، وغدر بعشيقته، وخان خليفته. لم يسأله، وعاد الجميع للصمت والتأمل بما يدور على الأرض.

شعر العامري بشيء من العطف على ريتشارد الشارد الذهن والمنذهل مما يرى على الأرض بفضل وجوده في الفردوس الآن، وبفضل المنحة المعطاة للزوّار للتمتّع بأجسادهم من أيام الشباب، وبأكل وشرب ما يشتهون، ورؤية ما يدور على الأرض، وذلك على غرار بعض منح سكان طبقات جنّة المسلمين. قال لنفسه إن هذا الرجل حارب تحت رمز الصليب، وها هو يرى الكنيسة تُنكح الأنثى للأنثى والرجل لمثيله. أقنع نفسه بأن هذه إحدى حكم اللّه، وربما أراد العلي القدير بذلك إنهاء التكاثر في بلدان بعينها للتخلص سلماً من ذلك الجنس وتوريث بلادهم لأجناس أخرى. أهمل

مشاكل ريتشارد وقومه واسترجع ما كان يراقب على شاطىء برزليانة الأندلسي. هنا كان قد استقبل أمراء من المغرب حضروا لطلب المساعدة من الخليفة الحكم بن الناصر. وهنا يرى نساء ممتلئات، من الوزن واللون اللذين يحب، كل منهن أجمل من لصيقتها. معظمهن بصدور عارية، بعضها كالرمان، وأخرى كالبطيخ، بل إن صاحبات النوع الباذنجاني يتقلّبن على البطون والظهور تحت حرارة الشمس مثل غيرهن على رمال شاطئه. رجال مستلقون أو يلعبون ويتمشون بين العاريات ولا يعيرونهن اهتماماً. نفض رأسه ونظر إلى من حوله، ليتأكّد من حقيقة وجوده ومشاهداته، وعاد يراقب ويتعجّب. فتيات لم يجاوزن الخامسة عشرة، يسبحن على فراش في الماء، ضحكاتهن عالية، يغازلن شباناً من أعمارهن يجلسون على الرمال ولا يبدو عليهم أي اهتمام ولا تجاوب وإنما يأكلون البذور ويدخّنون اللفائف حتى فقدت البنات الأمل فيهم وعدن سباحة من حيث جئن، يلتفتن بين الحين والآخر تجاه الشبان عسى أن تحرِّكهم الغرائز الطبيعية للتجاوب، لكن من دون جدوى. انتقل بنظره عبر الماء فوجد محجبات ملفلفات يجاورن على الشاطىء شبه عاريات. أدار ناظريه شرقاً واطمأن لرؤية رجال يحتلون الشواطىء، وأحياناً إناث يغتسلن في البحر بكامل أثوابهن الملتصقة بأجسادهن، وحولهن الصغار من كل الأعمار. عاد إلى شاطئه وتنبّه فجأة لندرة الأطفال. تكرّر أمامه منظر جدّين وجدتين وأب وأم يلاعبون طفلاً واحداً. «على الأقل فهؤلاء يؤمنون بالزواج والإنجاب، والطفل المسكين هو وارثهم وأثرهم الوحيد إن كتب له طول العمر». قال لنفسه، وعاد يتذكّر تاريخه الذاتي وكثرة نسائه ومسبياته وجواريه... وجهنّم، وبالطبع فما زال يقلقه الاستدعاء إلى هنا، ومن الخليفة الناصر تحديداً.

نساء الأرض

ظهر الاستغراب على ملامح ديجول وهو يراجع الطلب الذي قدّمه ياسر لتشكيل لجنة نسوية على غرار اللجان الأخرى التي تكوّنت لدراسة الأوضاع على الأرض. «وصلني عبر الست نفيسة، حملته معها من نساء الطبقة السابعة في جنّتنا، فرأيت أن أعطيك إياه كمسؤول عن تشكيل اللجان».

«لا يهمّني كثيراً كيف وصلك هذا الخطاب، أو كيف عرفن بتشكيل اللجان، لكن محتواه غير قابل للتنفيذ. لا يمكن استدعاء إناث إلى هذا اللقاء، أو إشراكهن في لجان. يبدو من خطابهن الخلط بين وضعهن في الجنّة ورغبتهن في الأخذ بعين الاعتبار مصالح نساء الأرض. عليك أخذ الخطاب إلى جبرائيل».

«ألا يمكن على الأقل تشكيل لجنة من الرجال هنا للنظر في شأن النساء، وحينها يمكنهن إرسال ملاحظاتهن وما يردن من اللجنة مراعاته. هذا حل وسط قد يسكتهن ونرتاح».

بدا وكأن شبه ابتسامة نادرة ارتسمت على وجه شارل، ومع ذلك قال لياسر بحزم إنه غير قلق من أي مشاكل يمكن أن تثيرها النساء، ثم وافق على إضافة لجنة نسوية تأخذ مهام من اللجنة الاجتماعية، ويمكن لعثترت أن تشارك فيها وتتسلّم وتراعي مطالب بنات جنسها. «لكن أفهمهن أن أي خلط بين وضعهن وشكايتهن في الجنّة، وبين الوضع على الأرض، سيضرّ بمصالح بنات جنسهن

في الدنيا وبمصالحهن هنا في الآخرة. يمكنك تجنّب سخطهن بالقول إن قرارات ونصائح وأفكار المؤتمر لن يؤخذ بها بالضرورة، وأن هدف اللقاء محصور باقتراحات لموعد يوم القيامة».

أعرب ياسر عن امتنانه لهذا الحل، ولم يبلغ شارل باستلامه، عبر نفيسة، مطالب النساء كاملة في وثيقة مستقلة، إذ كان قد راجعها قبل الحديث معه، وعندما سمعه يحذّر من خلط القضايا قرّر كتمان الأمر ريثما يعيد صياغة وثيقتهن مركّزاً على ما يردن على الأرض، ومن ثم تقديمها مباشرة إلى عثترت. لم يكتبن بشكل مباشر إذا كن مع تقديم أو تأخير يوم القيامة، ولم يقترحن قيامة للرجال من دون النساء أو العكس. ادّعت وثيقتهن، الموقعة باسم لجنة نساء الأرض من الطبقة السابعة، بأنهن أسيرات في قفص ذهبي بينما الرجال يكافأون بحريات وبكل ما يشتهون، وها هم يستثنون النساء من مؤتمر قد يحدِّد مصير البشرية والأرض. أزال ياسر كل ما يتعلق بوضع الحياة في الجنّة، ووضع في مقدمة الوثيقة ثلاثة شعارات استخرجها من باطنها. «أخرجوا العربيات والمسلمات من الأسر». الشعار الثاني نقله كما ورد في محتوى الوثيقة: «أوقفوا قتل الإناث في الهند والصين». ثم لخّص المحور الثالث في وثيقتهن تحت شعار: «نعم لمنع البغاء ولمساعدة ملايين النساء على حياة كريمة». رغم المعلومات المحشوة في الوثيقة عن البغاء في الغرب والتجارة بالنساء بين شرق وغرب أوروبا وبين المكسيك والولايات المتحدة، إلّا أن ياسر لم يطمئن لصواب جاراته في الطبقة السابعة بطرقهن لهذا المجال. رؤيته، التي كوّنها من بعض المتابعة، أن عنصر الإكراه ضعيف، نعم هناك تحايل لإسقاط فتيات في هذه المهنة، لكن الغالبية دخلنها طوعاً كمخرج للارتزاق السهل. المنع لن يغيّر الحال، سينزلون للسرية وتنتشر

الأمراض المعدية، فهذه أقدم مهنة في التاريخ ولا يخلو منها بلد وربما كانت هكذا في شكلها الرسمي تحت الرقابة، أهون مما تعانيه الفقيرات في بيوت دول تمنع البغاء رسمياً.

راجع ياسر الوثيقة وأكد له إحساسه الداخلي أن الأم البكر، عثترت سوف تُعجب بفكرة التصدي لقتل الإناث ووأدهنّ، فهي الإلهة للحرب والخصوبة، وقد أحسن ديجول بتكليفها هذا الملف. تعجّب من تصاعد المشكلة في الهند والصين وأخذها أبعاداً خطيرة، فهم يقتلون المولودات الإناث فوراً، بل إنهم يجهضون نساءهم إذا عرفوا أن حملهن إناث، وهذا الإجراء تعاظم الآن بعد دخول الأشعة والسونار إلى كل مناطق العالم، وسهل الكشف عن جنس الجنين. حتى في بعض الدول الإسلامية لم يعد للأنثى شفاعة في بطن أمها، إذ تمارس فيها هذه الجريمة التي نهى عنها الإسلام. حكمة اللّه هي في تساوي أعداد الإناث مع الذكور، لكن الهند ينقص عدد إناثها عن ذكورها بخمسة ملايين كل عام! وفي الصين سيصبح كل مائة ذكر يقابلهم عشرون أنثى فقط بعد عقدين آخرين إذا استمر هذا الحال. «يبدو أن منتفضات الطبقة السابعة جمعن الكثير من المعلومات وقمن بمراقبة شاملة قبل إعداد وثيقتهن». قال ياسر لنفسه وهو يقترب من عثترت التي لم يعد هانيبال وشمشون يفارقانها. ألقى عليهم التحية وفشل في إزالة مسحة حزن طغت على وجهه من جراء مصير الإناث.

«هل يحزن مَن في جنّتكم يا كنعاني؟» مازحه شمشون ضاغطاً على يده بقوة. قابل ياسر الضغط بمثله وقرص بيسراه صدر شمشون وأبلغه أنه كان يقرص المشاغبين دوماً على الأرض. «إذاً شهرتك ليست التقبيل فقط، وإنما القرص أيضاً».

أوجز لعثترت القصة، وكانت قد اهتمّت قبل ذلك بموقف نساء

الطبقة السابعة وسألت عن أخبارهن. «موقف جيد من ديجول أن يتجاوب بسرعة، وعلى مسؤوليته، بإقامة لجنة نسوية، أو بالأحرى للشؤون النسوية، هل ستنضم إلينا يا ياسر؟».

«أعذريني يا أمنا، فبودّي الانضمام إلى اللجنة السياسية».

«لكن هذه سياسة أيضاً، ونصف العالم من النساء، وهناك الكثير ممن ينوب عنك في السياسة. أريدك معنا لتحافظ على التواصل مع جاراتك. الأمر محسوم فلا تتهرب». قبل ياسر بالتكليف على مضض استطاع إخفاءه عن إلهة الحرب وجنراليها، هانيبال، وشمشون. خطر في باله أنه وقع في شرِّ أعماله، فلو لم يتدخّل في حمل الطلبات لما كان بحاجة للابتعاد عن اللجان حيث شريكه وأبناء قضيته وجنسه. أخرجته عثترت من أفكاره بسؤال عن رأيه بقضية الهند والصين.

«إذا أقررنا أن كل شيء بيد اللَّه، فعلينا النظر إلى الأمر من زاوية أنه مفيد. ربما أراد العزيز الحكيم أن ينهي البشر أو يخفّف كثافتهم بهذا الأسلوب، أي التخلص التدريجي من الإناث». ظنّ ياسر أن ذلك سيغضب عثترت فأضاف: «لو تراجع عدد الصبيان بالقتل، فلن ينقص عدد الناس كثيراً لأن الذكر قادر على إخصاب العشرات أو المئات من الإناث في فترة وجيزة».

«لا أظن أن للَّه أي دور فيما يحدث من وأد وقتل للرضيعات. لو أراد التخلص من خليط البشر يكفيه تسليط البحار أو الطيور أو الحشرات عليهم لإبادة العدد المطلوب».

«دعونا من علاقة اللَّه بالأمر، علينا التصرّف بتجرّد». قالت عثترت موجِّهة حديثها رداً على شمشون وياسر، وبدأت تطرح تساؤلات إذ كان هذا مفيداً أو ضاراً للإناث، وإلى أين سيقود،

«وبالطبع فما الذي يمكننا عمله عبر لجنة فرعية من عدّة لجان وظيفتها الأساسية تقديم اقتراح حول القيامة؟».

«إذا رأينا أن الأمر ميؤوس منه...» تدخّل هانيبال في الحوار، «... فبوسعنا التصويت باسم اللجنة لتقديم موعد القيامة». سكت لحظة قبل مواصلة الحديث كمن تذكّر شيئاً فجأة، «لا تنسوا أن معظم المسؤولين عن وأد وقتل وإجهاض الإناث من غير المسلمين، ولا أدري ما هو مصير القاتل منهم والمقتول، وهل لهم جنّة ونار أم لا؟» أفلتت التساؤلات من هانيبال عما كان يدور في خلده طوال الوقت، فقد تسبّبت غزوته روما بقتل ثمانين ألفاً من خصومه، وبانتقام الرومان لاحقاً من قرطاجنة في تونس وحرث مبانيها وتشريد أهلها وشعبها. وها هو هنا مجلوب من القبر مباشرة ولا يعرف مصيره الشخصي أبعد المؤتمر أم يوم القيامة. أحياناً كان يرى في دعوته إلى الفردوس بشيراً بقبول الرب بما فعل بالرومان قبل محاربتهم للمسيح بمئتي سنة، وأحياناً يسود الشك قلبه كونه تناول السم عندما حاصروه، وكان قد هرب إلى سوريا ثم إلى جزيرة كريت حيث مات منتحراً وهو في الستين.

«نتصرف من موقعنا هنا ومن وجود عقاب وثواب لكل الناس بعد يوم القيامة. القرآن لم يستثنِ أي أمة من المحاسبة، ونحن لا ندري ما سيكون الوضع عليه بعد القيامة». حوّل ياسر ناظريه من هانيبال إلى عشترت وأضاف: «إذا قلّ عددهن زاد الطلب عليهن، فربما هذا يُحسن مواقعهن». قبل أن تعلّق عشترت على رأيه تدخّل شمشون معرباً عن استغرابه من شأن النساء، فهن اللواتي يلدن ويربّين الأطفال ويؤثرن في أفكارهم، فكيف، حسب تساؤله، يفشلن منذ الأزل في التوصل للمساواة؟

«ينظر ياسر إليهن كسلعة بسعر متغير حسب الطلب. إني أعتقد أن قلتهن سوف تحوّلهن إلى مادة متنازع عليها. كل ذكر يريد أنثى له تحمل خصائصه في أطفالهما، لكن بعض الذكور لا يريدون تحمُّل مسؤولية تربية البنات، ولذلك يتخلّصون منهن». شدّ هانيبال اهتمامهم فواصل حديثه، «نرى اليوم في قرى الهند ثلاثة أو أربعة إخوة يشتركون في زوجة واحدة يتناوبون عليها إذ لم يعد في وسع الكثيرين دفع كلفة العرائس. وفي الصين شاهدت الآن عصابات تسرق الصبايا اليانعات لبيعهن في مناطق بعيدة عن أهلهن، ومعظم السرقات تتمّ من الأرياف والقرى. توجد أيضاً عصابات لسرقة الرضيعات من المستشفيات أو من الأمهات اللواتي يردن التخلص من بناتهن. تلك الإناث تُربّى في مزارع خاصة معزولة يتّسع تخصصها تدريجاً في بيع الإناث. يعني قيمتهن المالية في ازدياد ولكنهن أصبحن كالخنازير والأبقار، قد يلدن ويرضعن ولكنهن لا يربين».

«نحتاج للمزيد من المتابعة في هذا المجال، ولأعضاء آخرين في اللجنة، ولا ننس المشاكل الأخرى المطروحة من نساء الجنّة، وما يستجدّ من شؤون تناسب لجنتنا». هكذا ضمّت عثترت أبناءها الثلاثة إلى اللجنة وتولّت الرئاسة من دون اعتراض أي منهم. قبل أن يتّخذوا أي خطوة وصل أحد الغلمان ليخبر ياسر أن زواراً ينتظرونه، ويجالسهم الآن ياسين وكمال.

«إناث أم ذكور؟» سألت عثترت، وأجابها الغلام بأنهم ذكور تتقدّمهم أنثى. توجّس ياسر شراً وسأل الغلام عن اسم الأنثى، فجاءه الردّ بأنها دلال. لم يتمكّن من تقييم سريع وشعر بحاجة لبعض الوقت.

«عُد إليهم وأبلغهم بانشغالي الآن وسألتحق بهم لاحقاً».

«لدينا الكثير من الوقت، لم نبدأ بعد، اذهب لزوّارك فربما كسبت لنا الأنثى لتساعدنا. طالما سُمح لها بدخول منطقة اللقاء فربما تكون المستثناة الثانية». شعرت عثترت بتردّده، وأفادها بأن الزوّار على الأغلب هم من سكان الفردوس، وإذا كانت هذه الدلال هي التي يفكّر فيها فلن تشارك في لجان حتى وإن سُمح لها بالبقاء في إطار المؤتمر. انتصب واقفاً ببطء وكأن سنواته تضاعفت مرة واحدة، واستأذنهم وسار مع الغلام يمرِّر يده على شعر رأسه ويردِّد دعاء، اللَّه يستر. اغترف بعض الجواهر من الأرض وأخذ يرميها بعزم يده. اقترب من فريق كبير مجتمعين ينصتون إلى الناصر يوبّخ المنصور ويحاولون تهدئة الموقف بكلمات لم يعرها الناصر أي اهتمام. قبل أن يلقي عليهم التحية لطم الناصر المنصور على وجهه وبصق عليه وقذعه بمصطلحات فصحى لم يفهم ياسر معظمها. واصل مسيره دون توقف وتمنّى ألّا يصل. شاهد ياسين يغادر الجماعة ويتّجه إليه فشعر بارتياح إذ سيتم تحذيره مما ينتظره.

«إنها دلال على رأس مجموعة من الشهداء سكان الفردوس، حضروا للعتاب».

«للعتاب أم لغيره؟ صارحني».

«للعتاب الآن، بعد أن بذل كمال معها جهداً لتهدئتها، وأقنع بقية الشهداء المتظاهرين ضد وجودك هنا بتليين موقفهم، فقبلت هي على مضض برأي الأغلبية. غضبهم الأساسي من صداقتك مع باراك في الحياة الدنيا ومع رابين في الدنيا والآخرة». اتضحت الصورة لياسر من كلمات ياسين. قرّر أخذهم بالقبلات وبالصوت العالي وهجم على أقربهم، والثاني والثالث والرابع حتى أفاقت دلال من الصدمة.

«تمثيلياتك هذه لا تنفع هنا. دعك من التخجيل والتمثيل».

«اللّه! أنت مخصماني يا دلال؟ أنت من أحب شهيداتنا على قلبي. . .».

«اللي بيحب يا رئيس ما بيخون». تدخّل كمال راجياً منها الالتزام بالاتفاق، وأسمعها ياسين ضرورة عدم ذكر اصطلاح الخيانة، واكتفى ياسر بقول «اللّه يسامحك، اللّه يسامحك يا دلال».

«اللّه سامحني وانتهينا، ولكني لن أسامحك على مجالستك وممازحتك لمن اغتال آباء فتح، ومن شدّ شعري ومثّل بجثتي أمام عدسات الكاميرا بعد استشهادي». كان الشرر يتطاير من عينيها، ودمعت عيون ياسين وبعض الحاضرين. نظرت إلى كمال وفهم أنها تريد سؤاله إذا كان قد سامح ياسر فعلاً.

«هذا الموضوع انتهينا منه يا دلال. نحن فعلنا ما يريح ضمائرنا وفزنا بالفردوس، وهو فعل ما ظنّه صواباً ولم يذهب إلى النار».

«أنا بالفعل أستغرب وجوده في أي من طبقات الجنّة، لا أفهم كيف وصل إلى السابعة». لم يخبرها أحد في حينه أن إبراهيم خليل اللّه توسّط له. «كل المآسي التي نراها الآن هي نتيجة مباشرة لأسلوب التفاوض الذي اتبعه منذ البداية. فرط في حقوق الموتى والمظلومين ثم تجرجر في سلام بشروط مجحفة وها هي النتيجة». استغفرت ربها، وودعت باختصار. انسحب معها المتظاهرون فقد كانت مدة زيارتهم المحدّدة لمنطقة المؤتمر تقارب على الانتهاء. بعضهم قال لها إن هذه البهدلة تكفيه، وآخرون احتفظوا برأيهم الأول أن خسّة باراك في التمثيل بجثة دلال لا تزول إلّا بقتله، لا بمجالسته.

«أترضيك هذه التصرفات يا كمال، هذه دلال التي قادت مجموعة ونزلت من البحر لتنفِّذ عملية باسمك؟».

«ترضيني طبعاً، كان واجبك أن تبصق في وجه باراك علناً بدل ما فعله بجثتها من تمثيل ورفض دفنها حتى الآن، وبعد ذلك تفاوضه إذا كنت فعلاً تصدِّق أن السلام غايتهم. أنت تنازلت عن الكثير من القيم أثناء التفاوض. أليس كذلك يا شيخ؟».

«الأصول تتطلّب ذلك على الأقل، الأفضل قطع رأسه». قال ياسين ونقل نظره إلى ياسر، «هل تعرف أن المقرر الخاص لحقوق الإنسان قال اليوم بأن العقوبات التي يتعرّض لها شعبنا هي الأشد صرامة في التاريخ الحديث؟ هذه نتيجة سياسة السلام المتهاون الذي سرت فيها. لم تصرّ على إطلاق كل الأسرى، والتمسك بالقرارات الدولية الشرعية، والتعامل بالند. لم تفهمهم أنك لست جندياً مرتزقاً لهم ضد شعبك. حاولت التمرد على رؤيتهم وشروطهم فقتلوك وها هم يمهِّدون لإبادة جماعية بالتدريج تحت سمع وبصر وسكوت من سمّوا أنفسهم وسطاء، من روس وأميركان وأمم متحدة واتحاد أوروبي. أنت المسؤول عن النهج الأعوج الأعرج للسلام».

«لا تنظر إلى ياسين بكل هذا الاستغراب، فهو لم يقل أكثر مما قيل في تقرير حقوق الإنسان الذي نزع صفة الوسيط النزيه عن واشنطن وشكك في أي دور للرباعية. أما معاناة أهلنا فهي في ازدياد يومياً منذ بداية صفقة السلام. ما نراه الآن يؤكد أن الفترة الاحتلالية المباشرة، قبل سلامك ورابين، كانت أفضل بكثير من المراحل التالية». صمتوا منخرطين في متابعة القصف الجوي الإسرائيلي لقطاع غزة، واسترجعوا بقية المعلومات التي وردت في التقرير الذي جاء فيه أن غزة تعيش بشكل دائم تحت الحصار، وتسيطر إسرائيل على مجالاتها الجوية والبحرية والمعابر، وتكرّر اختراق جدار الصوت في كل الأوقات لترهب السكان الجياع

بصوت الانفجارات، الاغتيال لم يتوقف ولا يقتصر على نشطاء بل يصيب المارة. في الضفة الجدار يفرِّق العائلات ويلتهم الأراضي ويحرم المزارعين من عملهم، والحواجز العسكرية بالعشرات وتتخصّص في إذلال الفلسطينيين وتعطيل حياتهم. كل ذلك الذي تمارسه إسرائيل بشكل دائم، بالإضافة لقطع الكهرباء والماء ومصادرة الأموال الفلسطينية، عزّز قناعة كمال وياسين بأن نيات إسرائيل لبناء سلام في القريب أكذوبة ضخمة. أمام ما يجري لم يكن بوسع ياسر الدفاع عن نفسه. فكّر بتذكيرهما أن صلاح الدين طرد الصليبيين بالتدريج وبالمعاهدات حتى تمكّن من الوضع، لكنه تذكّر أن وجوده في الجنّة بواسطة كثمن لما فعل، ولو باح بأن نيّته لم تكن صافية فربما يتوقف مفعول الوساطة، فسكت.

«يتحدّث التقرير عن مسؤولية مباشرة للاحتلال العسكري، لكن الأدهى هو ما يحدث من دون انتباه أحد». أخرجهم كمال من التأمل والحسرة، «إسرائيل مارست منذ البداية سياسة تجهيل للشباب والصغار، وأسست جيشاً من الجواسيس، ورهنت اقتصادنا بها مباشرة، وعزّزت اتفاقيات السلام تفاصيل ذلك الخضوع. النتيجة الآن أن الأجيال المسؤولة جاهلة، والجيل الطالع أجهل، وفوز حماس بفضل فشل فتح هو أكبر دليل على الجهل والعجز المتمدِّد بين الجميع، وجاء كهدية لإسرائيل تعيد اعتبارها في العالم. يعني هم يخطّطون على مدى طويل ونحن نطبّ فيما يريدونه من أسلوب تفكير وتصرف وعناد». لم يعلِّق أحد لكونهم يرون من الفردوس نتائج أفعالهم، ويعجزون عن التصحيح.

أميركا المسلمة

«ما أجمل هذه القصور يا محمد، كلما نظرت إلى أحدها ظننت أنه الأفضل حتى ترى قصراً آخر». لم يتجاوب العامري مع سؤال مارتن فقد كان أثر الصفعة يرنّ في أذنيه ويشعر بعار شديد مما حصل له أمام جمع من البشر اختيروا بعناية إلّهية للوجود في صفوة الأماكن. «أتفهّم موقفك، وربما كان هذا بداية خير وتغيير لوضعك. اعتبرها جزءاً من العقاب قبل الثواب، والأمور كلها بإرادة الرب. أخبرني لمن هذه القصور التي يُرى باطنها من ظاهرها؟».

«في هذه القصور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وهي لمن كان على الأرض قد أفشى السلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلّى بالليل والناس نيام». سكت العامري ونظر إلى وجه مارتن لوثر، فشاهد فيه علامات الاستفهام لصعوبة التفسير. اقترب منهما آخرون ممن اتفق أن يشكّلوا لجنة اجتماعية وكانوا في طريقهم إلى مقر لجنتهم.

«مَن يقدر على إدامة الصيام وإطعام الطعام والاختلاء وحيداً للصلاة في الليل؟».

«لقد تعجّب مثلك أصحاب الرسول الكريم عندما حدّثهم عن هذه القصور التي تنتظرهم إذا لبّوا الشروط، فشرح لهم: من لقي أخاه فسلّم عليه فقد أفشى السلام. مَن أطعم أهله وعياله من

الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام. من صام رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام. ومن صلّى صلاة العشاء في جماعة فقد صلّى والناس، من اليهود والنصارى والمجوس، نيام».

«يا له من دين يسر، فمقابل تلك الشروط السهلة ينال المسلم هذا النعيم! أتفهّم الآن إقبال إخوتي السود في أميركا على دخول الإسلام».

«لو أسلم كل السود في أميركا فسوف يحلّ السلام بسرعة على الأرض. سننتخب حينئذ رئيساً عادلاً وحكومة شريفة وتنتهي الحروب». توقف المفتي عن الحديث إذ أخذوا يتعازمون من يدخل أولاً للغرفة. كل منهم يدفع بالآخرين قبله كدليل على الاحترام. اتّجهوا إلى زاوية في الغرفة فرشت على أرضها بسط الحرير ومُدَّت الصواني الذهبية والصحون العاجية والأكواب الزمردية، مليئة بما لذَّ وطاب من أنواع الطعام والشراب، بينما وقف غلمان بانتظار تلبية الطلبات وإحضار كل ما يفكّر فيه أعضاء اللجنة من طيبات المأكل والمشرب والملبس والزينة.

«أميركا مليئة بأصحاب القلوب الطيبة. نظامها السياسي للآن يحترم كل الأديان ويفصل بين السياسة والدين. لو انتخبنا حسب الدين واللون فهذا سيكون بداية الانشقاق والدمار. أغلبية المسيحيين الأميركيين متدينون، لا أدري ما ستؤول إليه الأحوال إذا تعزّز واستمر خلط المسيحيين المحافظين الجدد بين الدين والسياسة. إن شاء اللّه تزول هذه الظاهرة مع نهاية رئاسة جورج بوش». رد دبلوماسي جلي يرى أن خلط الدين بالسياسة هو سبب التوتر، سواء كان هذا الدين مسيحياً أو إسلامياً أو بالطبع يهودياً. صمت المفتي ليتأمل في فلسفة مارتن، وتدخل ابن خلدون في الحديث:

«اعلموا أن اللّه، عزّ وجلّ، أخرج آدم عليه السلام من التراب، وأصبحت سلالته من طين ومن ماء دافق، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا، ثم إلى القبر، ومنه إلى العرض ثم إلى الجنّة أو إلى النار؛ فهذا مبدأهم وهذه غايتهم ومنازلهم. خلق اللّه الدنيا زاداً للعباد ليتناولوا منها ما يصلح للتزوّد؛ فلو تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطّل الفقهاء، ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولّدت منها الخصومات، فأمست الحاجة ضرورية إلى سلطان يسوسهم، واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به؛ فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات؛ فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم لتنتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا، ولعمري أنه متعلق أيضاً بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا فإن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا يتم الدين إلّا بالدنيا». أضاف ابن خلدون أن هذه فلسفة إسلامية للخليقة والحكم، ومشكلة أميركا أنها تطبّق هذا المبدأ بدين مختلف وبفقهاء متعصبين ينصحون سلطاناً جاهلاً فاز بعدم رضى الرعية.

«نعم. وفي الدول الإسلامية كلها لا يوجد حكم وفقهاء وممارسة وشعب أفضل مما في الولايات المتحدة. بالرغم من تعاسة حظ الشعب الأميركي في اختياره لجورج، فهو خيار أفضل مما هو موجود في أي دولة إسلامية. لقد أسمعني العامري في حديث سابق أن معظم الحكام المسلمين والعرب في جهنم، ويقضون فيها أطول الفترات، بينما سكان طبقات الجنّة من الفقراء والمتّقين والصالحين والمظلومين. هذا يعني أن اللّه يهمّه بالدرجة

الأولى الفرد وما في قلبه ونتيجة أعماله. أريد منكم إجابة عن سؤال بسيط: هل لديكم بين المسلمين الآن، دعونا من الماضي، رجل مثل الأميركي وارن بوفيت؟».

لم يكن أي من الحضور يعرف شيئاً عن الرجل الذي سألهم عنه مارتن. ركّزوا، كالعادة في مثل هذه الظروف، أفكارهم وأفيدوا أن وارن هذا هو ثاني أغنى رجل في أميركا والعالم، وأنه قبل يومين فقط قرّر أن يهب ثروته، المقدّرة بحوالى أربعين مليار دولار، إلى جمعية خيرية تعمل على محاربة الأمراض وتروّج سبل التعليم عبر العالم، وتحديداً تعليم فقراء العالم.

«المال والبنون زينة الحياة الدنيا. وهذا الرجل يتبرّع بالمال المفضّل على البنين، وذلك قبل مماته ويعطي أبناءه الثلاثة حصة متواضعة من أمواله. مثال فريد في كل شيء. لو كان مسلماً لاستقبلناه هنا في أروع مقام بيننا». قال خالد بهدوء وثقة واستذكر المزيد عن بوفيت الذي جمع ثروته في سوق الأسهم عبر مضاربات واستثمارات التهمت كل وقته وحياته. كأنه قضى شبابه وشيبوبته يجمع المال بصعوبة جمّة للمحتاجين.

«كان بوسعه أن يعطي كل أميركي مئة دولار ويحتفظ بملايين أخرى كثيرة لنفسه، أو ترشيح نفسه للرئاسة وإنفاق المال في حملة انتخابية توصله إلى سدة زعامة العالم، ولكنه لم يفعل، فهل لديكم الآن مثله؟».

«لدينا الكثير من الأغنياء جداً، ولكن ليس لدينا مثله. صدقت يا مارتن». قال العامري وتذكّر كيف كان ينفق المال على الحروب عبر مضيق طارق وفي شمال الأندلس، وكيف جمع الغنائم من النصارى ووزعها على المنتفعين من حكمه.

«هذه لا يمكن أن يفعلها يهودي أو مسلم». نظروا إلى حسداي ولم يعلّق أي منهم على ما قال، ولم يفسّر هو هذا الاستنتاج. «صحيح أنه فعلها بعد بلوغه الخامسة والسبعين، ولكن هذا لا ينقص من أهمية الفعل».

«لا تنسوا لمن تبرّع بماله. لتعليم الفقراء عبر جمعية يملكها صديقه الذي يحتلّ الرقم الأول في سلم الأغنياء وصاحب شركة الكمبيوتر العملاقة. لن أستغرب أن تدور الأموال لتعليم العالم على تلك الكمبيوترات لتزداد المبيعات والأرباح. اللّه أعلم». ثم أضاف ابن خلدون معلومة أخرى عن الأغنياء توصل إليها بينما الآخرون يتناقشون، «هناك ثمانية عرب ومسلمين فقط من بين أغنى مائة رجل في العالم من أصحاب البلايين».

«من يختزن الذهب والفضة سيكتوي بهما في جهنم، ولن يرى أبواب الجنّة».

«ربما ظنّوا أن لا عقاب لاختزان الأسهم والعملات الورقية يا مفتي». خطر لحسداي بعد هذا التعليق أن يسأل عن كيفية دخول أبواب الجنّة بعد يوم القيامة وما ينتظر سكانها الجدد، فهذا أمر له علاقة ما بمهام اللجنة الاجتماعية. جاءه الجواب من الشيخ يوسف:

«إذا خرجوا من قبورهم استُقبلوا بنوق بيض لها أجنحة، عليها رحال الذهب، شرك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مثل مدّ البصر وينتهون إلى باب الجنّة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، وإذا شجرة على باب الجنّة ينبع من أصلها عينان، فإذا شربوا من إحداهما جرت في وجوههم نضرة النعيم، وإذا توضأوا من الأخرى لم تشعث شعورهم أبداً فيضربون الحلقة بالصفيحة، فلو سمعت طنين الحلقة فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد

أقبل، فتستخفّها العجلة، فتبعث قيّمها فيفتح له الباب، فلولا أن اللّه عزّ وجلّ عرّفه بنفسه لخرَّ له ساجداً مما يرى من النور والبهاء، فيقول: أنا قيّمك الذي وُكّلت بأمرك، فيتبعه فيقفو أثره فيأتي زوجته، فتستخفّها العجلة فتخرج من الخيمة فتعلّقه وتقول: أنت حُبي وأنا حُبك وأنا الراضية فلا أسخط أبداً، وأنا الناعمة فلا أبأس أبداً والخالدة فلا أظعن أبداً، فيدخل بيتاً من أساسه إلى سقفه مئة ذراع مبني على جندل اللؤلؤ والياقوت طرائق حمر وطرائق خضر وطرائق صفر فيأتي الأريكة فإذا عليها سرير، على السرير سبعون فراشاً عليها سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلّة يرى مخ ساقها من باطن الجلد، يقضي جماعهن في مقدار ليلة، تجري من تحتهم أنهار مطردة، أنهار من ماء غير آسن صاف ليس فيه كدر، وأنهار من عسل مصفّى لم يخرج من بطون النحل، وأنهار من خمر لذة للشاربين لم تعصره الرجال بأقدامها، وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه لم يخرج من بطون الماشية. فإذا اشتهوا الطعام جاءتهم طيور بيض فترفع أجنحتها فيأكلون من جنوبها من أي الألوان شاءوا ثم تطير. فيها ثمار متدلية إذا اشتهوها تدلّى الغصن إليهم فيأكلون من أي ثمار شاءوا، إن شاء قائماً وإن شاء متكئاً، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤﴾ [الرحمن: 54] وبين أيديهم خدم كاللؤلؤ».

جواب شاف كاف لم يكن حسداي يتوقّعه بهذا التفصيل. «وهل وجدتم بالفعل كل ذلك بانتظاركم؟».

«هذا وعد وثواب من اللّه ينتظر عباده الصالحين، بعضهم يتمنّاه فيجده، وبعضهم الآخر يجد في الجنّة أشياء أخرى توقعها وأحبّها». تدخل ابن خلدون بهذه الإجابة بعد أن اشتمّ استهجاناً من نبرة حسداي.

«لسوء حظك أنه لن يكون بوسعك مشاهدة نعم اللّه الأخرى خارج إطار منطقة المؤتمر، ناهيك عن مشاهدة حور العين».

«ما أرى يكفيني لتخيُّل ما لا رأى. لكن ماذا عن الأبواب الأخرى للجنة يا شيخ يوسف؟».

«لجنّتنا ثمانية أبواب، سعة الباب الواحد مسيرة الراكب ثلاثاً، والمسافة بين الباب والآخر مسيرة الراكب سبعين عاماً». توقف الشيخ عن الشروحات وقال لحسداي إنه سيرى ويعرف ما يشاء اللّه له أن يعرفه أثناء إقامته في منطقة المؤتمر. لم يشأ التوسع فيما ستكون عليه الحال يوم القيامة وما يليه لكون معلوماته أرضية، وربما حملت تناقضات، ثم ظنّ أن أحداث يوم القيامة وما يليه ليس موضوعهم، ولكن الموعد هو الهدف.

راودت حسداي بعض الأسئلة لكنه لم يعد متأكداً من نجاعة طرحها الآن. أراد التعرف على ظروف الازدحام يوم القيامة أمام أبواب الجنّة والنار، ثم داخلها أيضاً، فأعداد البشر المجلوبين للحساب لا يعرفها سوى خالقها، ولكل ذكر في الجنّة سبعون أنثى. قال لنفسه ربما كان الازدحام الأكبر في جهنّم، بينما الجنّة عرضها السماوات والأرض. تأمّل بناء غرفة الاجتماعات فإذا بجدرانها لبنة من ذهب وأخرى من فضة. «هل طبقات الجنّة الأخرى مثل الفردوس؟» سؤال استفساري لم يرَ ضرراً من طرحه على أمل تلقّي جواب من أحد سكان الطبقات الأدنى.

«الفردوس وسط الجنّة وأعلاها، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تتفجّر أنهار الجنّة التي تمرّ بكل الدرجات. تربة الجنّة في كل مكان من الزعفران، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وملاطها المسك». أجابه المفتي ولخّص له مزايا الفردوس بالقرب من عرش الرحمن.

«هل يمكن القول إن اتساع الهوّة بين الأغنياء والفقراء تتطلّب منا

الميل إلى اقتراح تقديم أم تأخير يوم القيامة؟» جاء التساؤل من حسين، أحد أعضاء اللجنة الذين لم يتدخلوا في الحوارات الجانبية حتى الآن، وبدا وكأنه يريد فتح باب عمل اللجنة. لم يظهر في تساؤله نبرة من لا رأي له، وإنما يُشتمّ من كلامه كمن نصب فخاً للآخرين.

«إنما الأعمال بالنيات، وطالما الغني يعمل خيراً ويساعد الفقراء فهذا مؤشر خير...» أسرع يوسف بالإجابة، لكن حسين قطع عليه فتواه طارحاً كتلة من المشاكل التي لا يمكن الحكم عليها من باب حسن النيات، مؤكداً أن التشريعات مثل الزكاة وأخذ الضرائب لم تعد قادرة على وقف اتساع الهوّة.

«الإسلام أمة واحدة، ولكنّ لدينا دولاً في مصاف الأغنى عالمياً وغالبية أخرى في مصاف الأفقر. وفي الدولة الواحدة فوارق ضخمة بين الأغنياء والفقراء. الأثرياء العالميون الذين لا تقل ثروة كل واحد منهم عن مليون أصبحوا يجمعون فيما بينهم أكثر من 33 تريليون دولار، وهذه زيادة تقترب من عشرة بالمائة خلال عام واحد. من التسعة ملايين مليونير هناك تسعون ألفاً يملك كل منهم أكثر من ثلاثين مليوناً، وهؤلاء أيضاً في زيادة سنوية متسارعة. في بلاد الحرمين يوجد ثمانون ألف مليونير. بالطبع العدد الأكبر من الأغنياء هم من الأميركيين. البلاد العربية والأفريقية فيها ثلثا النفط العالمي، وأغنياء يأكلون ما يشتهون وينفقون بغير حساب، وفيها أيضاً أمم تأكل التراب والجذور البرية وتموت عطشاً. أعتقد أن ذلك الانتشار للظلم يؤهلنا لتمنِّي تقديم موعد القيامة لينال كل نصيبه».

«لا أؤيد استنتاج حسين. الأرقام صحيحة ولكن في كل العصور وجدت مثل هذه الفوارق. التاريخ الإسلامي زاخر بالقصص عن

محاولات إطعام الجياع من بيت المال. ليس بمنع الأغنياء وإنما بأخذ الضرائب منهم إلى جانب ما تجمعه الدولة. الدول الإسلامية بحاجة، مثل غيرها، إلى تحصيل حصص ضرائبية أكبر من الأغنياء، وتخفيف في إنفاق الحكام، ومنع الفساد والتلاعب بالمال العام، وربما اتفقتم على توحيد بلادكم، وتخصيص موارد تنمية للمناطق الأفقر لتلحق بالأغنى. التضامن وتوفير الفرص أفضل من إخفاء الأغنياء أموالهم ودعم روح الاتكالية لدى الفقراء». لم يقاطع أي منهم مارتن، ولم يتوقّعوا منهم مثل هذا الموقف إذ توقّع جلّهم أن تطلعاتهم للحرية والمساواة في الحياة الدنيا تقرّبه من تقبُّل المساواة في الدخل.

«الشيوعية نجحت في توحيد نصف العالم بالقوة وبالأساليب السياسية، لكنها فشلت في التعرف على طبائع البشر، وعندما حاصرت وحقّقت العدالة بين معظم المواطنين ذهب دافع العمل وتفشّى الكسل ثم الفساد والاتكالية. أصبح كل يلوم الآخر حتى انهارت الحكومات وظهرت الكوارث الاقتصادية التي كانوا يخفونها خلف شعارات كاذبة». ثم أضاف خالد، «نحن فعلاً بحاجة لتطوير النظام الإسلامي في جمع الضرائب وتقييد إنفاق الحكام وتشريع شبكة الدعم الاجتماعي على مستوى الوطن والأمة. طالما أن الجنّة بانتظار المحسنين والمصلحين وفعلة الخير فلا مبرِّر للتردّد القائم بين الحكام...».

«... إلّا إذا كانوا لا يؤمنون بالفعل، أو لا يصدّقون بوجود الآخرة والثواب والعقاب». قال حسين مقاطعاً وشرح باختصار تجربته الذاتية على الأرض بإشراك عمال بحصص محدّدة في مشاريع صغيرة على أن يسدّدوا ثمن حصصهم من أرباحها، وقال

إن هذا كان يدفع بهم للمزيد من الإنتاج حتى يستملكوا الحصص ثم يزيدوا حجمها.

«رغم أهمية ما تمّ الحديث عنه للآن..» قال ابن خلدون «.. فإن لب القرار يُبحث عنه فيما إذا كان رزق الأرض يكفي سكانها، وإذا كان الإيمان يعمر قلوبهم، والسعادة أعمّ من الشقاء. أرى أن حجم ودورية المجاعات في تناقص، وضحاياها يقلّ عددهم كل مرة، وأصبحت محصورة في شريط إفريقي بعد أن كانت تعمّ كل الدول والقارات. التقدم الهائل في كل المجالات، حتى الطيران في السماء والفضاء، لم يحد من حجم الإيمان وإعداد المؤمنين...».

«... والسعادة والشقاء أمران نسبيان، بل الفقراء أسعد من الأغنياء. كل ما سمعته حول موعد يوم القيامة يفترض أن القرار يوجد في السماء فقط. بالطبع فإن الواحد الجبار يمكنه قلب أعلاها أسفلها في غمضة عين، وأيضاً يمكن لرئيس دولة نووية تصعيد المواقف بسرعة إلى حرب تنتهي بإبادة الجميع. بل إن أخطاء فنية قد تأتي بالنتيجة نفسها. أريد القول إن من واجبنا تقديم اقتراحات تكميلية، إذا رأينا ضرورة لاستبعاد يوم القيامة، حتى لا ينفّذها أحد المجانين على الأرض». انعكس على وجوه الحضور تقبُّل لمنطق العامري، لكن الشيخ يوسف رأى أن فعلة، مجنون أو عاقل، ستكون بأمر من اللّه وإرادته. لم يدخلوا في نقاش التسيير والتخيير بل تطرق حديثهم للسعادة والشقاء واكتشفوا نعمة إلّهية إضافية.

الجسد هو الذي يشكّل الإنسان على الأرض، حسب حسداي، يصحّ فيسعد الإنسان به، أو يعتل فيشقى. والمعدة هي أساس

البلاء، وبالتالي فالأغنياء أو حديثو النعمة الذين يكثرون الطعام يصابون بالأمراض والشقاء. وأكمل حسداي نظريته معتمداً على أرقام دراسات حديثة بأن أمراض الطعام المتنوعة تؤدِّي لتعطيل القدرات الجنسية أيضاً، أي ثمة شقاء إضافي أصبح يصيب خمس الرجال بين سن الأربعين والستين. متوسطو الحال والطعام، الذين يكدون جسدياً، تقلّ أمراضهم ولا يتعكّر أداؤهم الجنسي. بالطبع فإن ذوي الفقر المدقع لا طاقة لديهم حتى للتفكير في سعادة أو شقاء.

«تمنّيت في أواخر أيامي على الأرض مبادلة علّتي وملكي مع أحد العبيد الذين حملوا سريري بين الجبهات في الأندلس. فكم يا ترى من أصحاب الملايين الآن يتمنّون مبادلة أموالهم بانتصار طبيعي ومتعة جنسية مثل الآخرين؟» تبسّم بعض الحضور وضحك بعضهم الآخر ممن يملكون الآن القدرة على مضاجعة سبعين أنثى بكراً في ليلة واحدة، وأضاف العامري: «لو كنت مكانهم لأنفقت ما ملكت يميني، وأتقنت إيماني، على أمل الوصول إلى الجنّة».

مصير إبليس

«أين مقام إبليس بعد يوم القيامة؟» لم يتلقَّ إجابة، واستدارت الرقاب في اتجاهه انتظاراً لما توقّعوه من استكمال لنكتة، ولكنه لم يسعفهم.

«مقامه في جهنّم وبئس المصير كعقاب على إغوائه الناس. هل تخفى هذه عنك يا أبا الغصن؟».

«بالطبع لا يا أبا أحمد، إنما سألت على أمل الفوز بجواب مفصل. كما يعرف سماحتكم وجلّ الحضور، وربما كلهم، فإن إبليس خُلق من النار ورفض السجود لسيدنا آدم الذي خلقه الخالق من الطين». سكت جحا وفهم الخميني، وبقية المستمعين أنهم أمام معضلة ولا نكتة.

«النار تأكل بعضها وتؤذي وتؤلم بعضها كما يؤلم القاتل المقتول. إبليس وبقية الشياطين سيصيبهم من البلاء ما يصيب الذين ساروا معهم من البشر، وليس على اللَّه بكثير».

«نعم يا شيخ محمد، ليس على اللَّه بكثير، وهو عليم بكل الأمور، ولهذا أدخلني الجنّة وسمح لي بالحضور إلى مؤتمركم دون التفات إلى كل الأقاويل التي تناقلها الرواة والكتّاب زوراً عني. إذا كان الماء يُغرق الماء، فإن النار تؤلم النار. في الحقيقة أن اتحاد العناصر يقوِّيها».

«كيف تجمّع وانتشر خليط الحماقات والحكم منسوبة إليك،

وأنت، كما يظهر، حليم عليم؟» جاء السؤال من جمال خليطاً من المزاح والاستفسار.

«سأجيبك أولاً ولن ننسى قصة إبليس، إذا كان هذا ما تأمله. كان لي في بغداد جيران مخنّثون أمازحهم ويمازحونني، ولكنهم وضعوا عليّ، وزاد غيرهم فيما بعد...».

«... إذاً لم يصدر صراخ من بيتكم عندما وقع قميصك عن حبل الغسيل؟» قاطعه جمال، وانتظر لحظات أمام تشوق الحضور لسماع بقية الخبر.

«لماذا الصراخ إذاً؟ هل لحنوا عني الصراخ خوفاً من الأذى لو كنت في القميص عندما سقط؟ هذه أول مرة أسمع هذه الحماقة». ارتفع الضحك إعجاباً بذكاء جحا الفطري وسرعة البديهة التي يملكها.

«أسمعني ماذا قالوا غير ذلك عني».

«قالوا إنه مات أحد جيرانك وأنك اختلفت مع الحفّار على السعر ورفضت دفع خمسة دراهم، ورأيت الحل بشراء خشبتين من السوق وصلب الميت عليهما. عندما سألوك عن سبب هذا التصرف قلت: نربح ثلاثة دراهم، ويستريح الميت من ضغطة القبر ومسألة منكر ونكير».

«يا للسخافة، وماذا قالوا غير ذلك؟» سأل جحا جمال الذي بدا ملمّاً بنوادر جليسه.

«قالوا إنك تبخّرت يوماً فاحترقت ثيابك، فأقسمت: واللّه لا تبخّرت إلا عرياناً. ونسبوا إليك أيضاً أنه عندما هبّت ريح شديدة خاف الناس وأخذوا يدعون اللّه ويتوبون، فصحت أنت بهم: يا قوم لا تعجلوا بالتوبة إنما هي زوبعة وتسكن».

«أظرف ما أعجبني مما نُسب إلي قولهم أنني اشتريت دقيقاً وأن

الحمّال هرب به. بعد أيام رأيت الحمّال فاستترت منه، وعندما سألني القوم عن السبب قلت لهم: أخاف أن يطلب مني كراءه».

«نعم هذه حكمة بالفعل». قال الإمام وأضاف: «فاللصوص تنقصهم القناعة ولا حدود لأطماعهم، وأحياناً من سعة الإدراك تجنّب أذاهم. اسأل الذين سرقت بلادهم وبيوتهم وتشرّدوا، ويطالبهم اللصوص الآن بإثبات حسن النيات لأنهم لا يصدّقون بأنهم تنازلوا عما سرق منهم». بهذا الاستنتاج أعاد الخميني الحضور إلى المهمة الملقاة على كاهلهم.

«أعتقد أن أحمق الحمقى هو إبليس. كان متعبّداً مؤذّناً للملائكة فظهر منه من الحمق والغفلة ما يزيد على كل مغفل فإنه لما رأى آدم مخلوقاً من طين أضمر في نفسه لئن فضلت عليه لأهلكنه ولئن فضل علي لأعصينه». عاد جحا بهذا الترابط إلى مناقشة أحد شؤون يوم القيامة. «اعترض على حكمة اللّه. ثم لو وقف على هذه الحالة لكان الأمر يحمل على الحسد ولكنه خرج إلى الاعتراض على المالك بالتخطئة للحكمة فقال: (أرأيتك هذا الذي كرمت علي) وزعم أنه أفضل من آدم بقوله: (خلقتني من نارٍ وخلقته من طين) ومعنى كلامه: أني أحكم من الحكيم وأعلم من العليم وأن الذي فعله من تقديم آدم ليس بصواب. هذا وهو يعلم أن علمه مستفادٌ من العالم الأكبر فكأنه يقول: يا مَن علّمني أنا أعلم منك ويا من قدر تفضيل هذا عليّ ما فعلت صواباً». ساد صمت وتوجّس من الكلمات التي يختارها جحا في طرح فلسفته، ولكنه واصل دون اكتراث، «فلما أعيت إبليس الحيل رضي بإهلاك نفسه فأوثق عقد إصراره ثم أخذ يجتهد في إهلاك غيره ويقول (لأغوينهم إلّا عبادك منهم المخلصين) و(أنظرني إلى يوم يبعثون) وصارت لذّته

في إيقاع العاصي بالذنب كأنه يغيظ بذلك الخالق. شيطان من النار وبهذا الحجم من التحدّي، كيف سيعاقب إذاً يوم القيامة؟».

«لنتأمّل في صنع اللّه، ونحمده، ونتذكّر حجم جهلنا بالأمور. ربما لا يدخل إبليس النار التي عليها من الحراس ملائكة غلاظ. اللّه أمكر الماكرين، فلا نستبعد أن تكون الإشارات القليلة لعقابه والجن الذين معه تهدف فقط لتحذير بني آدم وحواء من اتباع الشيطان، بينما في الحقيقة هناك توزيع أدوار لفرز المؤمنين عن غيرهم. مَن يختار الطريق القويم له الجنّة، ومن يختار طريق الشيطان له النار، أما إبليس وأنصاره من الجن فلهم مكافأة من اللّه للخدمة التي قدموها». شرب حمورابي بعضاً من كأس عسل، وانتظر الآخرون على أمل أن يُكمل. «القادر الجبار صانع الجنّة والنار والملائكة والجن والأرض والنبات والحيوان والإنسان، كان بوسعه سحق إبليس منذ اليوم الذي صنع فيه آدم، وكان اللّه يعلم سلفاً بمعصية إبليس حين يُسأل بالركوع. لم يسحقه أو يردعه أو يتجنّب الموقف كله. وحتى بعد أن حقّق إبليس أول نجاحاته بإغواء حواء وآدم لم يتعرّض لمنع حاسم وإنما طرد معهما من الجنّة إلى الأرض لتوسيع زمن ومساحة الاختبار وأنواعه».

«ماذا تقصد يا ابن بلدي، أن اللّه وإبليس شِقّا رحى يكمل كل منهما الآخر لفرز الإنسان الصالح من الطالح؟ أم أنك تقول بأن مقرّنا الأول كان الجنّة، ثم بسبب مخالفة إبليس للّه تحوّل الأمر إلى تحدّ بينهما فدفعنا، نحن البشر، الثمن حين أُخرج أبوانا من الجنّة، وسيكون على ضعاف النفس منا دفع بقية الثمن يوم القيامة، بينما الصالحون مصيرهم العودة إلى الجنّة؟».

«هذا واللّه يا جحا كلام أقرب إلى الكفر...».

«. . . دعك من إطلاق الفتاوى والأحكام يا شيخ محمد، عندما يغضب اللّه مني سيتصرّف معي، أما أنت فقل رأيك أو أنصت لآراء غيرك».

«أستغفر اللّه العظيم، اللّه أمكر الماكرين، ولكنه أصدق الصادقين أيضاً. قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾. هذه الآية معناها أن الجن والإنس الكثر الذين اتّبعوهم سيدخلون النار ويتعذّبون». قبل أن يسرع جحا بالردِّ على الشيخ، تدخّل حمورابي مفسِّراً بأن الآية لم تحمل ما قاله الشيخ، ولا يفهم منها بالضرورة أن الجن سيدخلون فيها خالدين مع الإنس.

«لننتبه إلى الاستثناء الوارد في الآية ﴿مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾. ونحن لا ندري بمشيئته سلفاً لكن للأمانة فهناك آيات تتحدّث عن مصير إبليس وأمثاله في النار ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

ارتاح جحا لسماع الإمام يترك باب التفسير مشرعاً لهذه الآية على الأقل، وأسعده أن سؤاله حول كيفية عقاب إبليس وصل إلى أبواب جديدة تفتح تباعاً. نظر إلى حمورابي ليشعره بأنه ما زال ينتظر تفسيراً وإجابة عن سؤاله.

«لا أدري إذا كان القاهر قد قرّر وجود يوم القيامة قبل خطيئة حواء وآدم أم بعدها. على الأرجح أنه خلقهما ليتكاثرا ويعبداه في الجنّة ويعيشا فيها بنعيم وخلود. وأعطاهما العقل وحرية الاختيار ومنعهما بوضوح من الاستمتاع بشجرة محدّدة. لو لم يسقطا في الاختبار، وتكاثرا وصمدت ذرّيتهما أيضاً أمام الإغواء، لبقينا في

الجنّة. لكنهما اختارا المعصية منذ اللحظة الأولى ولم يغفر اللّه لهما توبتهما، وطردهما مع الحيّة من الجنّة ليشقيا ونسلهما في كسب رزقهم حتى يبعثوا. إذاً موضوع القيامة والعقاب والثواب والجنّة والنار تقرّر في لحظة الطرد لآدم وحواء والحيّة وإبليس من الجنّة، وهنا قرّر إبليس إغواء أكثر نسل حواء وآدم ليثبت أنه أفضل منهم».

«على الأرجح أن عددنا في الجنّة سيكون أكثر من أهل النار، على الأقل بفضل الشفاعات». ضحك الحضور من قفشة جحا الذي أكمل حديثه وقد عاد لرسم ملامح الجد والاستغراب على وجهه: «هل قيل لأبينا إن تلك الفاكهة مكروهة فلا تأكل منها، أم قيل له إنها محرّمة؟ ثم هل كان الطلب إليه مقتصراً على شجرة بعينها أم على صنف من الشجر؟».

«مهما كان الأمر»، قال الشيخ محمد بوجه جاد أقرب للغضب يعرب فيه عن عدم ارتياحه لخلط الجد مع الهزل «فكل ما قيل هو على الأكثر اجتهادات وفلسفات جوفاء، إن لم يكن هرطقات. الواحد الأحد لا شريك في قراراته ولا شكوك في عدالته، أبونا آدم عندما تاب عن الخطيئة لم يقل إن الأمر اختلط عليه. أما إبليس وعقابه فلا يصعب على القهّار العثور على ما يؤلمه في جهنّم. قد يُلبسه أثواباً من نار، أو يرهقه صعوداً للجبل الناري في جهنّم حيث تذوب يداه إذا لامس النار وتعود لحالها إذا رفعها، وذلك سبعين خريفاً من الصعود ومثلها هبوطاً. وربما صنع له ولأمثاله جبلاً من الثلج تتجمّد وتتحطّم أعضاؤهم كلما لمسوه».

«عرفنا أن موقع الإنس والجن سيكون في يوم القيامة حسب أعمالهم، فما هو موقع الفئات الأخرى مثل الخبل والحمقى والمعاقين؟» طرح الإسكندر سؤاله هذا بعد فترة من وصوله إليهم

على حصان أحمر حطَّ به إثر تجوال قصير في أجواء المنطقة المسموح بها داخل الفردوس.

«حتى الآن لم يصلنا أي منهم. مصيرهم سيتقرّر عندما يقومون من القبور مع بقية الناس». قال الإمام وقد شعر أن الإسكندر لديه سؤال تكميلي. «من عاش مريضاً بدون عقل فلا عقل له على أفعاله، ومن كان معاق الجسد معافى الذهن فيحاسب مثل غيره، ومن كان بين بين تطبق عليه قاعدة، وإنما الأعمال بالنيات. والغفور الرحيم أعلم».

«ما هو إذاً حكم من مارسوا الموبقات من دون علم، إذ لم تصلهم الرسل والتشريعات في زمانهم أو في بلدانهم؟» نظر الإسكندر برأس مرفوعة إلى الحضور وكأنه أعجزهم بسؤاله.

«كلنا نعرف سبب سؤالك». أسرع جحا بالردِّ ليحدّ من غروره، وأضاف «إنما الأعمال بالنيات تطبق عليك أيضاً. إذا كانوا راضين بما فعلت بهم فهذا شيء، وإذا غررت بهم أو ابتززتهم بمركزك، فجهنّم وبئس المصير».

«أسرعت في هذه الفتوى يا أبا الغصن. الديانات الثلاث الأخيرة نزلت بأساليب متباينة لتناسب أهل عصرها. الأمم قبل ذلك كان لها آلهتها وشرائعها المتلاحقة التطور والتي تلائمهم. كل ديانة أخذت عما سبقها وأضافت إليه. اليهودية، ثم المسيحية التي تلتها، أخذتا مباشرة عن ديانات آشور وبابل، ويعود أصل التعبّد إلى أبينا آدم». حوَّل حمورابي نظره إلى الإسكندر وأضاف: «في دياناتكم كان اللواط غير محبّب. كما أن اليهود ساروا في ركب غزواتك وكنت تعرف تعاليمهم ولكنك تغاضيت عنها». تململ الإسكندر ولكن قبل أن ينطق بكلمة أكمل حمورابي رأيه وسط صمت الحضور وعدم نظرهم إلى المُخاطب. «منذ اليوم الأول صنع اللَّه

حواء من أحد أضلاع آدم وأرشدهم إلى طريق النكاح والتزاوج، وأصبح ذلك شرعاً متوارثاً». انضمّ إليهم فريق آخر تقدّمهم جبرائيل، استمعوا لأواخر الحديث واختار بوتو أن يطرح سؤالاً متناغماً مع توجُّه القوم ولكنه ينهي الإحراج من التوسع في قضية اللواط:

«لماذ اكتشف أبوانا آدم وحواء عوراتهما بعد الأكل من الثمرة المحرّمة، وسعيا لسترها بأوراق الشجر؟» قفزت إجابة سريعة من ربيع بأن الشجرة هي شجرة المعرفة، فأصبحا يعرفان العورات وخجلا وتطلّب الأمر أن يسترا نفسيهما. لم يوافق الشيخ محمد على هذا الرأي كونه يُقرّ بأن آدم وحواء كانا قبل أكل الفاكهة المحرّمة جاهلين ومسيّرين غير مخيّرين، ويعني ذلك أيضاً نجاح إبليس في الإغواء لهما على عكس التسيير الإلّهي، ولو كان الأمر كذلك لما تحمّلا نتيجة عملهما ولما طُردا من الجنّة. اتّجهت الأنظار إلى جبرائيل ليحسم الرأي كون أي منهم لا يملك القدرة على استطلاع تاريخ ومجريات أيام الجنّة الأولى أو الحقب التي سبقت الخروج من الجنّة.

«خجلهما جاء مما فعلا ولمخالفة أمر اللّه، فخشيا أن يراهما وأخذا بستر الجسد. كانا مخيّرين، وكان الرحمن يعرف ما سيحدث سلفاً، وأخبر به الملائكة. لقد ورد في القرآن بعض من ذلك الحديث، فحين سألنا، نحن الملائكة، الخالق لماذا سيصنع بشراً سيكون مصيره الهبوط إلى الأرض وإعادة سيرة الذين سبقوه هناك من مخلوقات قتلت وسفكت الدماء وأفسدت، قال لنا إنه يعلم ما لا نعلم. كان ذلك قبل بداية جبل آدم من الطين. ثم أثبت لنا العارف لاحقاً أنه علّم آدم الأسماء التي كنا لها جاهلين. أما الشجرة فقد اختلفت في الشكل فقط عن الشجر الآخر، وثمارها

طيّبة مثل بقية الثمر، ويوجد منها الكثير هنا في الفردوس، ولكنها لم تعد محرّمة، ويمكنكم الأكل منها ما شئتم. آنذاك كان الاختبار للإنسان، ولا دور محدّداً للثمرة. «كانت العيون تتابع وجه جبرائيل المضيء، بينما تقاسيم وجوههم تطلب المزيد من الأخبار والتفسيرات عن تلك الفترة وما سبقها، إذ ليس بمقدورهم استجلاء أحداثها. لم يخف ذلك على جبرائيل فعاد للحديث. «صنع اللَّه الكون وخصَّ الأرض بقدرات الحياة، ثم خلق الملائكة لتسبِّح له في السماء، وخلق الجن بعدنا روحانيين مثلنا، وهي قادرة على الطيران أيضاً وكانت تزور الملائكة وتتعلّم منها. الملائكة والجن لا تتزاوج ولا تزيد أو تنقص. هكذا كان الإنجاز الربّاني التالي خلق أبداناً لها أرواح وأسكنهم الأرض مع الجن. بعض من الطرفين تمرّدوا وبغوا بغير حق وأظهروا الفساد. لذلك جرّد اللَّه أولئك الجن من أجنحتهم وأبقى الأبدان الأخرى تدبّ على أربع كالدواب وكلهم ذكور لا يزيدون، وكانت الدواب في عهدهم ضخمة فتّاكة. بعد سبعة آلاف سنة رأى الرحمن إبادة تلك الأجناس، وخلق البشر بعد أن خلق هوام وحيوانات وطيوراً جديدة. وبقية القصة لا تخفى عنكم الآن».

لم يتطاول أي منهم بسؤال إضافي عن العصور الأسبق، وخرّوا جميعاً خاشعين مسبّحين للعلي القدير شاكرين نعمته في الدنيا وفضله عليهم في الآخرة. قرأ جبرائيل أثناء الصلاة خواطر تجول في رؤوس بعضهم بالسؤال عن المستقبل، وتحديداً عن القيامة وما يليها، ولكنه أسمع الجميع قبل أن يصدر سؤال عن أي منهم: «علمها عند اللَّه، وليس أمامنا سوى الصلاة والشكر، وبالطبع الحوار في مؤتمرنا حول موعدها، من دون أن يكون لرأينا أي وزن. وقرأ عليهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾.

فجعلناهن أبكاراً

«نحن نعرف سلفاً ما كان ينتظرنا في الجنّة، القرآن قدّم لنا أوصافاً، والأحاديث النبوية أعطتنا تفاصيل، إذ زار نبيّنا الجنّة ليلة أُسري به، كما شاهد النار أيضاً في تلك الرحلة برفقة جبرائيل. لأنك مثيلي في الاسم، وترغب في الانتقال إلى جنّتنا فسوف أجيبك عن شق من سؤالك. نعم ما عرفناه عن الجنّة في الحياة الدنيا، أقل بكثير مما نحياه الآن، فلم نكن نعرف صورة ما وعدنا به اللّه بقوله تعالى، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». اختلط التشوّق ببعض التأسف في ملامح الملك سليمان وهو يستمع إلى سليمان الحلبي إثر اختلائه به بعد وجبة طعام وشراب ضمّت آخرين.

«قل لي إذاً ما تسمح به ظروفك عن شأن الزوجات، وحور العين».

«دعنا من الزوجات الآدميات، وإليك ما قال لنا اللّه عن حور العين اللواتي خلقهن في الجنّة خصيصاً لنا. ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ۝٥٦﴾. وقال عنهن كأنهن الياقوت والمرجان، ووصفهن الرب لنا بالقول: ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ۝٢٣﴾. ويعرف كل المسلمين ما ورد عنهن في القرآن: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ۝٣٧﴾ [الواقعة: 35-37]. وموضوع البكارة معروف أيضاً بأنهن يعدن أبكاراً بعد كل جماع.

هذا حال أبدي لا ملل منه ولا كلل الآن، وهو وصف عرفناه على الأرض ويقصر عن تبيان ما نعيشه الآن في أي طبقة من الجنّة».

«لكن الجماع لا ينتج أجنّة، فهل هو ممتع كالجماع في الحياة الدنيا؟».

«تريد أن تعرف إذا كان هناك قذف أم لا؟» سأل سليمان سليمان بصوت مرتفع، فأعطاه الثاني إشارة نعم إن هذا هو قصده، وإشارة أخرى أن يخفض صوته ليبقى الحوار ثنائياً ولا يُسرع إليهما آخرون.

«نحن هنا خالدون، وإذا أردنا أطفالاً تُصنع لنا فوراً وبسرعة من دون حمل الإناث أو ميلاد، ونقل لنا في الحياة الدنيا عن نبِّينا قوله أنه لا مني ولا منية. يعني لا نقذف منياً ولا توافينا المنية، وهذا ثبت صحته لنا الآن، لكنه لا يعني أبداً أننا لا نتلذّذ أثناء الجماع. بدون الشهوة واللذّة فلا معنى لزوجتين أرضيتين وسبعين حورية إلى جانب فرص أخرى متاحة. اللذّة الآن أضعاف ما كانت على الأرض، ومع ذلك فالجماع لا ينقض وضوءاً لأنه طاهر». لم يرفع الملك عينيه عن ابن حلب الذي لم يكن لديه موانع حقيقية من الإفصاح عن هذا الجانب، لكن شيئاً ما في داخله كان يطالبه بتشويق النبي السابق الذي امتلك سبعة آلاف زوجة وجارية، ومنحه اللّه على الأرض قوة الجماع معهن، وأصبح الآن في جنّة اليهود الروحانية: «يبدو أن النكاح ينقصك ويهيمن على جوانحك».

«هذا صحيح، لو بقيت في جنّتنا ولم أحضر إلى هنا أو أكتسب جسداً ولم أتناول هذه الأطعمة، فربما لم تكن لتشغلني شؤون حريمكم وحورياتكم».

«ورب العزّة يا سليمان لو شاهدت حورية واحدة لانعقد لسانك من شدّة جمالها ولأغمضت عينيك من بهاء نورها. تخيّل أنني

أضاجع السبعين في ليلة واحدة، أفضّ بكارتهن واحدة بعد الأخرى. . .».

«لكن كيف تعرف أنك انتهيت من واحدة لتذهب للثانية طالما أنك لا تقذف؟ نكاح على الناشف؟».

«. . . كلامها رخيم، وقدّها قويم، وشعرها بهيم، وقدرها عظيم، وجفنها فاتر، وحسنها باهر، ودلالها ظاهر». هكذا واصل الحلبي وصفه متجاهلاً إلى حين تلهُّف جليسه على معرفة أدق تفاصيل النكاح: «كثيرة الوداد، عديمة الملل، زكية الرائحة. مهما وصفت لك فلن أنصف أوصافهن لأن خيال أهل الأرض، وخيال مَن لم يراهن، لا يمكنه خلق صورة قريبة لهن. أجامع السبعين وأخرج للتمشّي بين حدائق قصري وخضرته الناضرة، فيلحقن بي بملابس السندس والاستبرق على أجسادهن وأساور الذهب واللؤلؤ تطوِّق أعناقهن. يرتمين على كتفي ونجلس تحت ظليل الأشجار والأزهار نتبادل الكؤوس من الرحيق المختوم ومن خمرة هي لذّة للشاربين. كلما مرَّ علينا ملاك يبلغنا السلام من ربنا ويقول: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار».

«أعتقد أنك من أصدقاء الشياطين يا سليمان، تعذّبني عمداً. كنت في حياتي أعتقل الشياطين والجن في قوارير، ولكني سأستمع إليك حتى يروقك إعطائي ما سألتك».

«سأفيدك بكل شيء، وعليك التحلي بالصبر لتكون على بيِّنة من أمرك لو أكرمك اللَّه البقاء في جنّتنا. حتى تتحقّق أمنيتك فنصيحتي إليك أن تكسب جمال وصلاح الدين لتأييد مقترحك، والنصيحة الأخرى أن لا تعمِّم الأمر بالمطالبة لدمج الجميع في جنّة واحدة، طالب لنفسك وكفى». ألقى الحلبي بهذه النصائح على سمع سليمان وعاد إلى موضوعهما الآخر: «كل الأوقات هي زفاف، هو حلم

متكرِّر أحلى من الشهد، مع إناث كالشفاف ترى يدك عبر جسدها وترى مخ ساقها. أما الصدور يا سليمان فهي مثل الرمّان استدارة، ومثل التين نضارة. كلهن كواعب أتراب. لو رأيت نوراً يشعّ في الجنّة فأعرف أن إحداهن تبسّمت، لكن هنا في محيط المؤتمر لا توجد أي منهن». تأكّد سليمان أن الحلبي سيطيل عليه الشرح حتى يوصله إلى الجواب، فسايره سائلاً إياه كيف يفوز المسلم بكل هذا.

«ليس كل مسلم يفوز بهذا، فجهنّم مليئة بالمسلمين والكفار الآن وربما لا تسعهم بعد يوم القيامة. إنما يفوز بهذا المقام والنعيم الأبدي من ترك الشهوات وصام في يوم قائظ، أمثال هؤلاء يُباهي بهم اللّه الملائكة. النزلاء هنا أيضاً ممن تعلّقت قلوبهم بالمساجد، وآخرون لخشيتهم ربهم. وتزفّ العرائس للمنفقين أموالهم سرّاً وجهراً، وللذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وللذين هم لفروجهم حافظون، ولأماناتهم وعهدهم راعون. تزفّ العروس لعيون طالما نفرت دموعها خشية من ربها، ولأجساد وقلوب وهبت نفسها للّه، وللعفيف المتعفّف، والضعيف المتضعف، والمتواضع ذي الطمرين المدفوع بالأبواب. تزفّ العروس لتارك المراء ولو كان محقّاً، وتارك الكذب ولو كان مازحاً، تزفّ لمن حسن خلقه، وكظم غيظه، وعفا عمّن ظلمه...».

«أعرف هذا، أي للصالحين، ولكن كيف وصلت أنت إلى هذا النعيم مثلاً؟». لم يفسِّر الحلبي السؤال كتعجّب واستنكار، ضحك وأخبر سليمان كيف تحرّك من حلب على قدميه إلى مصر وغرس سكينه في قلب القائد الاستعماري الفرنسي كليبر. لم يحدّثه عن الأحاسيس التي دفعته لذلك العمل الذي أوصله للجنّة. طرد من

ذهنه فكرة سؤال سليمان إذا كان والده، النبي داوود، قد أوصاه بالفعل بالابتعاد عن النساء وعن مشورتهن.

«إنه رضى الوالدين يا سيدنا، ومغفرة الجبار، يمكن نتيجة لعمل صغير بنيّة صافية أن يمسح سيئاتك ويمنحك الرضوان وحور العين وكل ما تشتهيه».

«أعتقد أنك تبالغ في شأن حور العين ولذّة الجماع. لا أتصوّر متعة من دون قذف. الأفضل لو توفّرت خصلة القذف ودُعمت بإعطاء سكان الجنّة قدرات لا تنضب على الجماع».

«تقول ذلك إما لأنك تريد سحب التفاصيل مني، أو لأنك بالطبع لم تجرِّب النكاح في الجنّة. عندما تكون عند الواحدة منهن لا تملّها أو تملّك، ولا تشتكي من إقبالك وتكرارك. أحياناً يُنادى عليك: إنّا قد عرفنا أنك لا تملّ ولا تُمل، ولكن لك أزواجاً غيرها فاخرج إليهن. هكذا تذهب للتالية، تستقبلك بالقبلات والتصريح أنك الأفضل في الجنّة والأحب إليها. تأخذها دحماً دحماً، وكل دحمة تعطيك شهوة ولذّة أفضل من أي قذف، إذ تهزّ جسدك ووجدانك. بعد عشرين أو ثلاثين دحمة تتذكّر بقية الزوجات...».

«ألا يمكنك جمعهن معاً ليتناوبن عليك وأنت على السرير من دون أن تتحرّك بين غرفهن؟».

«لم تخطر لي هذه الفكرة، ولكن لا ممنوعات في الجنّة فقد وعدنا اللّه أن فيها ما نشتهي، أي لو لم يكن موجوداً لوجد عندما يشتهيه أي منا». أجاب الحلبي وهو يكتم قهقهة مما استنتج من ممارسات سليمان الجنسية مع حريمه.

«نحن بالفعل كنا مخيّرين على الأرض. تصوّر لو أراد الرحمن

من البشر أن يعبدوه كأفضل عبادة، لأراهم فقط وجه حورية بين السماء والأرض، حينها سيتّقون ويصبحوا مثل المسيّرين، كل غايتهم نيل حورية، ناهيك عن سبعين وزوجتين من أهل الأرض يفضّلن على حور العين».

«نعم يا سليمان، لو أطلّت عليهم حورية لانتهت المشاكل والصراعات وانشغل الناس في التسابق للعبادة، ولوبصقت واحدة منهن في البحار السبعة لتحوّلت إلى مياه عذبة تنهي المجاعات والقحط. لكن ربنا منحنا العقل وحرية الاختيار». كان صوتهما قد ارتفع درجة عن مستوى الهمس، فطالبهما صلاح الدين بالاشتراك في الحديث الدائر حول يوم القيامة.

«مللتم من الطعام والشراب فنقلتكم الغرائز إلى شؤون المضاجعة. نحن هنا في مهمة حول يوم القيامة». كان صلاح الدين يبتسم أثناء حديثه معهما على مسمع من بقية الحضور، وشعّت أنوار منعكسة على أسنان الذين شاركوه في الابتسامات، فشعر سليمان بضرورة التعليق.

«لا يخفى عليك وعلى الجمع الكريم يا صلاح الدين، أن الأمور مترابطة بعضها مع بعض، والحديث عن النكاح على علاقة بيوم القيامة. لديك على الأرض في جزيرة صغيرة مثل بريطانيا مليون ونصف مليون من المعدمين جنسياً، لا يكاد يكون لهم انتصاب، وحيواناتهم المنوية ضعيفة وقليلة. يعني لا ينجبون ولا يتمتّعون في الحياة الدنيا بالشيء الذي يغريكم به اللّه في الدنيا الآخرة. القيامة لهؤلاء تحمل معاني أخرى خصوصاً وأن جنّتهم لا نكاح فيها. هذا الحال يعمّ غيرهم من أهل الأرض الآن».

«أعرف الآن أن ربع الرجال فوق الأربعين لديهم مشاكل في ممارسة الجنس. بعضهم ضغطت السمنة على أجهزتهم، وغيرهم

أضعفهم مرض السكر أو ضغط الدم، وهناك كثرة من مدمني التدخين لا يمكنهم التجاوب مع رغبات أثنى، ونسبة جيدة أصابهم الضعف الجنسي من شدّة الضغط في العمل والركض خلف المال. هذا العطل الجنسي بدوره يؤدِّي للكآبة». شرب الناصر بعد كلماته هذه بعضاً من الخمر، وحمد ربه وشكر أنه لم يُصب بنقص الطاقة الجنسية في حياته. أفلتت منه نظرة إلى ياسين الذي قرأ على محياه رغبة في سؤال لم يطلقه لسانه.

«الجواب لا، ولو محصت قبل توارد السؤال لذهنك لعرفت أنني كنت أنجب بعد الحادث الذي أصابني بالشلل. إنها من نعم وحكم اللَّه أن يمنح الملذّات لمن يشاء. الأغنياء يشقون ويأكلون ويتخمون ويمرضون سواء من البخل أو الإسراف، فيزيدهم اللَّه شقاء الحرمان الجنسي على الأرض وعذاب جهنّم فيما بعد، بينما الفقراء ينكحون وينجبون في الدنيا وغالباً ما تكون الجنّة مثواهم في الآخرة».

«هذه ليست قاعدة دائمة، ولدينا الآن إثبات على ذلك، فأنت وأنا من الفقراء، ويحيط بك ملوك ورؤساء وسلاطين». صمت الحلبي برهة محاولاً معرفة إذا كان الحضور لم يعانوا من نقص جنسي في حياتهم كبعض من العقاب. قبل الوصول لاستنتاج أسعفه ياسين بحديث أن الحياة أيام الملك سليمان وحتى عصر الخليفة الناصر أو السلطان صلاح الدين، لم تكن تضغط نفسياً على الحاكم والمحكوم كما تفعل الحياة اليوم.

«هناك فكرة تسود بين روّاد الحلقات العفوية، كهذه، بنقاش ما سيحدث يوم القيامة، على أمل أن يساعدنا هذا جميعاً على التقرّب من رأي حول موعدها». كانت ملامح ديجول جامدة لا توحي بأنه

كان يستمع لاهتمامات القوم الأخرى قبل أن يرشدهم لما رآه صواباً.

«ونفخ في الصور فصعق مَن في السماوات ومَن في الأرض إلّا مَن شاء اللَّه، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأشرقت الأرض بنور ربها، ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء، وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون. صدق اللَّه العظيم. ذلك اليوم يبدأ بنفخة قاتلة، ثم تحيي الموتى نفخة أخرى تعلن بداية فتح كتاب السجلات للعقاب والثواب بدون ظلم». صمت ياسين بهة ولمعت في ذهنه حقيقة قول اللَّه إن مَن في الأرض والسماوات سيصعقون، إلّا من استثناهم اللَّه، ثم تابع حديثه. «لا تستبعدوا أننا أيضاً سنموت من النفخة الأولى، ثم نحاسب بشكل أدق يوم القيامة». استهجن الحضور هذه الخاطرة الجديدة وأكثروا الاستعاذة باللَّه من هذا الفأل النحس. «فكروا في الأمر مليّاً، ولو كان كلامي فيه شيء من الصواب فهذا معناه أننا سوف نُحاسب أيضاً على أفعالنا وضمائرنا أثناء الإقامة في الجنّة. مَن لا يصدّق ذلك عليه أن يفسِّر لي إذاً المقصود بكلام اللَّه أن النفخة الأولى ستقضي على مَن في السماوات».

«ليس أسهل من ذلك». قال سليمان الخبير في شأن الجن، «إنهم الملائكة والجن، وبالتحديد جماعة إبليس والذين اتبعوه في السماوات. أولئك سيُقضى عليهم ثم يلتحقون بطوابير الحساب». قبل أن يسترسل في طرح أمثلة عن صراعه ضد الجن وأنصار الشيطان قاطعه ياسين مقدّماً تفسيراً عصرياً للآية. أعتبر أن المقصودين غيبيون حتى الآن، وأنه ستكون هناك حياة وسكن في

الفضاء، وأناس كثر في الطائرات يوم القيامة، وبالتالي فهم المقصودون. أنهى ياسين خاطرته بلعن الأميركان:

«لا أدري إذا كان ذلك يعني أن القيامة اقتربت أم لا؟ كل شيء بيد الأميركان الآن، إذا واصلوا غزو الفضاء وسكناه فهم يقرّبون موعد القيامة. عليهم اللعنة إنهم سبب كل المشاكل والكوارث في الدنيا والآخرة».

«يمكن أن نسأل جبرائيل ليفسِّر لنا معاني الآية».

«سيقول كما قلت بأنهم الملائكة والجن». رد سليمان على سليمان، وقال صلاح الدين إن جبرائيل قد يجيب بتذكيرهم بكلام اللَّه أنها ستأتي حين تكتمل أشراطها، أو يجيبهم بتلاوة ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ ولم يستبعد صلاح الدين أن يجيبهم جبرائيل أيضاً ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾.

«اشغلوا أنفسكم بشؤون قيامة الأرض». وصلهم صوت جبرائيل دون أن يشاهدوه.

«إنما أردنا معرفة إذا كان سكان هذه الجنّة سيحاسبون مرة أخرى».

«هذا يا سليمان من شؤون السماوات أيضاً». جاء الصوت مجدداً، فاستغفر الحضور ربهم وانطلقوا في صلاة جماعية أمَّهم فيها الشيخ ياسين، وسبّحوا بعدها بحمد اللَّه ودعوا أن تكون الجنّة مستثناة من أثر الصعقة. خطر لسليمان الدعاء بهزيمة الأميركان حتى لا يسكنوا السماء، لكنه اكتفى بالدعاء لإطالة عمر الأرض وسكانها، فالنتيجة واحدة بالنسبة إليه، ودعوة إيجابية خير من أخرى سلبية. أنهوا الصلاة ليجدوا أن جمال وعبد القادر ورونالد ويوسف، قد انضمّوا إليهم في الصف الأخير.

«نصيحة جبرائيل في محلها، وجاءت في موعدها». أيّد الجمع ديجول بإيماءات جسدية ثم سلّموا على الأربعة الذين انضموا أثناء الصلاة، ورحّبوا أكثر برونالد الذي يرونه هنا لأول مرة، وما زال الاضطراب بادياً على ملامحه وفي تفاعله مع الآخرين.

«رونالد وصل إلينا ضمن الذين طلبهم كمال للشهادة في المؤتمر، لكنه وصل متأخراً عن الآخرين». أكمل جمال دون توقف طويل وقبل استفسار أي من الحضور عن سبب التأخر: «كان من سكان جهنّم، ثم أصرّ عند وصوله على رؤية زوجته ولم يصدّق أنها لم تنتقل بعد للحياة الآخرة. الآن تعرّف على سبب وجودنا هنا، وعلى قدراته في رؤية ما يجري على الأرض، ويتابع كل خطواتها هناك».

«كنت تظن أن زوجتك في الجنّة؟» سأله صلاح الدين.

«لم تكن معي في النار، فظننت أنها في جنّتنا». سها لحظة ثم أكمل: «إنها حزينة هناك على الأرض، لو لم تكن معتنية بصحتها جيداً لكانت في السماء الآن، وربما تشفّعت لي. أنا متأكد أن النار لن تمسّ نانسي، كانت دوماً عنصر خير ومنعت حروباً كثيرة كدت أتهوّر فيها هي الأخرى». طمأنوه أن حضوره هنا فأل خير، وأن زوجته ستلحق به عندما يأتي أجلها. لم يبد وكأنه استوعبهم تماماً، وأخذ يشتم الرئيس الأميركي الحالي وعائلته، وكل الذين تملّقوه في رئاسته أيضاً ويتجاهلون زوجته الآن، وكأنها يتيمة الأهل والأصدقاء.

«قال صلَّى اللَّه عليه وسلّم إن خمس عشرة خصلة إن حدثت ستكون إشعاراً لحلول البلاء». صمت الجميع حتى يخبرهم ياسين بهذا الخصال ويبعدهم عن شأن رونالد ونانسي إلى موضوعهم.

«قال: إذا كانت المغانم دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً،

وأطاع الرجل زوجته وعقَّ أمّه، وبرّ صديقه، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرمه القوم مخافة شرّه، وارتفعت الأصوات في المساجد، ولبسوا الحرير، واتّخذوا القينات، وضربوا بالمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقب عند ذلك الريح الحمراء أو الخسف أو المسخ».

كاد الناصر أن يسأل رونالد إذا كان عاقّاً بأمِّه، فقد انطبقت عليه بضع خصال، لكنه سكت إذ فطن إلى أن الرجل ليس مسلماً وربما كان الحديث النبوي يخصّ الأمة الإسلامية، كما أن الذين تبعوه في الكرسي أسوأ منه بدرجات، ونقلوا البيت الأبيض بين وضع الماخور ووضاعة الخمارة، ولا يوجد أرذل ممن يحكم الآن، ومع ذلك لم تقم القيامة.

«يا للهول قد تقوم غداً، أو يرى أحدكم أن خصلة لم تتحقّق بعد؟».

«من فمك إلى آذان اللَّه». ردّ رونالد على عبد القادر، فأخبرهم الشيخ يوسف أن هذه الخصال تتعلق بقسم الأشراط الخاص بسلوك الناس في آخر الزمان، وهناك خصال أخرى بهذا القسم على علاقة بالفتن والحروب وتعامل الناس مثل إضاعة الصلوات واتباع الشهوات والميل للأهواء وتعظيم أصحاب المال وبيع الدين بالدنيا.

«أي عندما يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى، كما يُذاب الملح بالماء، إذ لن يستطيع تغيير ما يحدث من منكر. وهذا كله لم يحدث بعد، فالمؤمنون في ازدياد ونفوذهم في توسع. لكن هناك قسماً آخر للدلالة على اقتراب يوم القيامة، وهو القسم الخاص بحوادث تقع في الأرض والكواكب. ظهور المهدي مثلاً لنشر العدل، ونزول عيسى بن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج كما قال اللَّه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ

يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنبياء: 96-97] وعلامات أخرى وردت في القرآن منها ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: 10-11] وهذا الدخان يملأ ما بين المشرق والمغرب ويستمر أربعين يوماً وليلة. ثم هناك نزول المطر في غير أوانه، وموت الفجأة...».

«أنت تتحدّث عن تأثير القنابل النووية. أخبروني في البيت الأبيض مراراً ما سيحدث إذا أعلنت الحرب على الكفار السوفييت. قالوا سيعمّ الشتاء ولن تعرف إذا كانت الشمس تخرج من الشرق أو الغرب. نسيت باقي الأشياء ولكنها مثل ما قلته يا شيخ».

«أنت هنا معافى الذهن ولا تنسى أي شيء. حاول التذكر وستمرّ حياتك أمامك مثل شريط لفيلم كاوبوي مما تحب، ولكنك لن ترى لحظة واحدة من المستقبل». ضحك رونالد لأول مرة وضرب على ظهر جمال شاكراً لإرشاده.

«مما سمعت ومما رأيت فلا تستغربوا أن يعملها بوش الابن، خصوصاً وأنه يعتقد جاداً أنه على تواصل مع اللّه وينفِّذ إرادته». ارتفعت عيون رونالد إلى الملك سليمان إذ شدّه ذكر اسم بوش. «لو كنا مسيّرين لانتظرنا المصير المحتوم صابرين راضين شاكرين، لكننا أخيار أحرار فيما نفعل، ولو فعلها ذلك المتعصب فقد تكون القيامة بالفعل من دون نفخ في البوق. لقد ترك الرحمن إبليس يغرينا ويختبرنا، وربما استغل بوش لتدمير الأرض ومن عليها قبل أن يجمع العظام ليوم الحساب».

«لا أظن أن الرب سيكلّف بوش بأي مهمة، إلّا إذا أراد أن يضمن له قعر جهنّم إلى أبد الآبدين». كان رونالد أول المؤيّدين

لنبوءة جمال، وأخذ يخبرهم عن كثرة الجاحدين في النار، فأخبره صلاح الدين أن بوش الابن تائب الآن ويدّعي أنه ولد من جديد. «التائب يخرج ما في يده، والرئيس يشنّ الحروب ويقتل عشرات آلاف خلق اللّه من أجل زيادة أموال عائلته المالكة للنفط والمتاجرة به. حتى أنه يبخل في الإنفاق على الفقراء والمرضى من أموال الدولة، ويبذّر المال على الأسلحة والحروب». مرة أخرى كان رونالد أول مؤيّدي حديث جمال.

«هو بخيل، وأنت يا رونالد بذرت، ونحن نقول خير الأمور الوسط. نقول أيضاً لئن يخلف الإنسان لعدوه أحسن من أن يحتاج لصديقه. لو وفرت قليلاً لما احتاجت نانسي...».

«نانسي غير محتاجة لأموال أحد ولكن لعطفهم ومساندتهم، وأنا يا شيخ يوسف لم أبذّر. لم أترك أموالاً لأني لم أسرق مالاً ولم أستغل سلطتي للربح الشخصي، أو هتك الأعراض». هدأ قليلاً وتناول عنباً من صينية ذهبية وتذكّر ما يعانيه الأخوان كنيدي من جرّاء ما فعلاه مع مارلين مونرو. لم يتحدّث في ذلك الشأن وباشر يروي لهم عن مشاهداته الأخرى في جهنّم. «أتعرفون أن البخلاء يملأون النار! ليسوا في القعر الأسفل طبعاً. أظرف القصص التي سمعتها هناك لبخيل مرض بعد أن حجز الحاكم على أمواله. أخبره صديق بإمكانية فك ثلث ماله مقابل تنازله عن الثلثين، فرفض الاستعانة بهذا المال على المرض وطالب بكل أمواله، فمات وفقد كل شيء. الأفضل من هذه قصة الحماة التي خافت أن يتزوّج صهرها على ابنتها. ذهبت لبيتهما وأخذت تبلع الدنانير مع الطعام. استدركها الصهر بعد ثمانين ديناراً وأخذت عليه عهداً أن لا يتزوّج على ابنتها، ثم أعادت له بقية النقود. ماتت تلك الليلة ودفنها، ولكن بعد شهور فتح القبر لدفن طفل، فجمع بقاياها وذراها

واستخرج الدنانير. كلاهما الآن يتقاتلان في جهنم». انتشر الضحك بين الحضور من قصص رونالد ومن أسلوبه في الإلقاء، فواصل عليهم قصصاً لأناس وضعوا المال في الحجر الذي يوضع تحت رأسهم بعد الموت، وآخر جمع الغبار من المساجد مدّعياً أنه عازم على صنع لبنات قبره منها، ولكنه وضع ذهبه في تلك اللبنات التي غطّت جثمانه. لم يكف عن الضحك والضرب على ركبتيه وهو يروي عن الرجل الذي مرض وخاف الموت فأبلغ أحد أبنائه أين أخفى ألف دينار. انتزع الابن الدنانير ولكن الأب شفي من المرض وطالب بمعرفة مكان دفنها. لم يخبره ابنه بالمكان حتى مرض وأشرف على الموت فأبلغ أباه بمكانها. تكرّر الأمر بشفاء الابن ومرض الأب الذي رفض هذه المرة اطلاع أي من أولاده على مكان المال، فمات وضاع مالهم، لكنهم مجتمعون معاً في جهنّم.

قيامة لبنان وغزة

«صدّقوني لو قلت لكم إن العيب فيكم أنتم أكثر مما هو في الإدارات والسياسات الأميركية. لو انتفعتم بالقدرات التي منحكم إياها اللّه على الأرض لكان وضعكم أفضل، ولو استعملتم فضل اللّه عليكم الآن في السماء ونظرتم إلى الأرض، فسترون أن حديثي أقرب للحقيقة. هل تظنون فعلاً لو أن اللّه ألغى وجود أميركا وكأنها لم تُكتشف، أن مشاكلكم ستنتهي؟ أبداً، حالكم في الخمسمئة عام الأخيرة بعد وصول كولومبوس إلى أميركا، لا يختلف عما كان عليه في الخمسمئة التي سبقتها». لم يكن مارتن شامتاً من جلسائه أو محتجاً على نقدهم الشديد للقيادة الأميركية وتحميلها مسؤولية المآسي الحالية في العالم العربي. كانت رؤيته التي شرحها لهم تدور حول حتمية المسار التاريخي من حيث قيام إمبراطوريات تغترّ بقوتها وتمتصّ خيرات الذين يعجزون عن تطوير وحماية أنفسهم، ثم ينتشر الفساد وتنهار مثل هذه الإمبراطوريات من الداخل ولو بعد حين. «هناك الكثير من الأمم تتعايش مع أميركا الآن من دون أن تكون واقعة تحت هيمنتها أو تأثيرها السياسي والثقافي، بل إن دولاً كانت عدوّة لأميركا قبل وقت قصير تستفيد الآن منها اقتصادياً وتعارضها سياسياً. الخلل ليس فقط في العيب ذاته أو فيمن يمارسه، بل فيمن يتقبّله أو يسكت عنه أيضاً».

«آراء مارتن فيها صواب ولا تحتاج لإثبات الآن ونحن نشاهد

سكوتاً وشماتة علنية، بل اتهامات لبنانية وعربية ضد حزب اللّه. بعض الدول الأوروبية حمّل الحزب مسؤولية الهجوم بسبب خطف الجنديين، ولكنهم شجبوا إسرائيل لإفراطها في التدمير، وكانوا في ذلك أفضل ممن أيّدوا عملياً القصف الإسرائيلي للبنان وانحازوا تماماً إلى السياسة الأميركية. أولئك وأميركا كانوا...». كان واضحاً للمستمعين أن كمال لم يكمّل كل رأيه، لكن سليمان قاطعه وتدخل في الحديث للردّ على ما قاله مارتن:

«لا نريد التورط في شؤون الأرض، إنما نتفحّص سبل تأخير موعد يوم القيامة قدرالإمكان. بالطبع لا ينكر أحد وجود خطر من دول تملك أسلحة التدمير. ليس بوش فقط، خذ مثلاً بلير الذي لا يملّ من ترديد أنه يعرف ما لا يعرف غيره عن شأن العراق ومبررات الهجوم مع بوش وإحداث كل ذلك الدمار. نعرف هنا أنه لا يملك أي معلومة إضافية تبرِّر فعلتهم. رجل كهذا يمكن في سبيل التمسك بالمقعد أن يباشر حرباً جديدة قد تتطوّر إلى بدايات ليوم القيامة. هذا هو ما يدفعنا للتفكير في ردع قادة أميركا، ولا علاقة للأمر بخلافات العرب فيما بينهم، أو بخلافاتهم مع اليهود، فهذه قديمة جداً...».

«لكن إسرائيل نووية هي الأخرى، وكثيرة الحروب، ويمكن لأي قائد مجنون فيها أن يشنّ حرباً نووية لا نعرف كيف تنتهي، بقيامة كاملة أو بنصف قيامة...». لم يستكمل مارتن مقاطعته إذ استجاب لإشارات سليمان النافية لهذا الاحتمال وعاد يستمع إلى حكمة سليمانية مفادها أن إسرائيل لن تستعمل أسلحة نووية ضد جيرانها.

«لو لم يكن في حيفا سكان عرب لكانت صواريخ حزب اللّه عليها أشد وأكثر، وربما قصفوا المصانع الكيميائية القريبة. وضع القدس مشابه هو الآخر. اليهود في حماية جيرانهم الفلسطينيين،

ولا ننسى أيضاً أن استعمال السلاح النووي ضد الفلسطينيين هو بمثابة انتحار إسرائيلي. صراعهما على الأرجح سيستمر بدائياً بالحجارة والسكاكين والأسلحة التقليدية». سكت سليمان ولم يضف شيئاً من أطنان الكلام الممكن إهداره في هذا الموضوع. بدا للجميع وكأنهم خرجوا عن دائرة المهام المطلوب منهم تنفيذها.

«ما فكّرت فيه ولم أخفه عنكم يهدف إلى تمديد موعد القيامة. الأسلوب لذلك هو التوجه للعلي القدير بإزالة بعض ما توفّر من أشراط للقيامة. يمكن لزلزال مثلاً هدم البنيان الذي تطاول للسماء، وتدمير عدة مركبات فضاء لوقف برنامج استعمار السماء والسكن فيها. إضعاف قدرات الاقتصاد الإسرائيلي مفيد هو الآخر حتى لا يُستكمل تجميع اليهود في فلسطين، فهذا أحد أشراط القيامة الذي يلقى تأييداً من الأصوليين المسيحيين الأميركيين المطالبين بتعجيل القيامة وينشطون لتوفير أشراطها».

«إلى جانب ذلك»، أخذ عز الدين الحديث من جمال موجّهاً نظره إلى مارتن «لو شاء اللّه تسهيل نشر الإسلام في أميركا، فقد تزول بعض الأشراط الأخرى القائمة الآن. توسع الإسلام هناك سيحدّ من ظاهرة انتشار الكاسيات العاريات، ويرفع أخلاق الناس ليبرّوا بالوالدين ويتحرّروا من طاعة نسائهم، وبالطبع سينهي الإسلام ظاهرة المبشّرين بقرب القيامة العاملين من أجلها».

«يبدو أنك نسيت تفسير البعض بأن انتشار الإسلام في الغرب هو إحدى علامات اقتراب القيامة. عموماً لو كان أي بلد إسلامي أفضل حالاً أخلاقياً أو اجتماعياً أو معاشياً من الولايات المتحدة، لوافقتك في أمنية ورغبة تحويل بلادنا إلى إسلامية. حتماً لا تعجبني سياسة بوش الداخلية أو الخارجية، ولكن الرجل سيغادر البيت الأبيض في الانتخابات القادمة، وللأسف لا ندري من

سينجح بعده». توقف مارتن عن الاسترسال فيما جال بخاطره بأن قيادات العالم العربي والإسلامي معروفة دوماً ومتوارثة أباً عن جد.

«الأفضل والأقوى يطغى على نقيضه. هكذا نجحت الغزوات الإسلامية في قرن الدعوة الأول، وهزمت بقايا إمبراطوريات سادت وظنّت أنها لا تُقهر. مشكلة أميركا أنها قوية ولكنها غير أخلاقية، سياستها متضاربة ومتقلبة وظالمة. لو عدلت، لاستطاعت بهذه القوة عجن وخبز العالم كما تريد، لكنها متجبّرة تعرف كيف تدمّر فقط. كل فتوحاتنا الإسلامية حوّلت البلدان من السيىء إلى الأفضل، لكن كل تدخلات أميركا وغزواتها فعلت العكس».

«صدق طارق، هو كما تعرفون صاحب تجربة في فتح الأندلس وإنهاء الدولة القوطية، وله أيادٍ بيضاء في نشر التآخي والتأسيس للعدالة». قال جمال وأضاف: كل القوى التي توارثت بلدان الإمبراطورية الإسلامية سعت للهدم والدمار وكأنها في حملة انتقام لا نهاية لها. لو لم يكن ذلك عملاً مخططاً له لقلنا إنه فقط سوء استغلال لعناصر القوة المجرّدة من الأخلاق، ولكننا نعرف الآن الحقائق كاملة».

أثناء تواصل الحديث في القفز بين شؤون يوم القيامة وتحليل الوضع الأميركي واحتمالات إقناع القادر بردع رباني، كان المنصور سارحاً في مراجعة التطورات بعد نهاية عهده وما تبعه من سقوط الأندلس، حتى الوقت الحاضر. تنبّه أحياناً للمتحدثين وراودته أفكار جانبية من قبيل أن سقوط البرجين كان انتقاماً بشرياً، وربما كانت العواصف السنوية المدمرة انتقاماً ربانياً، ولكنها لم تردع القيادة الأميركية. احتفظ بأفكاره هذه لنفسه ولم يقحمها في النقاش، إذ كانت شؤون أخرى تدور في ذهنه. لماذا، وبالرغم من كل هذا التطور الباهر في العلوم والصناعة، ما زال خراب الأرض

أكثر من عمرانها؟ سأل نفسه وهو يتذكّر أن الأندلس الإسلامية لم تُخف علومها وخبراتها عن الآخرين. لاحظ أن الكفار يستولون على معظم مساحة الأرض، وأن مناطقهم أصبحت الأغنى. تنبّه إلى أن المسؤولين في الدول العربية مشغولون بالذات والتملص من المسؤولية، ويتسلّطون على الناس ولا يصدّهم واعظ بموعظة، بل الجميع يكيلون لهم المديح ويعظمون غرورهم. تأسف حين تذكّر أنه كان يفعل الأشياء ذاتها وأحياناً أفدح منها. قال في ذهنه بأن وضع أندلسه السياسي كان الأفضل عالمياً آنذاك، لكن البلدان الشبيهة به الآن، هي التي لم تتطوّر منذ ألف عام، وهم في مؤخرة الدول. ارتاح باله قليلاً لمشاهدة شعوب إسلامية غير عربية في حال حسن، لكن أحزنه أن الجهل والأمية واسعا الانتشار بين المسلمين، وهما يكادان أن يشملا كل أهل القرى والأرياف. هكذا اقتنع بأن حال الأمة لن يتحسّن في القريب. تعجّب من انتشار الغش والربا بهذا الحجم في كل المجتمعات الإسلامية وكأن أحدهم لا يبالي من أين تُحصل له المعيشة في الدنيا. التهرب من أداء الزكاة أصبح الرياضة المفضّلة للأغنياء، والقلّة التي تصلّي لا تطبّق أدنى قواعد العمل والاسترشاد بالنية الحسنة. العلماء يسعون للمناصب ومراضاة الحاكم، وطلبة العلم والمتعلمون همهم الأول هو الحصول على دخل وليس البحث عن عمل نافع. أصحاب الفتاوى الجاهلة لا يُحصون، والأكثر منهم عدداً أئمة يخطبون في الناس حقداً وجهلاً، بينما أكثرية المتزهّدين دجّالون. ضحك المنصور وهو يتأمّل جهالة النساء في كل مكان. في دول الكفار لديهن كل الحريات ويقبلن بالاضطهاد وتقييد دورهن وكأن الأمر فطرة إلّهية، وفي بلاد المسلمين وضعهن كالعدم في السياسة والمجتمع. قال لنفسه، إنهن في كل المعمورة يتحمّلن مسؤولية ما

تؤول إليه أوضاعهن وأوضاع الذكور، فهن المربيات للجنسين، ولو أحسن عملهن لغيّرن وجه الأرض. طافت في مخيلته مقارنات بين الدور السياسي للنساء في بلاد الكفار وفي بلاد المسلمين، لم يجد فوارق حاسمة إلّا في المظاهر، وتبسّم حين تذكّر رفض نساء الكويت انتخاب حتى أنثى واحدة لتعمل بين رجال المجلس الأول الذي أتيح لهن فرصة المشاركة فيه ترشحاً وتصويتاً، بينما لا يوجد في أي مجلس منتخب للكفار نسبة نساء تفوق عشرة بالمئة.

«سليمان يسألك عما يشغلك عنا». قال طارق للمنصور وقد وضع يده على كتفه ليخرجه من السرحان وشرود الذهن.

«تفكّرت في أحوال العباد والسلاطين، فزاد غمّي من حالة العجز السائد. أعتقد أن منحة اللّه سكان الجنّة برؤية الماضي والحاضر تمثّل شيئاً من أنواع العقاب، وليست ثواباً لهم».

«توكّل على الرحمن، فإنه لا يُخلي الأرض من قائم له بالحجة ممن يجمعون بين العلم والعمل، ويعرفون حقوق ربهم ويخافونه».

«هذه صفات الأنبياء يا عز الدين، ورسولنا كان آخرهم» أجاب المنصور.

«اسمعوني، لا أريد التدخل في شؤونكم، ولاأدري لماذا أنا هنا في الأصل، ولكني شاكر لهذه الإجازة من النار». وجّهوا أنظارهم إلى رونالد الذي كان هو الآخر بعيداً بفكره عنهم. «راقبت اليوم بوش والقادة الذين اجتمع معهم في بطرسبرج، سمعته يأمر بلير بالحضور إليه على مائدة الطعام ويكيل الشتائم لحزب اللّه. هذا قد يعني أن زعيم الحزب رجل صالح». تململ الحضور من ملاحظة رونالد وفتحه هذا الباب الذي كانوا يتبصبصون عبره منذ أسبوع أثناء متابعتهم لمجريات الوضع في لبنان وتدمير عماراته وتشريد

أهله من قبل إسرائيل، والمواقف الدولية والعربية التي صدرت، أو بالأحرى التي لم تصدر.

«الأعمال بعواقبها» قال عز الدين.

«لبنان يدفع الثمن مجدداً، ربنا يستر. لا أدري لماذا سكت مقاومونا في فلسطين في هذه اللحظات» قال كمال والاستغراب يملأ وجهه.

«هذه الأزمة لن تمرّ على خير مهما كانت نتيجتها. إذا هزم حزب اللّه إسرائيل وحرّر بعض أو كل الأسرى، فهذه مقدّمة لفتن قادمة. وإذا انتصرت إسرائيل فذلك يمهّد لحرب قادمة وتوسع جديد، أو على الأقل تدمير بلد عربي آخر». تنهّد خالد ومسح وجهه بكفيه واستغفر ربه ثم أضاف بصوت منخفض «ليت عبيد اللّه لم يتسرّعوا ويشجبوا حزب اللّه وحماس على خطف الجنود بهذا الشكل. هذا الموقف شجّع على سكوت العالم عن نصرة المظلومين، ودفع إسرائيل إلى التمادي، وأحدث شرخاً بين الدول العربية وبين الحكام والمحكومين».

«نظرة تشاؤمية. لم أفهم قصدك بأن هزيمة إسرائيل في هذه المعركة ستؤدي إلى فتن قادمة؟» تداخلت الأصوات في الرد على سؤال مارتن لخالد، لكنهم أنصتوا إلى جمال.

«ارتفعت النبرة منذ احتلال أميركا للعراق بأن إيران تريد الهيمنة على جارها بدعم من الأغلبية الشيعية هناك. وتردّد بين الناس أن الولايات المتحدة كانت تعرف بهذا الاحتمال ومهّدت طريق السيطرة لطهران الشيعية على بغداد السنّية، وكانت حكومة طهران قد استفادت من تشتيت أميركا لشمل الطالبان في أفغانستان. هذا بالطبع يرعب الحكام السنّة في الجوار الخليجي لكون بعض

مواطنيهم شيعة. حتى الأردن أعلن مخاوف رسمية بعد غزو العراق، إذ توقّع إقامة هلال شيعي يمتدّ من إيران عبر العراق وسوريا ولبنان. الآن بعد انتصار حماس الانتخابي في فلسطين، يظن أصحاب هذه الرؤية أن الهلال، المدعم من إيران، والمحيط بالأردن ومصر وإسرائيل ودول الخليج قد توسّع. وربما تسيطر حماس في القريب على السلطة الفلسطينية وتعزل بقية القوى».

«الآن فهمت، انتصار حزب اللّه الشيعي يفتح المجال ويشجّع الشيعة على الثورة في دول الخليج». قال مارتن وصمت. تجمّعت في ذهن كمال مخاوف من أن يؤدي انتصار إسرائيل الآن في لبنان إلى انهزام تلقائي للمقاومة الفلسطينية في الضفة والقطاع لأنها تتخذ من تكتيكات حزب اللّه مثالاً تحتذي به. لم يتلفّظ بما جال بخاطره فالمعركة في بدايتها، وأعطى سمعه لسليمان.

«هذا الاحتمال يذكّرني بعهدي، فقد كانت التحالفات بين ممالك الجيران من كل الملل تتغيّر بشكل دائم والمشاكل لا تحلّ بدون حروب. أرى أن الفتنة الأولى في كلتا الحالتين ستكون في لبنان». قال سليمان بعد أن امتلك اهتمام الآخرين بهذا التشبيه من قبل ثلاثة آلاف عام. «إذا نجح حزب اللّه سيسعى للسيطرة على لبنان وسيواجه تصدّياً لبنانياً مدعماً من أميركا وإسرائيل. وإذا هُزم سينقضّون عليه وسيلاقي بدوره دعماً من سوريا وحماس ومن إيران».

«في عهد الخليفتين قبلي في الأندلس، خضنا حرباً ضد الدولة الفاطمية الشيعية في المغرب، حتى رحلناهم إلى مصر. أسّسوا هناك دولتهم بعيداً عن الأندلس. بالطبع لم نتخلّص من المشاكل مع المغرب، والأهم أن دول وممالك النصارى الشمالية انتهزت الفرصة وباشرت الزحف على الأندلس. بعد موتي حدثت فتنة بين

البربر والأندلسيين في قرطبة، واستعان كل فريق بمملكة نصرانية ضد الفريق الآخر في مقابل تنازلات عن الأرض والحصون. فأسرع الانهيار إليهم، وما أراه الآن لا يختلف عن الوضع الذي قاد فيه أولادي الأندلس، ولن أخبركم بما أتوقعه من مستقبل وتحالفات متضاربة، حتى لا تقولوا المنصور سيد المتشائمين». التقت عيناه عيني طارق، انتزع شبه بسمة وسأله «منذ درست تاريخ الأندلس وأنا أبحث دون جدوى عما حلّ بك بعد أن استدعاك الخليفة أنت وموسى إلى دمشق».

«وصلنا بنصيب الخليفة من الغنائم فوجدناه مريضاً. حتى قبل الوصول جاءنا من دمشق إلى طبرية من يتوعّدنا إذا لم نبطىء المسير حتى يموت الخليفة ويتولى أخوه سليمان مكانه. في اليوم التالي على موت الخليفة وجّه الاتهام إلى موسى بالتقصير وبنهب الغنيمة، وفي تلك الليلة حملتني قدماي خارج دمشق حتى استقررت في الفسطاط».

«لماذا لم تعد إلى طنجة أو الأندلس حيث سيطيعك الجند هناك؟» سأل كمال طارقاً.

«لأن الجند يطيعون الخليفة، ولم يساورني شك بأنه أرسل أوامره لقتلي وقتل أولاد موسى في إشبيلية وطنجة والقيروان. لأني لم أعد لأهلي فقد عشت متخفياً أطول مما عاش موسى الذي مات غماً بعد أن أحضروا له رؤوس أولاده في قفة».

«تشعّب حديثنا عن لبنان والأندلس وخرجنا عن صلب المهمة. . .».

«أبداً واللّه» أجاب عز الدين مقاطعاً تنبيه مارتن وأكمل قائلاً: «ما نتحدث فيه يتصل مباشرة بأشراط يوم القيامة، بل ربما نحن نشاهد بداياتها. هذه الحرب إن توقفت بهدنة فلن تعيق حرباً قادمة

طالما أن القضية الفلسطينية لم تُحل. ويبدو أنها لن تُحل نظراً لإصرار اليهود على أخذ كل شيء، وإن كان بالتدريج. كل عقد احتلال فهضم فحرب فتوسع فهضم وهكذا في مسلسل لا بدّ له أن يؤدِّي إلى يوم القيامة ولعقابهم في الجحيم، هم وأنصارهم الأميركان، والإنجليز طبعاً، الذين عادوا يلعبون بذيلهم مجدداً في العراق ولبنان، بعد أن كانوا سلّموا فلسطين الانتداب للصهاينة. هذا البلير عار على كل إنجليزي». لم يكن في نيّة عز الدين إعلان غضبه على الإنجليز الذين قتلوه في أحراش يعبد عام 1935 ولكن صفاقة موقف حكومة جلالتها تجاه التدمير الإسرائيلي في لبنان تسبّب في إشهار عواطفه. كان رأيه على الدوام منذ الصبا أن الكفار أمة واحدة يجب محاربتهم وإخراجهم من بلاد المسلمين، ولهذا قاوم في مسقط رأسه الاستعمار الفرنسي حتى حكموا عليه بالإعدام فهرب من سورية إلى حيفا لمحاربة الشريك البريطاني في حلف سايكس بيكو الذي قسّم البلاد العربية بين فرنسا وبريطانيا.

«على ذكر الشيخ كلمة مسلسل، ما رأيكم لو جمعت بعض أوصاف يوم القيامة وأخرجتها في مسلسل مسموع. هل يفيدكم ذلك في تقريب المواقف حول موعد اليوم الموعود». لم يسمع إجابة فورية مشجّعة، لكن الجميع أوحوا بشيء من القبول، فصاحب الفكرة رجل متديّن، ورئيس سابق كان بوسعه إشعال حرب عالمية تدميرية، كما أنه ممثّل ولديه تجربة في عالم السينما، وبالطبع لديه تجربة عدة سنوات في جهنّم.

«السكوت علامة الرضا يا رونالد، أظن أنها فكرة حسنة». أيّده كمال وأكمل كمن يحادث نفسه «كل هوليود لن تخرج فيلم أهوال ورعب أفضل مما تصوّره كاميرات الأخبار في لبنان وغزة الآن. لقد أقامت إسرائيل وواشنطن قيامتهم بالفعل. لهم الرحمن الرحيم.

مسرح القيامة

توصل رونالد لاستنتاج أن أغلبية الذين يتمنون قرب يوم القيامة هم المتشوّقون لضمان موقعهم في الجنّة، والمتطلّعون لرؤية وجه اللّه وزيارة العزيز الحميد لهم قبيل دخول الجنّة. هكذا بدأ رونالد تمثيل روايته من تلك النقطة: «يا أهل الجنّة، إن ربكم تبارك وتعالى يستزيركم فحيى على زيارته» قال المنادي.

«سمعاً وطاعة» جاء جوابهم ونهضوا إلى الزيارة مبادرين. فإذا بالنجائب قد أُعدَّت لهم، فيستوون على ظهورها مسرعين، حتى إذا ما انتهوا إلى الوادي الأفيح الذي جُعل لهم موعداً. تجمّعوا هناك، وأمر الرب سبحانه وتعالى بكرسي فنصب فوقهم، ثم نصبت لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، وجلس أقلّهم شأناً على كثبان المسك بحيث لا يحجب أصحاب الكراسي والمنابر عن نظرهم الكرسي الإلّهي. بعد أن استقرّت بهم مجالسهم، واطمأنت بهم أماكنهم، نادى المنادي: «يا أهل الجنّة سلام عليم».

«اللهمَّ أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام» يأتي ردهم. فيتجلّى لهم الرب تبارك وتعالى، يضحك لهم ويقول:

«يا أهل الجنّة أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب ولم يروني، فهذا يوم المزيد».

«إن قد رضينا، فارض عنا» قالوا بصوت واحد مطأطئي الرؤوس.

«يا أهل الجنّة، إني لو لم أرض عنكم لما أسكنتكم جنّتي، هذا يوم المزيد، فسلوني».

«أرنا وجهك ننظر إليه» جاء جوابهم الموحّد.

فيكشف الرب جلّ جلاله الحجب، ويتجلّى لهم فيغشاهم من نوره ما لولا أن اللّه سبحانه وتعالى قضى ألّا يحترقوا لاحترقوا. ثم يبدأ الرب في عمل لا يمكن لسواه عمله، إذ لا يبقى أحد من سكان الجنّة إلا حاضره ربه تعالى محاضرة خاصة، مثل أن يقول: يا فلان، أتذكر يوم فعلت كذا وكذا، يذكّره ببعض غدراته في الدنيا، فيرد بحيث لا يسمعه إلّا اللّه: «يا رب ألم تغفر لي؟».

«بلى بمغفرتي بلغت منزلتك هذه».

قرأ رونالد على المستمعين آيات من سورة الحاقة ليضعهم في أجواء يوم القيامة: «فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة، وحُملت الأرض والجبال فدكّتا دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة، وانشقّت السماء فهي يومئذ واهية، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية». كانوا بالعشرات، وجلسوا على وسائد مكسوّة بالحرير يتابعون رونالد ويتقبّلون خدمات الغلمان بما لذّ وطاب من الطعام والشراب الذي يشتهيه كل منهم، فيصلهم من دون أن يطلبوه. بعضهم أُحضروا من جهنّم، وغيرهم حُمل من القبور إلى الفردوس ليشاركوا مع أهل جنّة المسلمين والنصارى واليهود في مؤتمر حول موعد القيامة.

هذه النعمة الأغلى على النفوس، رؤية وجه اللّه، لم تتحقّق بعد لسكان الجنّة العليا الحاليين، بل إنهم لم يشاهدوا أياً من الأنبياء والرسل لكونهم في وضع موقّت، ولا يُعرف إذا كان الفائزون

بالجنّة سيبقون هنا أم يُرسلون إلى الجنّة الأرضية. لن تحسم الأمور ويفوزوا نهائياً بأمانيهم إلّا بعد يوم القيامة والحساب.

انتقل رونالد إلى الحديث عن جسر جهنّم، أو الصراط المستقيم، وكأنه يريد بالمستمعين العودة تدريجاً في هبوط سلم الأهوال بعد أن مثّل لهم قمة أماني أهل الجنّة بعد الحساب مباشرة. كان من الواضح حسب شروحاته السابقة أنه جمع معلوماته من أصحاب المعرفة الموجودين في الجنّة الآن، وقد شوهد رونالد يجالس الخميني طويلاً، فالأول أُرسل إلى جهنّم، والثاني إلى الجنّة قبل يوم الحساب. قال رونالد: «بينما ملايين البشر يموجون ويتراكضون عراة كالقطيع الهائج، لا يلتفت أي منهم إلى قريب أو بعيد، فإذا بالنار يؤتى بها مقودة بسبعين ألف زمام وأخذ بكل زمام سبعون ألف ملك وهي تمايل عليهم حتى تُوقف عن يمين العرش ذليلة».

«ما هذا الذل الذي أنت فيه؟».

«يا رب أخاف أن يكون لك نقمة».

«إنما خلقتك نقمة وليس لي فيك نقمة». ثم يوحي اللّه إليها فتزفر زفرة لا تبقي دمعة في عين إلّا جرت من الرعب، ثم تزفر أخرى فلا يبقى ملك مقرّب ولا نبي مرسل إلّا صعق، ما عدا نبيّكم، نبي الرحمة، صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، إذ وجد الشجاعة ليستعطف: «يا رب أمتي أمتي».

كان وجه الخميني منشرحاً وهو يتابع رونالد يروي ما سمعه منه ومن غيره، ويمثل بكل حواسه مستغلاً أعضاء جسمه. كانت العلاقة بين الاثنين متينة على الأرض من دون أن يلتقيا، فقد هزم رونالد خصمه الرئاسي كارتر بفضل هزيمة الخميني لكارتر بعد الثورة الإسلامية في إيران. رونالد حكم بعد ذلك لدورتين رئاسيتين في

فترة هيمنة الخميني على السياسة الإيرانية، ومات الإمام في العام نفسه الذي انتهت فيه رئاسة رونالد. رغم العداء المعلن بين البلدين آنذاك، توصل الاثنان لاتفاقيات سرّية ترسل بموجبها إسرائيل، ثم أميركا أسلحة لإيران، بينما تُستغل النقود، ثمن تلك الأسلحة، في تمويل المرتزقة الكونترا الذين يقاتلون ضد الأنظمة الاشتراكية في بلدان أميركا اللاتينية.

«فجأة، خرج عنق من النار فأشرق على الخلائق، له عينان تبصران ولسان فصيح، يقول: إني وكلت بكل جبار عنيد، فتلقطهم من الصفوف وتحبسهم في نار جهنّم». تعوّذ الحضور باللّه من النار وهم يستمعون إلى رونالد الذي واصل: «ثم يخرج العنق ثانيةً فيقول، إني وكلت بمن آذى اللّه ورسوله فتلقطهم أيضاً من الصفوف وتحبسهم في نار جهنّم. ثم يخرج ثالثة فيزيد الرعب بين المنتظرين للحساب إذ لا يعرفون أي فئة ستلقط الآن. كل ذلك قبل الحساب، الذي لا يطول عندما يبدأ لكونه يتم مباشرة بين العالم العليم وبين كل واحد من بني آدم في الوقت ذاته. ولا يخبر اللّه المعنيين فوراً بنتيجة الحساب أو حجم العقاب، ولكنه يعدِّد له سيئاته ويتركه في حالة رهبة وانتظار».

واصل رونالد التمثيل أمام القوم: ثم يضرب الجسر فوق جهنّم وفيه خطاطيف وكلاليب يحملها ملائكة غلاظ. هنا يبدأ المسلمون في تمنِّي الشفاعة ويتطلّعون إلى نبيّهم الذي يردِّد بشكل دائم «اللهمَّ سلّم سلّم». يمرّ المؤمن على الجسر كطرف العين، وبعضهم كالبرق، وغيرهم كالريح أو كالطير، وكأجاويد الخيل. السرعة في العبور حسب الإيمان وما جاء في كتاب كل واحد، فمنهم ناج سالم، ومخدوش مكردس على وجهه في النار. أول من يجتاز الجسر هم الرسل وأمة محمد يتقدّمهم فقراء المهاجرين. لكن

المرور بسرعات مختلفة، إذ هناك مَن لا يستطيع السير إلّا زحفاً فوق الصراط، نورهم على إبهام قدمهم، تخرّ يد وتتعلق يد، وتخرّ رجل وتعلق رجل، فتصيب جوانبه النار المستعرة تحت الجسر وخطوط الصراط، وتخدشه الكلاليب وهو يزحف بين ظهراني جهنّم. عند الصراط لا يذكر أحد أحداً، وكذلك الأمر قبل الصراط عند الميزان، حتى يعرف أيخفّ ميزانه أم يثقل، وعند حمل الكتب حتى يعلم الإنسان أيقع كتابه في يمينه أو أوتي كتابه بشماله. في هذه المواقف الثلاثة لا يعرف الأب ابنه والابن أباه. والذين عرفوا مصيرهم من الميزان والكتاب لا يتأكّدون من سرعة الاجتياز، وبالطبع الذين أيقنوا الهلاك يظن بعضهم بفرصة لاجتياز الصراط الأشبه بشفرة السيف المنصوب فوق جمر، ولكنهم إذا بلغوا وسطه خرّوا وهووا وتقذفهم الزبانية بخطاف في النواصي والأقدام. قرأ رونالد على الحضور قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾. يحبس اللّه من يشاء من عباده الزالين والزالات وهم كثير، بينما الملائكة بجانبه قيام ينادون مثل النبي، اللهمَّ سلّم سلّم.

تلا رونالد من سورة النور: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾. بعد تسلم النور تودّد الكفّار والمنافقون للمؤمنين وقالوا أنظرونا نقتبس من نوركم لنهتدي في الظلمات. لكن اللّه عرف بخداعهم وخدعهم بالقول لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً من مكان توزيع الأنوار. وبالطبع أراد اللّه إعفاء المؤمن من العطف على الكفّار والمنافقين الذين وجدوا في نهاية المطاف جهنم وبئس المصير، ولم يُستجب لطلبهم بإتمام نورهم والعفو عنهم.

اليهود والنصارى، الذين اجتازوا الصراط ولم تخطفهم الكلاليب عن الجسر، كانوا يتوجّهون تباعاً إلى جنانهم الموعودة ليهيموا كأرواح خالدة لا مطلب لها أكثر من الاقتراب من الرب. لكن أهل الجنّة المسلمين أخذوا يناشدون اللّه بأشدّ المناشدات للرحمة بإخوانهم الذين سقطوا في النار. «يا رب، إنهم كانوا يصومون معنا ويصلّون ويحجّون ويزكّون ويغزون، ولا نراهم الآن».

«أخرجوا من عرفتم من النار». جاءتهم استجابة اللّه، فأخرجوا خلقاً كثيراً، بعضهم وصلت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه أو إلى إزرته، ومنهم من وصلت إلى ثديه أو إلى عنقه. طرحوهم في ماء الحياة فنبتوا فيها.

«يا رب أخرجناهم وغسلناهم وما بقي فيها أحد مما نعرف».

«ارجعوا إليها فمن وجدتم في قلبه نصف مثقال دينار من خير فأخرجوه». استجابوا لربهم وأخرجوا مرة أخرى الكثير من الخلق الذين لم تغش النار وجوههم.

«ارجعوا للنار مجدداً ومن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه». تذكّر المجتمعون المنصتون إلى رواية رونالد قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

حتى الذين لم يفعلوا خيراً قط في حياتهم ولم يشفع لهم أحد من إخوانهم المسلمين، ولكنهم كانوا ممن قال لا إلّه إلّا اللّه، ينتشلهم الرحمن إذ يقبض قبضة من النار فيخرج بها أولئك وقد غشيت النار كل جسدهم، فيلقيهم في نهر يخرج من الجنّة ليبرأوا. وهنا بالذات يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين. والذين لم تمسّ النار أجسادهم كانوا في البداية واحداً من ألف من المجتمعين للحساب، ومع نهاية الشفاعات ربما تعادلت النسبة، ومع مرور

الزمن لن يبقى في النار إلّا أهلها الذين هم فيها خالدون. قبيل بدء الحساب وعندما طالب اللَّه أبانا آدم أن يخرج بعث النار من ذريته، سأل آدم مَن يكون هذا البعث، فقيل له على الملأ إنهم من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون. في تلك اللحظات أصبح الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب اللَّه شديد. تملّكهم الخوف ولم يعد أي منهم على ثقة بالنجاة.

انشرح وجه رونالد وهو يذكر المستمعين بأن المنافقين مأواهم الدرك الأسفل في الجحيم، ومن كفر بالرسل من الأحزاب فالنار موعده. قال إن المسلمين سينقسمون على الأرض لأكثر من سبعين فرقة، واحدة منها فقط لن يمسّها النار، والبقية سيتلقون عذاباً قبل أن يُشفع لهم، فهم ممن «صدق عيهم إبليس ظنه فاتبعوه، إلّا فريقاً من المؤمنين». وهل تعرفون من هم أكثر أهل النار قبل الشفاعة؟ سأل رونالد وتلقّى عدة إجابات من المستمعين المستمتعين بالشراب والطعام في جلسة فردوسية، ثم أجاب: إنهن النساء لأنهن يُكثرن اللعن وناقصات عقل ودين يذهبن بلب الرجل الحازم. لكنهن لاحقاً يصبحون أكثر أهل جنّة المسلمين لأن كل اثنتين منهن نصيب لرجل واحد.

«لو سمعتك نانسي تتّهمها بنقص العقل وتتوعّدها بضرّة لطالبت الرحمن أن يبقيك في النار». لم يتعرّف رونالد على صاحب التعليق، لكنه وجه حديثه نحو مصدر الصوت وذكّر المجتمعين الذين انتابهم الضحك، إن جنّته، عندما يعفو الرب عنه، لا يوجد بها نكاح ولا زواج مفرد أو مثنى، ولا حور عين.

«أي زلزال من النوع الثقيل، أو بركان، أو حتى سينامي، بل الحروب الحديثة والقصف الجوي، ترعب الناس. الفارق أنهم في كوارث الأرض ومن جرّاء الحروب قد يموتون أو يتشرّدون لفترة

طويلة، بينما يوم القيامة قصير مهما طال، وعواقبه على الصالحين والمسلمين خير وبركة». قال كمال منوِّهاً بأن رواية رونالد لم تكن مرعبة بما فيه الكفاية لأحداث ما يعرف بيوم الفزع الأكبر، ويوم البعث والنشور يوم الواقعة، الحاقة، الحسرة، يوم الحشر، اليوم الآخر، يوم لقاء اللّه، النبأ العظيم...

«يبدو أن العقاب الأبدي سيكون من نصيب غير المسلمين. المسلم سيعاقب حسب سيئاته، لكنه في النهاية سيُلقى به في نهر الحياة ويُرسل إلى إحدى طبقات الجنّة السفلى». كان مارتن قد اعتدل في جلسته وأزاح طبق التين جانباً أثناء حديثه. «لكن ماذا عن غير المسلمين، أو بالأحرى عمّن لم يتعرّفوا على كل الوعود والتهديد أثناء حياتهم على الأرض، هل سيبقون للأبد في الجحيم؟».

«وما هو مصيرنا نحن الأمم من قبل الإسلام؟» سأل رابين.

«بل ماذا عن الخلق قبل المسيحية واليهودية؟» سألت عثترت.

قبل أن يتواصل الهرج والمرج تدخّل جبرائيل ببعض الإجابات التي أكدت أن الرسالة الربانية ولدت مع آدم وتكرّر تنبيه الرسل من بعده لبني البشر. «الفارق بين ما قبل وما بعد الإسلام هو نوع الجنّة التي وعد بها اللّه عباده الصالحين في كل مرحلة، لكن جهنّم كانت منذ اليوم الأول مشتركة الأوصاف في انتظار المفسدين الفاسدين المتجبّرين الظالمين وذلك منذ خُلق أبوكم آدم حتى يوم تبعثون. أما من سيبقى في النار وإلى متى فهذا علمه عند الجبار الرحمن الرحيم. يمكنكم توقُّع أن يكون العقاب حسب الأعمال، وأبغض الأعمال إلى اللّه هو الشرك به، ثم قطيعة الرحم، فقد نقل في الحديث الشريف عن اللّه تعالى شأنه: أنا الرحمن، وهذه الرحم شققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها

قطعته. التالي في البغض هو الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف. كل إنسان يعرف الصالح من الطالح، الخطأ من الصواب، وهكذا سيكون كل واحد خصم نفسه وحسيبها. يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يعملون».

«يوم تبلى السرائر وينكشف ما كان مخبأ في الضمائر، ويلتقي الظالم والمظلوم، والحاكم والمحكوم، وعند اللّه تجتمع الخصوم. فهو يوم التناد، يوم يقوم الأشهاد، يوم تولون مدبرين ما لكم من اللّه من عاصم، يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة. فالشمس كوّرت والنجوم انكدرت والجبال سيّرت والعشار عطّلت والوحوش حشرت والبحار سُجّرت والنفوس زوجت والصحف نشرت والسماء كشطت والأطفال سئلت بأي ذنب قتلت». نظر ياسين قبل أن ينهي مداخلته إلى رابين وكرّر «وإذا الأطفال سئلت بأي ذنب من الطائرات قصفت وتحت الردم دفنت».

«هل كان هناك سبيل يعرفه الناس للتخفيف من أهوال القيامة، خصوصاً الناس غير الواثقين بإيمانهم ونجاتهم من جهنم؟» وجّه سليمان سؤاله إلى جبرائيل، لكن ياسين أسرع بتقديم إجابة مذكّراً فيها أن الرسول الكريم محمد قد نُقل عنه أن عشراً تمنع عشرة. تلاوة سورة الفاتحة تمنع غضب اللّه، وسورة يس تمنع عطش يوم القيامة، وسورة الواقعة تمنع الفقر، وسورة الدخان تمنع أهوال يوم القيامة، بينما سورة الملك تمنع عذاب القبر، والكوثر تمنع الخصومة، والكافرين تمنع الكفر عند الموت، والإخلاص تمنع النفاق، والفلق تمنع الحسد، وسورة الناس تمنع الوسواس.

«هذا كلام في موقعه الصحيح، وبالطبع انتبهتم لعدم وجود سورة تحمي المذنبين من دخول النار». نزل الصوت غريباً وجديداً على مسامعهم، وطالعوا في وجه صاحبه جلاء وصرامة. «أنا إسرافيل،

المكلّف بجهنّم، أمرني الواحد القهار بالمرور على مؤتمركم لأستفيد وأفيد أيضاً». خففت نهاية جملته من الرعب الذي حلّ بهم عند سماع أولها.

«هل تتوقّع اكتظاظاً شديداً في جهنّم يوم القيامة؟» تشجّع سليمان بطرح هذا السؤال العام بينما كان مثل الآخرين يقارن بين سحنتي جبرائيل وإسرافيل اللذين تجاورا. تشابها في التقاطيع وكأنهما توأمان، ولكن الخلاف كان بينهما على أشدّه في المحيا والتعابير.

«نستعدّ لاستقبال أعداد ضخمة بالفعل. اعرفوا أن كل من نال في الدنيا صعوداً سينال في الآخرة هبوطاً ونقصاً في الدرجات. تذكّروا قوله عزّ وجلّ في سورة الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾.

«هذا يخص الأغنياء والحكام، لكن الفقراء أكثر عدداً من الأغنياء، فمن أين تتوقّع أن يكون المزدحمون؟» بالكاد منع رونالد نفسه من إضافة ما عرفه أثناء التحضير لتمثيليته، وهو تفضيل القرآن للمال قبل البنين وجعلهما زينة الحياة الدنيا، وهذا يفترض أن يناقض مقولة أن من صعد في الدنيا سيهبط في الآخرة.

«عندما تعود إلينا ستجد أنها زادت ازدحاماً». لم يضحك أحد من محاولة إسرافيل السخرية مع رونالد الذي دخل قلوبهم في فترة إقامته القصيرة للآن بينهم، فعاد لحديثه. «كل مسلم يهجر أخاه ثلاثاً ولا يسعى للصلح سيكون في ضيافتنا ولو إلى حين، ولك تصور أن هذا قد يشكّل نسبة طاغية من المسلمين الذين يفرحون إبليس بعملهم هذا. من يقطع صلة الرحم يكون في موقع بغضاء بين المشرك وبين الآمر بالمنكر الناهي عن المعروف. والذين لا يسترون العيوب ولا يحفظون أسرار المسلمين الصغيرة والكبيرة

سيكونون من زوّارنا أيضاً وسيُفضحون كما فضحوا، حتى الحديث بين المؤمنين أمانة سيعاقب كاشفها». خطر للبعض تذكير إسرافيل بالشفاعة، ولكنهم واصلوا الإنصات أمام تعداده لأنواع زبانية جهنّم. «من قصر في حق جاره فهو آثم حتى لو كان جاره من الكفّار، فلا إيمان لمن لم يأمن جاره بوائقه. بالطبع من لم يبرّ بالوالدين لن نبرّ به، حتى الشهيد الذي ذهب للجهاد وأمه معارضة فلن يسامح على مخالفته لها».

على الأرجح أن إسرافيل أصاب كلاً منهم في نقطة ضعف، فلم توجّه إليه أي أسئلة أخرى حتى لا توسّع إجاباته الشك في قلوبهم. فضّلوا تكتيك النعامة، وارتعشت قلوب الذين يحبّذون اقتراب يوم القيامة. غادرهم بشبه ابتسامة وهو يتمتم بأنه استفاد كثيراً من رؤيتهم والاطلاع على خواطرهم، وسمعوه يتمنّى أن يكونوا قد استفادوا أيضاً من زيارته العابرة لهم.

برقع وفياغرا

«لن ينصروا موقفنا مهما تواضعت مطالبنا. أي نوع من المساواة لن يدخل إلى رؤوس معظمهم. القلة شبه المتحرّرة منهم سيحتمون خلف مهام المؤتمر واقتصارها على يوم القيامة، وبقيتهم من أنصار تفسير نهي رسولنا الكريم للرجل عن المبيت وحيداً، بأنه تصريح بالنكاح مع غير الزوجات». تأفّفت بعض المجتمعات على نهر الخمر في الطبقة السابعة، ولكنهن لم يقاطعن حديث أم سلمة بنت يعقوب. «مشايخ يميلون إلى إيثار نكاح المستحسنات وتناول الأطعمة المشتهيات معتبرينها من نِعَم اللّه عليهم في الدنيا والآخرة، بل إن من واجبهم النكاح وإخراج الفضلات إلى الفروج قبل إعطاء حكم، لأن القاضي الغاضب والحاقن لا يحسن حكمه وعليه التروّي والترويح بالنكح قبل الفصل. تفلسفهم لا نهاية له في التبرير، وأقلّه إعطاء صفة العلم والخلق للنكاح، وهم بالطبع يعتبرون الطعن في رؤيتهم نقداً للأنبياء ولأهل الكمال الذين أكثروا من الزوجات الحرائر والسرايا. من ينقص من ذلك فهو ناقص في عقله، حسب عبقريتهم، ولذلك فنحن النساء ناقصات عقل ودين».

«قد لا ينصرون مطالبنا، وربما فشل مؤتمرهم أيضاً في الاتفاق على موقف من يوم القيامة، لكن الحقيقة أننا نجحنا للآن في إقامة لجنة للشؤون النسوية برئاسة أنثى متعاطفة معنا وبعضوية ياسر الذي لم يقصر للآن في نقل المطالب». كانت أمامة تتحدّث بهدوء وأنوثة

بينما وجهها يشعّ بالجمال والكمال. أنوثتهن وبهاؤهن وقدراتهن على إرضاء الزوج في كل لحظة، من الأسباب التي تحرّك انتفاضتهن ضد الحرية الجنسية المطلقة للرجال، إذ لا يستوعبن مطالب وتشوق الرجال لما بعد هذا الكمال. «قصتنا تنتشر بهدوء في الطبقات السبع، وها هي أم كلثوم تزورنا وتشرفنا قادمة من الفردوس للاستماع إلينا». التفتت جميعهن إلى الضيفة، وتذكّرن موقعها ومزاياها، لم يعرف معظمهن ماذا حملت لهن من مستجدات. تعمّدت أم كلثوم لباس ما يلبسن في السابعة حسب نصيحة نفيسة التي كلّفتها حمل الرسالة من ياسر والاستماع إلى نساء السابعة وتكوين رأي عما يردن.

أنصتن بعد سماع ذكرها ليتحن الفرصة لها بالحديث أو السؤال، معولات على ما يمكنها إنجازه. فهي من المقرّبات للّه والرسول إذ نزلت بصددها آيات خاصة، وهي زوجة أربعة من الصحابة، وأخت خليفة من المُبشّرين بالجنّة، وأبوها أحد أكبر المجرمين المُبشّرين بالنار، وهو عقبة بن أبي معيط الذي وضع الجيفة على ظهر الرسول وهو يصلّي، ثم عاد مرات لقتله أثناء الصلاة في الكعبة، وحاول خنقه بالدوس بقدمه على رقبة الرسول حتى جحظت عيناه وأنقذه أبو بكر. في موقعة بدر كان عقبة هذا من الأسرى الذين أمر الرسول بقتلهم.

«الاعتراض على منح وهبات اللّه لعباده الصالحين ليس الطريق الأفضل أمام مطالبكن مهما كانت. نِعَم اللّه ليست مفروضة بالإكراه على أي مؤمن. درجة الإيمان تنبع من مقدار التضحية التي بذلها المؤمن والمؤمنة أثناء الحياة على الأرض، ووعد اللّه لهم بالثواب ونعيم الجنّات إن صبروا وثابروا، ولا يجوز تفكيركن في نقده.

يمكن الدعاء للّه أن يهدي الرجال ويملأ قلوبهم بالقناعة. يمكن لكل واحدة أن تحاور زوجها في جدوى الإكثار والتكرار. النِّعم لهم ولنا لا حدود لها، ولكن المتعة الأعظم توجد في القناعة وفي الإكثار من التعبّد والشكر». بعضهن قرأ في كلامها تأييداً لآرائهن، وبعضهن اعتبر أنها تشير إلى أهمية قناعة الزوجة بالنِّعم المتاحة لديها والزيادة فيها عبر القناعة والتعبّد بدل التظلّم مما أتيح للأزواج وحرمن منه، وقلّة منهن صنّفنها في خانة الخانعات. أما أم سلمة فكانت تودّ سؤالها مع أي من الأزواج الأربعة هي الآن في الفردوس، لكنها لم تجرؤ على إطلاق لسانها بالسؤال خشية سوء الفهم والظن بالتهجم على أولى المهاجرات الإناث اللواتي التحقن بالرسول من دون أزواج أو إخوة، عندما كان الاتفاق بين الرسول وقريش أن يعيد إليهم من أتاه بغير إذن وليه، ولكن اللّه أنزل سورة الممتحنة لمنع إعادة أم كلثوم ومن يتبعها من المهاجرات، وهكذا استثنيت الإناث من هذا البند.

«أنا في الفردوس مع آخر أزواجي الذي توفيت عنده، عمر ابن العاص...» طأطأت أم سلمة رأسها وقد عرفت بقراءة خواطرها، «... ونعم زوجي اختار أن لا يقتني حور العين». كانت أم كلثوم قد بايعت الرسول قبل هجرته إلى المدينة، ومنعها أبوها وإخوتها من الهجرة وعذّبوها لسنوات حتى نجحت في الهروب. في المدينة وبعد دهر بلا زواج تقدّم لها أربعة، فسألت أخاها، من أمها، عثمان بن عفان أيهما تختار، فطلب منها استشارة الرسول الذي قال لها: تزوّجي زيد بن حارثة فإنه خير لك. استشهد زيد في سرية مؤتة بالشام بعد أن أنجبت له ولداً وبنتاً. لما انقضت عدتها تقدّم إليها ثاني الخطاب الأولين هو الزبير بن العوّام، فأنجبت له

بنتاً. شعرت بشدّته وتزمّته فطلبت الطلاق وطلقها. تزوّجها ثالثهم عبد الرحمن بن عوف وأنجبت منه ولدين حين توفي عام 18 هجرية فتزوّجها عمرو بن العاص وماتت عنده.

ارتفعت الأصوات متداخلة بعدة أسئلة: هل كل رجال الفردوس يكتفون بزوجاتهم؟ ألا توجد حور عندكن؟ هل يمكن للرجل اقتناء كل زوجاته الأرضيات في الفردوس؟ كانت أم كلثوم تهزّ رأسها وهي تتناول كأساً من الخمر قدّمه إليها أحد الغلمان، ولم يسهل على المجتمعات الحسم إن كانت إشاراتها تعني الإيجاب في الردّ على الأسئلة أم تحمل معاني أخرى. كما انفجرن في الأسئلة خمدت أصواتهن مجدداً وشُرعت رقابهن تجاه الضيفة في انتظار إجابات لما يشغل بالهن.

«غالبية رجال الفردوس مكتفون بالزوجات الأرضيات اللواتي وصلن لهذا المقام ثواباً على ما فعلن في حياتهن. العزّاب يختارون العازبات، سواء كانوا ممن لم يتزوّجوا على الأرض، أو من لم يوفّق شريكهم بالوصول للفردوس. من يريد زواج حورية فلا يوجد من يمنعه أو يعاتبه، ومن يريد اقتناء حور العين يمكنه ذلك، ولكنهم أقلية. لا يخفى على ساكن الفردوس أن إناثها الأرضيات أكثر من ذكورها، كما لا أخفي عليكن أن قلّة من الذكور والإناث يفضلون الحياة المنفصلة ولا يتزاوجون، وبالطبع أكثرية رجالنا لديهم أكثر من زوجة». نظرت إلى بكارة الهلالية وأضافت «حتى في الفردوس لا يمكننا تمنِّي التفرّد بزوج محدّد، لأن تمنِّي اثنتين لزوج واحد سيخلق مشكلة. الزوجة لزوجها مع زوجاته الأرضيات الأخريات وما شاء هو من حور العين، إن شاء». ارتاحت بكارة لكون أم كلثوم لم تعلّق على الأشياء الأخرى التي دارت في ذهنها مثل حق ساكنة الفردوس في عدة رجال.

«لذلك أنتم في الفردوس ونحن في السابعة، وهناك من هم في الأولى. الفارق في البشر وفي درجات الإيمان». قالت أم أناس وأضافت غير عابئة بنظرات العتاب من بعض جليساتها، «الصراحة خير علاج. المشاكل يمكن اختلاقها في كل مكان على الأرض أو في السماء. نساء الفردوس يمكنهن المطالبة بوحدانية الزوج كمظهر لاكتمال المساواة، ولكنهن يفضّلن الابتعاد عن المشاكل والتمتّع بنِعم اللّه الأخرى الكثيرة. نحن هنا أصبحنا على عجلة لفرض المساواة، وبدل أن نحسن ونصلح أنفسنا وأزواجنا نسعى لتشريعات تغيّر الوضع في الجنّة وعلى الأرض».

«الرسالة التي طلبت نفيسة إيصالها إليكن من ياسر تقول إنه اضطر لتغيير وثيقتكن وفُرض عليه عدم التدخل في شؤون الجنّة أو الخلط بين الجنّة والأرض. أزال كل شكواكن وطلباتكن فيما يخصّ الجنّة وقدم الشق الأرضي إلى عثترت كجزء من عمل اللجنة، وذلك تحت شعارات ثلاثة: أخرجوا العربيات والمسلمات من الأسر، والثاني يقول أوقفوا قتل الإناث في الهند والصين، والشعار الثالث هو نعم لمنع البغاء ولمساعدة ملايين النساء على حياة كريمة». شعرت أم كلثوم بصدمتهن، فكفّت عن الحديث لتمنحهن فرصة التعبير.

«لم أتوقّع من ياسر غير ذلك». بعد ثانية واصلت ليلى بنت المهلهل حديثها وابتسامة واهنة تعلو وجهها «لم نتدخل في رأي حول موعد يوم القيامة لإرضائهم واكتفينا بما يخصّنا. قطعوا كل مطالبنا في المساواة هنا، وسيقولون لاحقاً إن شؤون النساء على الأرض غير ذات علاقة بشأن المؤتمر...».

«لا أعتقد ذلك، فالأمر وصل إلى المؤتمر وتشكّلت لجنة، وربما دمجت وأضيفت قضايا قتل البنات وغيرها مما ورد في الوثيقة إلى

أعمال لجان أخرى يراد لها دراسة الواقع على الأرض. هذا إنجاز لا يستخفّ به، وجاركن ياسر لم يكن بيده تغيير شيء. ربما وجدتن في الجهاد من أجل بنات جنسنا على الأرض والترفع عن الوضع الذاتي ما يعزّز الإيمان». قالت أم كلثوم ذلك بعد استشعارها غضب بعضهن على ياسر وتوعدهن بالانتقام منه لنسف كل مطالبهن الذاتية.

«أظن أنني استوعبت رأيك في مطالبنا حول المساواة في الجنّة، فهل نطمع في معرفة رؤيتك لما تعانيه الإناث على الأرض؟» جاء التمنّي من أم عوف، التي كانت طوال الوقت تنصت باهتمام، لأم كلثوم.

«أشغل نفسي كثيراً بمتابعة الأحداث على الأرض، وبالطبع أؤيِّد معظم ما ورد في الوثيقة التي وصلت إلى اللجنة منكن، طالما أن الأمر سيبقى خياراً للنساء. لا أدري إذا كن يردن المساواة مع الرجال، أو إذا كانت مساواتهن مع رجالهن ستغيّر الحال. مثلاً في موضوع الحجاب نرى أن معظم المسلمات يرغبن في ارتدائه، تماماً كما ترغب بنات النصارى في الغرب بشبه التعرّي. بالطبع منع النساء من احتلال دور في الحياة هو أمر مستنكر وليس من صفات الإسلام ولا يناسب واقع الحياة الآن على الأرض. لكن لنأخذ الانتخابات الكويتية، إذ سُمح للنساء لأول مرة بالترشيح والانتخاب مثل الرجال ولكنهن لم يُنجحن أي أنثى من بنات جنسهن. في بلاد الغرب الشمالية، والأكثر تطبيقاً للمساواة بين الرجال والنساء منذ عقود حسب قوانين دنيوية، ما زلنا نرى أن أقل من سبعة بالمئة من المناصب القيادية السياسية والاقتصادية والاجتماعية من نصيب الإناث». شربت قليلاً من كأسها وواصلت:

«الأمر يختلف حين تقيّد حريات الإناث، حين تفرض عليهن

ملابس معينة ويتمّ مراقبتهن في الشوارع، ويمنعن من ممارسة أعمال يمكنهن القيام بها، وحين يفرض عليهن الاعتماد على ذكور في كل حركة وعمل وقرار. هذا تشريع مضاد للإسلام وللقوانين الحديثة المنتشرة في العالم. أيضاً استغلال الإناث الأجنبيات في الدول العربية وفي غيرها حرام. والمتاجرة بهن بين الشرق والغرب أكثر ظلماً، وقتلهن في الهند والصين قمة في الغباء والكفر. في ظروف أقل من هذه نزلت الرسالة على نبيِّنا. لا أعرف كيف يمكن تصحيح هذا الحال على الأرض التي يعرف سكانها كل هذه الأمور ولكنهم يغمضون أعينهم عما يدور بين ظهرانيهم». تنهّدت أم كلثوم ولم تتدخّل إحداهن في إضافةٍ أو رأي، فواصلت بقليل من الإبطاء: «انظرن إلى أخواتكن في بلدان جزيرة العرب مثلاً، وحتى في مكة والمدينة. تقييد ظاهر للحريات الشخصية، ولكنهن ينفقن الأموال بشكل متزايد لاقتناء أحدث ملابس وأحذية أجنبية من الماركات العالمية ليرتدينها تحت البراقع. أكثر من ملياري دولار ينفقنها سنوياً على موضة ما تحت البرقع، وإذا أضفنا إليها ما ينفق على الزينة والعطور نصل لأكثر من ميزانيات دول إسلامية فقيرة. هل تتصوّرن أن الرجل الذي يرى زوجته تحت البرقع بهذه الألوان والروائح سيؤيد فكرة أن تقلع حجابها وتخرج وحدها؟».

«لو اقتنع الرجل بزوجة واحدة، أو أجبر على ذلك، فربما خففت زوجته من الإنفاق على الموضة والتزين. بعضهن ينفقن مال الزوج حتى لا يفكر في زواج أخرى، وغيرهن يجارين الموضات والزينة للاحتفاظ بأزواجهن». قرّرت أم سلمة انتهاز فتح زاوية هذا الحديث عن الحياة الدنيا وطرحت ما جال بخاطرها:

«لو اقتصرت قدرة نكاح الرجل في الجنّة على زوجته الأرضية لارتحنا هنا، الآن ولاحقاً، من عناء وجور انعدام المساواة».

«هذا مطلب خيالي يا أم سلمة. إذا كانت أختنا أم كلثوم تنظر إلى النساء في الجزيرة العربية، فأنا لا أغمض عيني عما يتناوله الرجال على الأرض من مقويات للنكاح. هل تعتقدين أنهم سيتنازلون في الجنّة عما كانوا يتمنّونه على الأرض وينفقون المال في سبيله؟» لم تترك بكارة الهلالية فرصة لمن يقاطعها بالردّ على سؤالها، إذ أرادت التوصل إلى غايتها بالمطالبة بالمساواة مع الرجال. «في كل بلادنا الإسلامية اهتمّوا قديماً بالتعاويذ ووصفات الأعشاب، الآن في جزيرة العرب الغنية ينفق المال على حبوب الفياغرا أكثر مما ينفق على ملابس ما تحت البرقع. بل في دولة اقتصادها منهك مثل مصر، ينفق ثلاثة ملايين رجل كل عام ثمانية مليارات من جنيهاتهم على الفياغرا المستوردة من الخارج أو المزيّفة في الداخل، والتي أضرّت بعمل العطارين». شدّ حديثها وطرح هذه الأرقام اهتمام مجموع النساء المجتمعات على نهر الخمر. «في مصر ستون مليون نسمة نصفهم إناث، وثلثا الذكور من الأطفال والشبان، أي نظرياً فنصف من هم فوق الأربعين سنة يتناولون هذه الحبوب المنشطة، بعضهم متمكّن مادياً لدفع الثمن وغيرهم يشترونها على حساب قوت ورفاهية أطفالهم. هل نتوقّع بالفعل من هؤلاء تنازلاً عن جوائزهم في الجنّة والاكتفاء بزوجة واحدة، أو قبول تقييد قدراتهم الجنسية؟».

«ما هو الاقتراح الذي يدور في ذهنك؟» جاء السؤال من أمامة بنت الحارث التي تعرف غرض بكارة وسبب حديثها وودت أن تسمعه للزائرة بوضوح.

«أظن لو طالبنا بتقييد حريتهم جزئياً وزيادة حريتنا بالمثل، يعني سبع حوريات للرجل وسبعة ذكور يخلقهم اللّه في الجنّة لكل أنثى، فقد يرضى الطرفان».

ضحكت أم كلثوم من الاقتراح الذي لم يتراء لها في ذهن المتحدثة قبل ذلك وقالت: «أنت نظرت إلى الفياغرا لإثبات ما تريدين، ولكن مثالك يثبت عكس ما تهدفين. ثم ماذا عن الغيرة عند الرجال؟ ألا ترين أنهم ما زالوا يقتلون النساء على الشبهات فيما يعتبرونه قضايا شرف؟ ألا ترين أنهم يزوّجون بناتهم وأخواتهم بالإكراه حتى لا يتعرّضوا للقيل والقال؟ لا فرق في ذلك بين تركي مسلم في ألمانيا أو عربي مسلم في الأردن أو في المغرب فبعضهم يزوّجون دون موافقة الإناث، ويقتلونهن تحت شعار الحفاظ على الشرف. هل هؤلاء الرجال سيقبلون لزوجاتهم مضاجعة سبعة رجال غيرهم في الجنّة؟».

«كل الدول الإسلامية أصبحت مليئة بالخزعبلات المستحدثة وأخرى مما سادت قبل الإسلام. بالطبع لن يقبل رجالنا أن يشاركهم فينا رجال آخرون، حتى لو كانوا ممن خلقوا في الجنّة، ولكنهم يتوقّعون منا قبول العكس». بعد لحظة تأمل واصلت أم عوف حديثها «إنهم يزيّفون كل شيء سواء عبر المبالغة في التفسير أو حتى تزييف المعنى». عدلت وضع المنديل الحريري الأزرق على رأسها بإعادته فوق شعرها «نعرف أن طلب الشرع وجود أربعة شهود لإثبات حالة الزنا، جاء بغرض الستر ولمنع التلفيق. الآن في عدة دول إسلامية آسيوية، إذا اشتكت أنثى أنها اغتُصبت، فإنهم يطلبون منها أربعة شهود، وإذا فشلت في إحضارهم تتحوّل شكواها إلى اتهام ضدها بالزنا، أي أن القاضي الشرعي المبجّل يُقرّ بوجود نكاح غير شرعي، ولكنه ليس اغتصاباً إذا لم يوجد شهود، وإنما المشتكية تصبح في عرفه زانية وتعاقب». بقين مندهشات من سماع

كلام أم عوف كونهن لم ينظرن إلى هذه القضية من قبل. «هذا طبعاً يرهب أي مغتصبة من التقدم بشكوى، ويعزّز رغبة الذئاب البشرية في اغتصاب سرّي أو حتى جماعي إذ بإمكان عشرة منهم اغتصاب أنثى ثم يشهدون ضدها، فتعاقب. هذا بعض مما يتمّ باسم الشريعة الإسلامية. بالتأكيد سمعتن بقصة الحكم العرفي ضد الأنثى الباكستانية بأن يغتصبها عدة رجال من القرية انتقاماً لعلاقة غرامية ملفّقة بين أخيها الصغير وبنت أحد الأعيان في قريتهم، أي أهدروا شرف الفتى باغتصاب أخته التي لا علاقة لها بالأمر. مثل هذه العقلية سادت في الجاهلية، وها هي تنتعش مجدداً. الأنكى أن أخاها كان قد اغتصبه ثلاثة رجال قبل يوم، وأنذرهم بأنه سيبلغ عما حصل فلفّقوا التهمة له وظلموا أخته». تنهّدت أم عوف وسط ذهول المستمعات وواصلت: «إن الذين مارسوا اللواط مع الفتى كانوا في مجلس الحكم على أخته التي توسّلت بدورها لحوالى مائة وخمسين من القرويين الذين حضروا الجلسة، ولم يسعفها أحد، وتفرّجوا على أربعة عشر شخصاً يغتصبونها ثم أرسلوها إلى بيتها عارية».

«مهزلة تكرّرت مثيلاتها هناك وفي بلدان أخرى. إنهم يصنعون الكبت الجنسي ويقعون في نتائجه الوخيمة على الجميع». تمتمت بهيسة وهي شبه مغيبة في أفكارها الذاتية.

«إنهم يحلّلون لأنفسهم كل شيء». تشجّعت بكارة في هذا الجو الناقم على الذكور، وطرحت أفكارها مجدداً بالرغم من معرفتها بمعارضة الأغلبية لرأيها. «الآن في دول الخليج الإسلامية، وليس فقط في الدول الآسيوية الأبعد عن منابع الإسلام، هناك شيوخ

يفتون علناً بتحليل كل أنواع النكاح ما عدا اللواط ونكح الزوج لدبر زوجته إذ وردت آيات تحرم ذلك. لكن غير ذلك من استعمال للأعضاء التناسلية، حلال في تفسيرهم مهما كان ذلك بعيداً عن التصور. زواج الميسار حلال بالنسبة لهم، بل يمكن للزوج عدم التصريح والإعلان لزوجته الأولى بزواجه ميساراً. وزواج المتعة محلل عند الشيعة، بينما أهل الإفتاء عند السنّة يقولون إنه غير ضروري إذ يمكن الزواج رسمياً ثم الطلاق عند رغبة الزوج في التغيير. كل هذه الفلسفات تعتمد على أسلوبهم بالسماح وتحليل كل ما هو غير محرّم في القرآن والأحاديث النبوية المسندة. لا يراعون مستجدات الدنيا، التي لم نكن نتوقّعها أيام الإسلام الأولى، إلّا ما يشبع رغباتهم من تلك المستجدات. بالطبع لا يحلّون للإناث ما لم يمنعه القرآن والحديث عنهن». كانت بكارة تفكر في النسوة المجاهدات اللواتي عزمن على وضع تفسير جديد للقرآن لصالح المساواة مع الذكور. قبل أن تشير إلى هذه المجموعة النسوية الناشطة على الأرض الآن، تدخّلت أم أناس للتعليق على ما قالته.

«زواج المتعة عند الشيعة والميسار عند السنّة يفترض أن تنظري إليه ضمن تحقق بعض المساواة بين الإناث والذكور على الأرض، وليس فقط من باب أنه متعة للرجال. ربع إناث الجزيرة العربية عوانس لا يجدن الرجال للزواج الرسمي الشرعي بالشهود والنفقة وحق الميراث والعيش في البيت المشترك. مشاكل الزواج كثيرة وأهمها الكلفة المالية، وهكذا أصبح من الممكن للأنثى القادرة مادياً أن تتزوّج بشهود، إذا تنازلت عن حقها في مبيت الزوج عندها في بيت مشترك، وعن حقها في الميراث. وهي بالطبع تعيل ذاتها

ولا نفقة لها. هكذا تنال ما يرضيها من النكاح بدل أن تبقى عانساً لآخر عمرها. بالطبع ليس بوسعها الجمع بين أكثر من زوج بهذا الأسلوب. أما زواج المتعة عند الشيعة فيختلف عن الميسار بالاقتران لفترة زمنية يتفق عليها الطرفان، وهو منتشر بين الرجال المقتدرين على الدفع وبين الفتيات الفقيرات. لكن هنا أيضاً يكون بوسع الفتاة نكح أكثر من رجل كلما انتهت فترة الاتفاق وعثرت على متمتّع آخر يعقد معها».

«هذه ليست أي مساواة أو حتى اقتراباً منها، بل تشريع للزنا. في كل الظروف لا يحق للأنثى أكثر من زوج سواء بعقد رسمي أو ميسار أو متعة، وإذا نكحت آخر تصبح زانية يمكن رجمها حتى الموت، بينما الرجل يمكنه الجمع بين أربع نساء رسمياً وما أراد من المتعة أو الميسار».

«الحكمة من ذلك على الأرض يا بكارة هو عدم خلط الأنساب. كل طفل بحاجة لمعرفة أبيه، ولو جمعت الأنثى بين أكثر من رجل لضاعت الأنساب، بينما الأمر أسهل في حالة جمع الرجل لأكثر من أنثى». كان بودّ بكارة أن ترد على أم كلثوم بأن ذلك قد يبرِّر في أفضل حال زواج الرجل مجدداً، إذا كانت زوجته عاقراً، ولكنها قرّرت إظهار القناعة بتفسير أم كلثوم.

كان مجموعهن يقترب من المئتي أنثى الرائعات الجمال، إذ انضمت إليهن الكثيرات من رفيقاتهن أثناء الانتقال من ضفاف نهر الخمر إلى نهر اللبن في منطقة اخترن الاستحمام فيها كل يوم، وحرمن الرجال من المرور قربها في أي وقت. كانت روائحهن العطرة من المسك والعنبر تختلط مع النسيم ويعبق بها الطريق المظلل. بعضهن سرن يتضاحكن مثل أي إناث أبكار لا هموم لديهن سوى الاعتناء بالجسد ومتطلباته، بينما البعض الآخر

يتهامسن بما سيطلبن من أم كلثوم حمله معها إلى اللجنة النسوية. أمامة وابنتها أم أناس رافقتا أم كلثوم التي اهتمّت بإقناعهن بالتركيز على مطالب أرضية، وتحديد مواقفهن، وتجهيز إجابات لأسئلة محتملة قد توجّه إليهن. لم تستجب لمحاولاتهن بتوضيح الغرض من هذا الطلب أو تحديد نوع الأسئلة المحتملة ومصدرها. اكتفت بالإشارة لضرورة محورة واختصار الطلبات والاستعداد لتقديم شروحات وتبرير وإجابات حول المواضيع ذات الاهتمام المشترك.

انتحاريون وشهداء

«زيارة الفردوس، أو بالأحرى ما نراه في محيط المؤتمر، لا يوحي بوجود فقراء كثر في الجنّة. كلكم من النخبة، هل لاحظت ذلك في طبقتك من الجنّة وما تحتها من طبقات؟».

«أصبحت يا شريكي خبيراً في الفردوس وترتيب الطبقات». لم يعرف رابين إن كان ياسر يحتج على سؤاله أم لا، ولكنه لم يهتم كثيراً وأبقى أذنه صاغية لما سيقوله ياسر. «حضور المؤتمر هم نخبة من اختيار إلّهي، أو على الأقل جاءوا بموافقة ربانية، وبينهم فقراء كثر. هل تصنّفني مثلاً من بين الأغنياء؟ معظم شيوخنا هنا ممن ماتوا وهم فقراء مال. لا تنس أننا حتى الآن لم نشهد يوم القيامة، ووضع الجنّة الحالي موقّت». سكت ياسر ليتأمّل في سبب هذا السؤال، ثم تظاهر بأنه قدّم إجابة كاملة وطرح على رابين سؤالاً مضاداً عما إذا كان الفقراء في جنّة اليهود أقلية.

«وضعنا مختلف قليلاً عنكم. نحن نستمتع في حياتنا على الأرض ونتعبّد في الجنّة، أو بالطبع يُعاقب البعض لفترة محدودة في جهنّم قبل تحويلهم إلى الجنّة. عندكم يُشوّق العباد إلى نعيم الجنّة المادي ويُهدّدون بعذاب أليم إذا خالفوا وعصوا ويطالبون على الأرض بالصبر وتحمّل البلاء. لذلك افترضت أن الفقراء سيكونون كثراً في جنّتكم».

«كأنك تقول إن كل اليهود يتمتّعون على الأرض بما يتاح لهم

من جنّات ونعيم، ثم مصيرهم الجنّة في الآخرة ولو بعد عذاب قصير». حصل من رابين على موافقة بإشارة من رأسه بينما كان يبتلع بعض الطعام وهو متكىء قبالته على وسائد حريرية محشوّة بالريش الناعم. لم يكن قد انضمّ إليهما أحد للآن. «الفقر ليس تذكرة دخول للجنّة، ولا الأموال تمهّد الطريق إلى نعيم الآخرة. ثواب الناس بمقدار نياتهم وأفعالهم الصالحة وجهادهم في سبيل الحق ودفع الظلم».

«يعني أن الفقراء يعذّبون على الأرض ولا ضمانة لهم بدخول الجنّة؟».

«واللّه أنت يا إسحاق لا تريد أن تفهم، ولا تكفّ عن الخلط بين الجد والمزاح. إذ أخذتك على محمل الجد يمكنني القول إن عذاب الناس يبدأ على الأرض أثناء حياتهم، ولكن هذا لا يقتصر على الفقراء. قد يكون الإنسان غنياً جداً ولكنه محروم من أشياء أفضل من المال ويتمتّع بها فقراء». تناول ياسر عنقوداً من العنب وشعر بدماغه يتفاعل فلسفياً فواصل حديثه وهو يمضغ حبات العنب بشكل متواصل. «مثلاً يمكن أن يكون محروماً من القدرة النكاحية، وفي هذا عذاب مضاعف لمن تتقرّب إليه الإناث طلباً لماله. ويمكن أن يحرم من الأولاد، أو يصاب بمرض، بل يكفي أنه لا يعرف حلاوة الإيمان، أو حتى يفتقد قدرة التذوّق. هذا كله عذاب على الأرض قد يتبعه عذاب في الآخرة». صمت ياسر عندما نظر إليه رابين بعيون نصف مغمّضة، وهي إشارة إلى أن ردّه سيكون هجومياً.

«أنت كنت فقيراً، كما تقول، وأصابك اللّه بكثير مما ذكرت...».

«حرام عليك هذا التجنّي. كنت فقيراً طوعاً، ولم ينقصني الكثير من نعم اللّه على الأرض».

«طوعاً كيف يا ياسر؟ عندما مددت لك حبل الإنقاذ باتفاق السلام كنت عاجزاً عن دفع رواتب حرسك الخاص في تونس. فجأة بعد ذلك فتح لك العرب أموالهم مجدداً، والأميركان أكثروا من استقبالك في البيت الأبيض وأصبحت رئيساً على شعب وتجلس في أرض بلادك وتقبض أموال الضرائب التي نقدّمها لك. وبعد كل ذلك دخلت الجنّة بواسطة».

«بقية الفقراء سيدخلون إن شاء اللّه الجنّة بطرق أسهل. أنتم سبب البلاء، وأنتم من تسبّبتم بمنع المال عني قبل السلام، وعدتم لقطع الطرق عليه وعليّ بعد السلام...».

«نعم نعم، ونجوّع شعبك الآن، وأنتم كلكم أبرياء مثل سرب حمام أبيض. إذا كنت مصرّاً على معزوفتك المفضلة هذه فأخبرني لماذا يتعذّب شعبك طوال هذه السنوات ولا يغيِّر نهجه أو يبدِّله؟ هل الحكيم هو الذي يغيِّر رأيه أم الذي يقضي حياته متجمّداً؟» قبل أن يفيق ياسر من صدمة هذا الهجوم طرح رابين سؤالاً آخر «هل توافدت طلائع شهداء الانتفاضات على الجنّة الآن، وهل وصل الانتحاريون؟».

«قلت لك وضعنا هنا موقّت، وتعرف أنني لا أعلم من وصل إلى الطبقات الأعلى من السابعة. لقد زارني هنا في الفردوس بعض الشهداء بالفعل، وإذا كنت مصرّاً على معرفة الأرقام اسأل جبرائيل عنها». كان يعرف أن شريكه محق حتى الآن إذ لم يصل الكثير من الشهداء، كما أخبره ياسين في السابق، لكنه قرّر الهجوم المضاد ومناكدة إسحاق. «أنا وشعبي غيّرنا رأينا وتنازلنا كثيراً من أجل السلام، ولكنكم لم تغيّروا أسلوبكم في إشعال الحروب

والاحتلال. هل وصل إلى الجنّة أي من جنودكم الذين قتلوا في لبنان هذا الشهر؟ الأفضل أن تبحث عنهم في جهنّم جرّاء ما فعلوه. والذين لم يقتلوا بعد سيعذّبهم اللّه في حياتهم بواحدة أو بأكثر من الطرق التي ذكرتها لك، أو بأفظع منها. لا تستغرب أن تخرجوا مهزومين أيضاً من دون استعادة الجنديين المخطوفين وأن يمرِّر نصر اللّه مقولته بأن كل الدنيا لن تفرج عنهما إلّا بمبادلتهما بالأسرى اللبنانيين في سجونكم. عندما يحصل ذلك فإن عذاب قادتكم السياسيين والعسكريين سيبدأ بأيديكم كعقاب على فشلهم، وبقية الذين أيّدوا العدوان سيصابون بالخزي».

«سترتاح طبعاً إذا نجح نصر اللّه فيما فشلت فيه! أنت خرجت عن الموضوع وتتهرّب من الإجابة عن وصول الشهداء. أما قتلانا فسيصلون إلى الجنّة حسب أعمالهم، بعضهم بسرعة وبعضهم بعد عذاب في جهنّم قد يطول أو يقصر...» توقف عن قول إن الانتحاريين يتوالون إلى جهنّم، إذ اقتربت منهما مجموعة وأصبحت على مدى السمع، فغيّر رابين محتوى حديثه: «يلزمكم إعادة تفكير شامل في سعيكم إلى السلام والتعايش مع اليهود على الأرض».

«ومع النصارى أيضاً». قال كمال ثم ألقى السلام هو ومن معه على ياسر وإسحاق وانضمّوا إليهما على الوسائد التي رتّبها الغلمان فوراً وقدّموا الموائد للقادمين.

«هل تحاول بالفعل إقناع ياسر بضرورة نهج طرق أفضل مما نهجتما معاً للسلام؟».

«نهجنا لم يكن هو الأفضل يا شيخ، ولكنه كان الوحيد الممكن في حينه. لو لم يغتالوه لأنجزنا معاً حلاً أفضل ألف مرة من الوضع الحالي الذي نراه يتدهور يومياً». ظهرت علامات ارتياح على وجه إسحاق وهو يستمع إلى ياسر يردّ على استهزاء ياسين

بالسلام الذي اتفقا عليه. «إسحاق كان يسأل إذا توارد شهداؤنا إلى الجنّة أم لا». هكذا قذف ياسر بجوهر الحديث أمام الزوار.

«عن أي شهداء تتحدثون؟».

«عن الانتحاريين». ردّ إسحاق على عز الدين في محاولة لحصر الحديث في هذه الدائرة وإبعادهم عن ضحايا القتال في لبنان وغزة. «هل وصل الانتحاريون الذين قتلوا الأبرياء في إسرائيل أو في العراق إلى الجنّة؟ لا تحدّثوني عن الجنود الإسرائيليين القتلة وتغيّروا سؤالي».

«لا يوجد مبرِّر للتملص من سؤالك. لدينا في الفردوس والطبقات الأدنى الكثير من شهداء صراعنا معكم. أنا أحدهم...».

«أنت لست انتحارياً يا كمال ولم تأمر بعمليات انتحارية ضد مدنيين عندما كنت المسؤول الأول عن المقاومة في الضفة والقطاع».

«لو صبر القاتل على المقتول لمات وحده. كنت سأقول لك إن بعض الانتحاريين وصلوا بالفعل، ولكن ليس كلهم. ولا نعرف متى ستصل بقيتهم». ساد صمت بين الحضور في انتظار تطور هذا السجال بين إسحاق وكمال الذي واصل بهدوء: «مبدأ العمل الانتحاري ليس من اختراعنا. الكثير من الأقوام والأمم على مرّ التاريخ لجأوا إليه عندما أغلقت أمامهم كل الأبواب الأخرى. أحدث الأمثلة التي سبقتنا، وبدون أن نخوض في تاريخ أقدم، كان ما فعله طيارون روس ضد القاذفات الألمانية، وتكرّر الأمر مع اليابانيين ضد البوارج الأميركية، ثم تطوّع ألفا شاب طيار من الألمان للانتحار ضد القاذفات الأميركية التي دكّت مدنهم في الأيام الأخيرة من الحرب. نحن لا نملك طائرات لنصدم طائراتكم،

وبالتالي تطوّع الشباب والفتيات لإيصال الحرب إلى مدنكم لتشعروا ببعض ما نعانيه من طائراتكم ومدافعكم».

«لو وجد بينكم انتحاريون ضد النازية لما تمكّنوا من إبادة ملايين اليهود».

«أو ربما وجدوا العذر وأبادوا كل اليهود في أوروبا». ردّ شمشون فوراً على تدخُّل عز الدين.

«الأمثلة التي طرحتها يا كمال بحاجة إلى تفحص. يكفي القول إن شعوب وقادة ألمانيا واليابان أقرّوا بالهزيمة العسكرية عندما احتُلّت بلادهم، بينما أنتم ترفضون الإقرار بها ومن ثم تعطّلون الانطلاق إلى السلام والبناء...».

«الروس نجحوا وانتصروا بفضل رفضهم الاستسلام للاحتلال واستمرار المقاومة الانتحارية في الجو وفي المدن والخنادق. ثم إنكم لستم بطيبة الأميركيين، أنتم احتلال استيطاني سرطاني لا يتوقف سلمياً. حتى بعد تنازل ياسر لكم عن ثلاثة أرباع فلسطين مقابل سلام موعود، لاحقتمونا على الربع الأخير، أنت لم تنفِّذ الاتفاق بروح إيجابية وربعك قضوا عليك وعلى بقية الاتفاق وعلى فكرة السلام». سكت ياسين بعد هذه المقاطعة للجدل بين كمال وإسحاق، وتحوّلت الأنظار إلى إسحاق لسماع رأيه.

«حتى لا يتشعّب الموضوع، سؤالي هو لماذا لم يصل كل الانتحاريين إلى الجنّة؟ ثم هناك سؤال آخر عليكم الإجابة عنه: احتلالنا لم ينته، والحرب يشتدّ لهيبها، فلماذا توقّف عملكم الانتحاري؟ ولماذا لم تنتهزوا فرصة الحرب الدائرة في لبنان وتشعلوا المقاومة بأنواعها في غزة والضفة وإسرائيل؟» قبل أن يتفوّه أحدهم بردّ واصل إسحاق الحديث: «أنا أريحكم من الجواب، لأنكم تأتمرون من طهران ودمشق، وكلاهما أراد تركيز أنظار العالم

على لبنان. والسبب الآخر أن وصول حماس إلى كرسي السلطة أقنعها بأن أي عمل انتحاري سيؤدّي إلى قتل قادتها وليس فقط اعتقالهم. يعني أن الانتحاريين ليسوا متطوّعين عفويين، ولكن كل شيء كان يتمّ بأوامر وترتيب». نظر إسحاق إلى ياسر وقال: «وهذا ما اعترفت أنت بأننا قلناه لك أنا ومن تبعوني، وكنت تدّعي دوماً أن لا سيطرة لأحد على المقاومين الانتحاريين. لو أوقفتهم منذ البداية لما تدهورت الأمور إلى هذا الحدّ حتى بعد اغتيالي. الآن بكلمة من قادتهم يتوقفون، ولاحتفاظهم بالكرسي يكفّون عن تضليل الشباب ويخنعون خوفاً من القتل، وإن قاتلوا فسيقاتلوكم أنتم».

«هكذا أنتم يا قادة إسرائيل، عندما نكفّ عن القتال أو نعرض عليكم هدنة تدّعون أننا كففنا خوفاً أو انهزاماً من ضرباتكم...».

«أم تكفّون للتمسك بالمنصب يا شيخ ياسين» قاطعه إسحاق وأضاف: «جماعتك لا يسعون إلى هدنة معنا أو مع فتح، أي منطق للاقتتال الدائر بينكم الآن؟ إنه منطق الاحتفاظ بالكرسي، ولن يتوقف صراعكم إلّا بزوال أحد الطرفين، أو طبعاً إذا عدنا لاحتلالكم رحمة بالمساكين الجياع، حينها ستتبارون في القتل والعمل الانتحاري ضد اليهود». رفع إسحاق صوته لإيقاف المقاطعين: «أنتم تقتلون أطفالكم وتغلقون الشوارع وتروعون الناس، في كل وقعة بينكم يزيد عدد القتلى والجرحى عن المرة السابقة. هؤلاء الضحايا ربما وصل بعضهم إلى الجنّة كشهداء للفوضى، أما رجالكم وانتحاريوكم فابحثوا عنهم بين زوّار أسفل طبقات جهنّم». ساد صمت مشحون فأضاف إسحاق عدة أسئلة: «يمكنكم من هنا بسهولة إحصاء كل ضحايا الشعب الفلسطيني، فهل سيكون أكثر القتلى يا ترى على أيدي اليهود أم على أيدي العرب؟ بعد فترة قصيرة قادمة ربما يناطح عدد قتلاكم بأيديكم أرقام

الآخرين. والذين يدعون اللّه في الجوامع هذه الأيام بنصر حماس يا شيخ ياسين، هل قصدهم نصرها على فتح أم على اليهود؟».

«الذكاء، وفن الحديث، وبراعة الإقناع، يمكن أن تطمس الحقائق برهة عن عيون الآخرين، ولكنها لا تغيِّر الحقائق. نحن هنا لسنا بحاجة لإقناع بعضنا بعضاً عبر الانتقائية». كان كمال يتحدّث بهدوء ويقلّب الأفكار في رأسه إذا كان من المجدي تذكير رابين بمسلسل المذابح التي أمر أو شارك بها، أو اقتصار الحديث على ما يدور في لبنان وغزة. «ما الفرق بين الجريمة التي ارتكبتها أنت بحق سكان اللد والرملة عام 1948 بطردهم من بيوتهم وبلادهم، والجرائم الذاتية التي يرتكبها أغبياؤنا ضد شعبهم الآن، ويشجّعون الناس على الرحيل من بقية بلادهم؟ لا فرق، ولا تُبرّر جرائم الغرباء بجرائم الأهل. أنت أمرت بتكسير عظام أطفال رماة حجارة الانتفاضة الأولى، وعنتريات فتح وحماس تقتل الأطفال في طريقهم إلى المدارس».

«إسحاق ندم على ما فعله في اللد والرملة وكتب عن ذلك في مذكراته ولكن الرقابة الإسرائيلية حذفت النص من كتابه. وهو نادم بالفعل على الأوامر بتكسير عظام أبطال الانتفاضة، خصوصاً عندما ضبطت الكاميرات جنوده يطحنون بالحجارة عظام الأطفال. أما تدمير لبنان بكل أنواع الأسلحة وتجويع غزة الآن فهو غير مسؤول عنهما».

«شكراً يا ياسر على ضربك لي وتلقِّيك عني. كلما أسرع شعبكم على الأرض في السعي للسلام كان ذلك أفضل لهم بالدرجة الأولى. حبذا لو ظهر بينهم من يدرك ويعمِّم أن الإسرائيليين لا يمكنهم الصبر على ما يضرّهم. طوال تاريخنا ونحن ساكتون ولا ندافع عما يقال ويفعل ضدنا. هذا الحال تغيّر تماماً مع إعادة بناء

الدولة. لو صبرنا على استمرار الانتفاضة لانهارت معنويات جندنا وهم يقاتلون الأطفال، لذلك كان لا بد من إنهائها، ولذلك حطّمنا العظام وجنحنا للسلام ووقّعنا الاتفاقيات. كاد العالم يتعوّد كثرة العمليات الانتحارية ضد باصاتنا ومقاهينا وأسواقنا، وأصبحت جمل الاستنكار مملّة من تكرارها، ولهذا وجب العثور على سبل لوقف الانتحاريين. انسحبنا من غزة وأقمنا الجدار في الضفة ودمّرنا منازل كل من لهم صلة بالأمر. لو سكتنا بعد ذلك على خطف جنودنا من داخل حدودنا لأصبح ذلك رياضة عربية. لذلك وجب إظهار ثمن هذا التعدّي. ياسر يعتقد أننا سننهزم في لبنان ونصر اللّه سينتصر ويؤخِّر إعادة الجنديين المختطفين، ولكني متأكد أن جنودنا لن يتعرّضوا للخطف مرة أخرى».

«كلام إسحاق فيه بعض الحقيقة». تدخّل حمورابي الذي تابع المناكفات باهتمام: «أنظروا للوضع في العراق، مائة قتيل بريء تماماً كل يوم، وعدد متغيّر من القتلى الإنجليز والأميركان، وانفجارات مدوية في معظم مناطق البلاد، وخراب متعاظم كل ساعة، وكل أسبوع يفقد تسعة آلاف عراقي بيوتهم من جرّاء الجنون المتواصل. لكن العالم تعوّد ما يحدث ولم يعد أحد يستمع لأخبار العراق، بل إن قتل طفلين بالرصاص في أي مدرسة أو شارع في العالم الغربي يثير من الضجيج أكثر مما تثيره كارثة العراق. لو تواصلت وتيرة القتل المضادة بين الإسرائيليين والفلسطينيين إلى درجة تعوّد الجميع عليها، لكانت الأهوال أكبر مما هي الآن. تذكرون كيف كان الوضع عندما تعوّد العالم الاقتتال الفلسطيني اللبناني، أو اللبناني اللبناني. توازن القوى في حالة تجمّد العقليات هو أكبر شر يمكن أن يصيب أمة ما». لم يسرع أي من الحضور على التعقيب، انعدمت الرغبة لديهم في المهاترات وكأنهم اكتشفوا

للتو أن العالم الأرضي لا يستمع إلى مناظراتهم، وإقناع بعضهم بعضاً ها هنا لا جدوى منه. كل شيء بيد اللّه بينما هم في جنّاتهم، أو في الجحيم، ومهمتهم الآن لا تتعدّى إبداء الرأي حول موعد يوم القيامة، يمكنهم تمنِّي أو إطالة أمد الصراع أو تقصيره عبر رغبتهم في موعد يوم الحساب.

«كنا نظن في أيامنا أن الخلاف بين قومي وقوم دليلة هو الأشد تعقيداً بين خلافات الجيران. وربما يرى غيرنا بعد ألف عام من الآن أن مشكلة ياسر وإسحاق كانت هيّنة جداً مقارنة بما سيمرّون به حينذاك».

«في أيامك يا شمشون، وما كان قبلك وما جاء بعدك كانت الموازين والأسلحة متعادلة. لكن الفارق الآن أصبح هائلاً في التسلح وقدرات التدمير، والميزان مختلّ تماماً إلى صالح إسرائيل ضد الفلسطينيين ولصالح الغرب ضد الشرق. الرادع الأساسي الذي يحدّ من طحن طرف للطرف الآخر هو ما يسمّونه الرأي العام. لو كان الأمر بيد القادة لأبادوا خصومهم، ولكنهم يحسبون للمؤمنين ولأهل الخير وللناخبين في بلادهم حساباً. لهذا يسكتون عن الصراع الأهلي في بلدان العرب والمسلمين، ويفقرونها بأساليب عديدة ليستمر تخلّفها. خلقوا الحيل لاحتلال العراق وتركوا أهله يتناحرون». سرح ياسر وهو يستمع لما يعرفه أصلاً من سرد حمورابي. سأل نفسه عن سر وقف حماس للعمليات الانتحارية والعودة لإطلاق صواريخ من غزة تحديداً ضد مناطق في إسرائيل. لماذا لا ينفِّذون عمليات من الضفة المحتلة ويصرّون على جرّ المشاكل لقطاع غزة بعد انسحاب الإسرائيليين منه؟ لم يعد يدري ما يدور حوله من حوار وتذكَّر كيف ساعدت إسرائيل على قيام حركة حماس قبيل الانتفاضة الأولى حتى يتصدّى المتدينون للوطنيين من

رجال فصائل منظمة التحرير. قال لنفسه إن ذلك قد لا يعني بالضرورة ذكاء إسرائيلياً وبُعد نظر في التخطيط، فقد انقلبت حماس أثناء الانتفاضة وبعدها على إسرائيل وتمرّدت على الأدوار الأخرى المناطة بها في المساجد ومقاومة مظاهر الليبرالية في الشوارع، كما أن الحركة ليست المسؤولة الوحيدة عن الاشتباكات مع فتح. أراد الإسرائيليون للمدنيين أن يكفروا المجتمع ويحثّوا على العودة اللانهائية إلى الدين قبل مواجهة الاحتلال. ركّز ذهنه على بعض الأشخاص وما فعلوه في الأسابيع التي تلت الانتخابات البرلمانية وراجع تآمرهم مع إسرائيليين على جوانب من لعبة الحصار لإسقاط حكومة حماس. أفاق على ضحك المجتمعين وسؤال من كمال:

«تفوه على مين؟ وين سارح؟».

«بصقت على ناس من جماعتنا في غزة». تناول كأساً من الحليب قدّمه له كمال وأفرغه في جوفه مرة واحدة وكأنه يصارع العطش، ولم يكن لجسده أي حاجة للشرب. افتقد إسحاق وشمشون وحمورابي، ووجد نفسه يجالس فلسطينيين فقط بعد مغادرة الآخرين.

«جماعتك خلقوا لنا حرب الرواتب يا ياسر». قطع ياسين الصمت ثم صمت وهو يتذكّر أن ياسر حوصر وقطعت عنه الأموال وقصفت إسرائيل جنده ورجاله في الضفة والقطاع بينما كانت نقود عربية تصل إلى حماس. «نحن بحاجة لثورة في الأسلوب...».

«نعم تدمير وتفجير متواصل لمصالحهم وتقليدنا لفعلهم بنا». قاطع عز الدين الشيخ ياسين.

«دعونا من الذبح والسلخ. هذا الأسلوب أوهم شعبنا أنه الطريق الوحيد للنجاح. كيف نسمِّيهم ذئاباً ولصوصاً ومجرمي حرب ونريد تقليدهم فيما يفعلون؟» لم يكن كمال ينتظر إجابات وإنما نقل عيونه

المفتوحة على وسعها بين الشيوخ في الجلسة. «رفضتم الحلول الوسط منذ البداية، وأعلنتم الجهاد المسلح منذ 1935 ولم يكن بوسعكم القتال، وبدل أن نتعلّم ونجدِّد عدنا للركض خلف غرائزنا الانتقامية. القتال والمقاومة واجبان، ولكن بشرف وبدهاء وتناغم من العالم المتجدِّد. الإسرائيليون ليسوا كتلة متكاملة وجامدة، وهم تحت تأثير العالم الغربي، لذلك يسعى قادتهم دوماً لتوفير التوافق مع الغرب. لم يعد بوسعنا رفع شعار إبادة إسرائيل بعد ميلاد جيلين منهم في بلادنا، وليس بوسعنا طردهم بالقوة حتى لو كنا أقوى منهم. وضعنا يتدهور كل يوم من جرّاء سيادة عقلية وحدانية العمل المسلح، والطرب لصوت لعلعة الرصاص. لو أوقفتم العمليات الانتحارية بعد مرة أو ثلاث مرات لبقيت سلاحاً ماضياً في يدنا، ولكن التكرار أبعد العالم عنا ومهّد لكتلة جديدة من الإرهاب الإسرائيلي بسكوت عالمي. الآن تتكرّر المأساة بسلاح الصواريخ الصبيانية التي تعود علينا بالدمار الفعلي. أتدرون أن ما فشلت إسرائيل بفرضه على شعبنا تنجحون أنتم الآن في إنجازه؟» لم يفهموا قصده فأضاف: «فشلوا في دفع الناس للهجرة مرة أخرى من بلادهم ومن مهاجرهم في فلسطين، والآن بفضلكم أصبح أمنية أي شاب أن يترك البلاد، خصوصاً الكوادر ومن يملكون شيئاً بين آذانهم».

«ماذا تريد من الناس أن يفعلوا إذاً؟» صدر السؤال عن المفتي عندما تناول كمال كأساً من اللبن.

«باختصار، علينا الكف عن المطالبة بدولة مستقلة لكونها صغرت في المساحة ودمّرت إمكانياتها ولم يعد هناك كوادر صالحة لقيادتها ولبناء نهضة تمهِّد لاستعادة بقية الحقوق. الأفضل الآن أن نرفع شعار إنهاء العنصرية وإبعاد الدين عن السياسة بين الإسرائيليين

والفلسطينيين. نطالب بالحياة المشتركة بين الطرفين في كل شبر من فلسطين الطبيعية. نطور سبلاً تمهّد لذلك مثل تنازل كل فلسطيني عن نصف أملاكه لجاره اليهودي على أن يعيشا معاً في تلك الأملاك في المدينة والقرية وأملاك الدولة. نسعى لتغيير مناهجنا ونطالبهم بتغيير مناهجهم مع تسمية الصفحات والكتب التي تؤدِّي للعنصرية والتوتر. سيرفضون ويدّعون أننا نخادع، ولكن رفضهم لن يفهمه العالم إذا واصلنا هذا النهج المتمدن لبضع سنوات. وإذا لم يجنحوا للسلم تكون حينها بعض أساليب المقاومة الحديثة مبرّرة، وربما ساعدنا العالم بفرض مقاطعة على العنصرية كما فعلوا ضد جنوب أفريقيا في حينه. المهم أن لا نقدّم لهم مبررات لممارسة إرهاب يصفونه بالمشروع، والأفضل أن نهاجم سلمياً تحت شعارات إنهاء العنصرية وبناء التعايش المشترك».

«هذا نهج يصلح للهنود يا كمال وليس لعرب لا ينسون الثأر بعد أجيال».

«الهنود كانوا إخوان الباكستانيين حتى أسلم طرف منهم وفرق الدين بينهم». أجاب ياسر عن ملاحظة ياسين وقال: «العكس ممكن أيضاً، أن نستفيد من سماحة وتسامح الإسلام ونجاهد من أجل السلام. وكمال قال بوضوح بضرورة المقاومة ولكن بأساليب متجدِّدة. أسلوبكم خرب بيوتنا ويحملنا إلى جحيم في الأرض. تحايلتم على الناس بادعاء القدرة على مواصلة العمليات حتى تحرير كل فلسطين، فانتخبوكم وأدخلتموهم للمجاعة. الديمقراطية لا تفرض البقاء أبدياً في الكراسي، فشلتم في سدّ الحاجة اليومية وأبعدتم القضية عن آفاق الحل، ناهيك عن وعد التحرير الكامل. تعلّموا من اليهود، خطأ صغير لقائدهم يؤدِّي للعودة إلى حكم الشعب بالانتخابات». كان يشير بيديه أثناء حديثه الغاضب ويعدل

من حطته الحريرية. «جماعتك من أصحاب دعاء (اللهمَّ أهلك اليهود ودمِّرهم ومن شايعهم من ملل الكفر يا رب العالمين، اللهمَّ أنزل بهم سطوتك وبأسك الذي لا يُرد عن القوم الظالمين، اللهمَّ إنهم لا يُعجزونك فدمِّرهم في البر والبحر والجو إنك على كل شيء قدير. اللهمَّ أورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم، اللهمَّ انصرنا وأعنّا ولا تعن علينا). كان واجبهم الاستفادة من انسحاب إسرائيل بدون شروط وأن نجنّب أهلنا في قطاع غزة العذاب ونخلق هناك مثالاً إيجابياً وجنّة على الأرض تثبت للعالم قدراتنا وتشجّع أهلنا في الضفة على الثورة ليفوزوا بمثال غزة، كل شيء اتجه إلى العكس بعد ادعائكم تحرير غزة وفوزكم بالانتخابات، ويعلم اللَّه ماذا تخطّطون».

«الأمر أعمق من ذلك». قال عز الدين، الذي كان أول من أعلن الجهاد المقدس في فلسطين ضد الإنجليز وقتلوه في أول عملية، «في الواقع أن حماس تورّطت ووقعت في حبال اليهود. حركة فتح اقتنعت تدريجاً بضرورة الحل ووقّعوا اتفاق أوسلو التنازلي، ثم لاحظوا بسرعة عدم احترام اليهود للمواثيق وتعاسة أوسلو. لكن حماس دخلت طوعاً بعد ذلك وبسرعة إلى أحضان أوسلو وهم الآن تحت الكرباج للإقرار بكل مساوىء الاتفاق من تنازل عن جزء من القدس وعن حقوق العودة والتعويض وعن دولة كاملة الحقوق واضحة الحدود. أوسلو لا يتعدّى إدارة ذاتية، وحماس وقعت في المطب عندما دخلت لعبة الانتخابات، حتى وإن كانت ترفع شعارات رفض الاتفاق ورفض التنازلات. هذه حقيقة الأمر، وكلما أقرّوا بذلك وأسرعوا في الهروب فهو أفضل. كان بالوسع توزع حماس وفتح الأدوار بين مسالم ومعارض من دون دخول حماس للانتخابات. أو على الأكثر الاكتفاء بالفوز

بالأغلبية البرلمانية ومراقبة لحكومة فتحاوية أو لغيرها، وذلك عبر لجان رقابة ومتابعة برلمانية، وليس تقلد المناصب في حكومة قائمة على ركائز أوسلو في بلد تحت الاحتلال والحصار، ثم الإعلان من المنصب الحكومي أنك ضد أوسلو ولا تعترف بإسرائيل في الوقت الذي لا يمكنك توفير الزيت والزعتر للناس، ناهيك عن الأمن الداخلي أو ردع العدوان الخارجي. كل المخارج الآن سيئة، يمكن للإسرائيليين اتهامنا بالخداع وأن شعبنا انتخب حركة تريد تدميرهم وليس السلام. على الطرف الآخر فاعتراف حماس بإسرائيل وأوسلو كارثة نفسية على الناس إذ سيعني ذلك الإقرار بالهزيمة والتنازل لرغبات الصهاينة. المخرج الأهون هو الانسحاب من مناصب الحكومة إلى مقاعد البرلمان». لاحظ عز الدين أن المفتي وياسين وكمال وياسر، ولأسباب متنوعة، لم يكونوا يتوقّعون منه مثل هذا الموقف فأضاف: «نعم كنت أفضّل استمرار حركة حماس في المقاومة المسلحة ومنها الانتحارية وترك فتح في السلطة تناور للتوصل لحل يخفّف عن الناس مع الاحتفاظ بحقهم المعنوي لرفض الحل ومواصلة المطالبة باستكماله في أي مرحلة يريدون».

«هذا ما كنت أقوله للإسرائيليين والأميركيين ولقادة أوروبا، إن عندي معارضة قوية جداً ومدعمة شعبياً ضد الحلول السلمية التنازلية، ولن أقبل ما تحت الحدود الدنيا. الآن أصبح على أبو مازن أن يفرض على حكومة حماس اعترافها بالاتفاقيات والمواثيق التي وقعتها حكومات فلسطينية سابقة. وبعد أن كانت فصائل المقاومة تتنافس في العمليات المسلحة، فرض على الجميع الخنوع الآن، بل توجّه السلاح الفلسطيني إلى الفلسطينيين. وضعنا أصبح يتّجه ليماثل الوضع العراقي، هم سنّة وشيعة، ونحن فتح وحماس. قضيتنا تحوّلت عن مسارها وأصبحت ثانوية في المنطقة والعالم

وعادت كما في بدايتها منحصرة في توفير الطعام والخيام». لم يكن ياسر منفعلاً أثناء إضافاته هذه إذ كان يعرف أن الأمر غير قابل للإنقاذ، ولا أسلوب لديهم في الجنّة لتوجيه أوامر أو نداء لخلفهم على الأرض. «كلهم تنابل، وإن شاء اللّه لا تقوم انتفاضة ضدهم تطالب بعودة الاحتلال».

عقم الحوار

«إذا كان كلامك يا جمال محقاً، بأن الإسلام لم ينتشر بالسيف، فكيف وصل إلى الصين في آسيا شرقاً وإلى الأندلس في أوروبا غرباً؟ هل كان أجدادكم يوزّعون الورود والقبلات على الشعوب التي يحتلونها؟ أنت محق في قولك إننا لم نكن أرحم منكم، ولكننا هُزمنا عسكرياً بسيوفكم، وسعينا، عندما تمكّنا، لاسترداد ما أخذتم منا». كان أوربان الثاني قد اختار ملابس زاهية وجلس باستقامة ولم يكن جسده يتفاعل مع حديثه، ومن لم يكن يعرف سلفاً أنه البابا الذي أمر بأولى الحملات الصليبية عام 1095 لسهل عليه تخمين منصبه الأرضي من اعتداده بنفسه وتصلّبه في جلسته. آنذاك تحوّل طريق الحج الذي كان يربط أوروبا بالقدس إلى طريق إرهاب وذعر من ممارسات أمراء الحرب وجنودهم الذين حملوا الصليب والسيف وقتلوا اليهود في بلادهم قبل الانطلاق في رحلة الإرهاب، ثم قضوا على كل من تمكّنوا منه في بلاد المسلمين إلى درجة تسلّيهم بأكل الأطفال المسلمين مشويين.

«ما قصدته، وأنت تعرف ذلك يا أوربان، أن الإسلام انتشر بما حمله من أفكار لتحقيق مساواة وعدالة وقانون وبتوفيره الأمان. بالطبع أشهر أجدادنا السيف ضد كل من تصدّى لنشر الرسالة، سواء في مكة أثناء البدايات، أو في حوض البحر المتوسط أو أطراف الصين، ولكنهم لم يفرضوا الإسلام على أي إنسان. خيّروا

الأقوام بين الانتساب للإسلام مع مساواة في الحقوق والواجبات، أو البقاء على معتقداتهم والفوز بالحماية مقابل دفع الجزية». لم يكن جمال واثقاً بأن إجابته بهذه العموميات ستقنع أصحاب الرأي الآخر في ذلك اللقاء شبه العفوي في الفردوس. كان قد اطلع على آرائهم بأن العرب والعروبة موقعها جزيرة العرب، أما منطقة حوض البحر فهي إغريقية رومانية بيزنطية ولم تتحدّث اللغة العربية قبل أن يغزوها المسلمون العرب، ولهذا فهم يعتبرون أن البلاد لهم وقد احتُلّت وسُلبت منهم.

«أنتم، أو أبناؤكم وأحفادكم على الأرض، تدّعون أن البابا بندكت السادس عشر أخطأ في مقولاته، ومنها أن المسلمين لا يُحكمون العقل في القضايا الدينية...».

«... هو لم يقل ذلك والذين غضبوا من قوله بعض المسلمين وليس كلهم، لكن لا بأس بأن تكمل ما تريد قوله ضمن الافتراض الذي تريد». جاءت المقاطعة على لسان مارتن وأراحت كلماته الحضور كونها ستؤدِّي لتهدئة أوربان أكثر مما لو قالها جمال أو صلاح الدين أو عز الدين أو غيرهم من أصحاب الفردوس وضيوفه الحاضرين.

«التفصيل لا يهمّ، أريد أن أدعو لتحكيم العقل والتأمل فيما سأقول. تقولون الجديد أفضل من القديم، الإسلام خير من اليهودية والمسيحية، والإمبراطورية الرومانية تطوّرت عن الإغريقية وأخذت البيزنطية عنها حتى حلّ الإسلام بدلاً منها. لا بأس، أظنكم لن تنفوا الرأي القائل إن المنطقة التي أصبحت لكم تعيش في تراجع متدهور منذ خمسمئة سنة، على الأقل، وهي الآن أقرب إلى أسفل المستويات في الحضارة المادية والروحية إذ يسيطر على شوارع أقطارها أصوليون بشكل متسارع. والذين كان أجدادكم يصفونهم

بالبرابرة من سكان الشمال الأوروبي أصبحوا الآن رمزاً للتسامح والتعايش والتحضر، بينما هواية شبانكم وأقصى أمنياتهم هو الهروب من بلاد الإسلام إلى الغرب. الديمقراطية، نعم الديمقراطية، أصبحت شعار وغاية البشرية، وهي مطبقة في الغرب بأفضل أشكالها الممكنة، فلماذا لا تتفهمون ضرورة نشر الديمقراطية في بلادكم كما نشرتم الإسلام في حينه داخل بلادنا؟» قبل أن يتوقف أوربان عن حديثه كان عز الدين يسأل المنصور إذا كان قد شاهد هذا الرجل في جهنّم، ويحصل منه على جواب بالنفي.

«يا قداسة البابا» قال عز الدين وهو يكتم غيظه: «أينما حلّت الفتوحات الإسلامية كان حال الناس يتحسّن فوراً، بينما أينما وصلت قواتكم كان الدمار، ولا يزال، هو لصيقها الحتمي. هذا ما كان أيام أن أمرت أنت بأولى الغزوات الصليبية، وهذا ما شاهدته أنا في سورية وفلسطين من الفرنجة والإنجليز في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي، وهذا ما نراه من الأميركان الآن في العراق وكل المنطقة. الجنرال الفرنسي ذهب كأول عمل له إلى قبر صلاح الدين ليخبره: ها قد عدنا، والقائد البريطاني توجّه إلى كنيسة القيامة لصلاة الشكر على نجاح المهمة التي قصرت عنها الحروب الصليبية. بعد تسعين عاماً أعلن الرئيس الأميركي، هذه المرة، أن الحرب على العراق وفي المنطقة هي حملة صليبية جديدة. الأوضاع لم تتحسّن في أي مرحلة من احتلالكم لبلداننا، والديمقراطية التي تتحدّث عنها لم تطبّق، وخصوم الديمقراطية هم أصدقاء أميركا في المنطقة. ثم إن الديمقراطية ليست نقيضاً أو بديلاً للإسلام، والغرب لا يقاتلنا من أجل فرضها علينا لمنفعتنا، بل يحاربنا من أجل النفط. لماذا لا تساعدون بلدان أفريقيا المؤهلة

لتقبُّل المسيحية والديمقراطية؟ لماذا لا تنشرون الديمقراطية في بلاد الكاثوليك الفقيرة في جنوب أميركا؟ وماذا عن إسرائيل التي تحتل القدس وتؤدِّي سياستها إلى رحيل بقية المسيحيين الشرقيين من المدينة المقدسة؟ لماذا تسكتون عن فواحشها؟» قبل أن يجيب البابا تطوّع قلب الأسد بالردّ:

«نحن لا ننشر المسيحية بالقوة في أي بلد، وما ذهبت قواتنا إلى بلادكم لنشر الديمقراطية لو لم تهاجمونا في عقر دارنا. الفكرة السائدة الآن في الغرب أن نشر الديمقراطية في البلاد الإسلامية قد يحدّ من التطرف الإسلامي الذي يغذّي الإرهاب. نحن نريد مساعدتكم لنأمن شر متطرفيكم».

«لكن العكس تماماً ما يحصل يا ريتشارد» تدخّل جمال مجدداً في الصدام الكلامي بينما أغلبية الحضور منصتون. «فرض الديمقراطية من قبل أميركا يسيء للديمقراطية. أينما تقبّلت الزعامات ضغط واشنطن وباشروا الانتخابات كخطوة ديمقراطية فإن الأصوليين الإسلاميين يفوزون بالأغلبية، هذا طبعاً إذا لم تزيّف النتائج. هذا حدث في الجزائر وأيّدتم هناك حرباً إرهابية فظيعة لمنع تطبيق نتيجة الانتخابات غير المزيفة، وآخر مثال هو رفضكم لنتيجة الانتخابات الفلسطينية الشفافة وتجويع الشعب في حصار ظالم ودكّهم بالطائرات والمدافع لأنهم انتخبوا الفريق الغلط حسب رؤيتكم. أما حبكم لأفضل وأقدم الديمقراطيات العربية في لبنان فغنيّ عن التعريف والوصف».

«هذه المرة كلامك صحيح يا جمال. إذا أتحنا لكم حرية الاختيار فإن أغلبيتكم تختار طريق العنف، طريق الذين يطالبون بإبادة الكفار». ابتلع أوربان ريقه وأضاف: «وإذا طالبنا نحن بإبادة الكفار من بينكم، أو حتى اعتقال فئة متطرفة منكم، تكيلون لنا

أقبح الصفات. ومهما فعلنا أو قلنا فهو غلط وهو سبب المشكلة، وعندما لا نتدخّل لإنقاذكم من الجوع والجراد والحروب الأهلية والأمراض، فنحن غلاظ القلوب». كانوا يتوقّعون منه المزيد من التهجم الصريح، ولكنه توقف وتأمّل في الزمان والمكان والظرف الذي أوصله في هذه الزيارة من قبره في قبو كنيسة سانت بطرس إلى فردوس جنّة المسلمين. لم يكن قد بعث مثل الآخرين الذين أرسلوا إلى الجحيم أو إلى مواقعهم في جنّاتهم. هنا وكضيف لا يمكنه إنكار أي شيء مما ينسب لدين المسلمين، سيكون من العار لو تسرّع في المطالبة بإبادتهم دون تفريق، ولا يسعه إلّا التصرف من منطلق تكميل الديانات لبعضها بعضاً. «جميعنا نرى هنا أن دياناتنا الثلاث، وما سبقها، ذات مصدر ومصير واحد. هذا لا ينكر أن المتطرّفين بحاجة للإبادة، والدين يجب أن يتحرّر منهم. . .».

«المتطرفون من أمثالك في حينه، وقادة الاستعمار فيما بعد، وعصابات الهاجاناه و. . .» لم يتمكّن ياسين من استكمال انفجاره إذ ارتفع الهرج بين الحضور مستهجنين كلام أوربان الذي أتيحت له فرصة إلمام سريع على مجريات التاريخ منذ مماته يوم التاسع والعشرين من يوليو عام ألف وتسعة وتسعين.

«لا يمكننا تقليد تصرفات البشر على الأرض». قال مارتن بصوت أعلى من المعتاد ليفوز باهتمام الحضور ويوقف التراشق قبل فوات الأوان. «الأفضل أن نتحاور». حلّت عليهم السكينة فجأة وعاد كل منهم يراجع ذاته. كان ضوء الجنّة كما كل ساعة وكل وقت، معتدلاً مثل عصر يوم ربيعي على الأرض. لا حر ولا برد يزعجهم، ولا توالي ليل مع نهار يهدر وقتهم، ولا تعب يتطلّب

الاستراحة لجمع النشاط. الطعام والشراب متوافران بأنواعهما طوال الوقت لا يعكّر صفو أمعائهم تناول أي كميات مما يشتهون.

«الحوار مفيد دوماً، ولكن على ماذا نتحاور هنا كمسلمين ونصارى ويهود وممثلين عمّن سبقنا من ديانات ومعتقدات؟» وجّه سليمان نظره إلى مارتن أثناء طرحه لهذا التساؤل ثم طاف بناظريه على بقية الحضور واستكمل حديثه: «كل ما يمكن لأهل الأرض التحاور في شأنه دينياً هو شأن محسوم هنا بيننا. وظيفة مؤتمرنا أن ننظر في موعد يوم القيامة. لو كان بوسعنا إيصال رسائل إلى سكان الأرض عما سيلاقونه في الحياة الآخرة لكان من المفيد الحوار والاتفاق على محتوى الرسائل».

«انس موضوع الاتصال بالأرض». أجاب صلاح الدين بسرعة قبل التأكد إذا كان سليمان قد أنهى موعظته لهم. «أهل الأرض من كل الأديان يعرفون تماماً ما ينتظرهم. الأديان الثلاثة الرئيسة لا تشكّك في محتوى بعضها أو في اليوم الآخر، وإنما خلافاتهم تعود لأفعال انتهازيين. قداسة أوربان مثلاً أعلن الحرب المقدسة على المسلمين ليخلص النصارى من مشاكلهم وخلافاتهم الداخلية. في زمانه تنازع الكرسي البابوي شخصان متحاربان، وقبله بفترة كانت المؤسسة البابوية انحدرت إلى مستوى ضبط البابا زانياً وقتل الزوج له في سرير زوجته، ومن سبقوه من الباباوات جوّعوا بعضهم بعضاً حتى الموت في السجون، وغير ذلك مما يمكننا هنا مراجعته في غمضة عين. الآن نرى البابا بندكت السادس عشر يهاجم الإسلام عمداً على أمل أن يكسب دوراً في السياسة التي سُحبت من الكنائس في القرن الماضي. كان بوسعه مهاجمة الحروب وقتل الرضّع في غزة ولبنان والعراق، لا يوجد ما يمنعه من رفض فكرة

الحرب والعنف من أي مصدر جاءت. بدل ذلك اختار دعم الرئيس بوش في حربه الصليبية، ومن السخرية أنه هاجم الإسلام متّهماً إياه بالعنف وعدم تفعيل العقل في العلاقة مع اللَّه. يريدنا أن نصدِّق قصة مريم وعيسى كما وردت في الإنجيل وتأكّدت في القرآن، ثم نرفض بقية تعاليم اللَّه التي لا تبدو له منطقية».

«من يصدِّق أي فعل خارق لدينه وقديسيه لا يمكنه نفي أي آراء في ديانات أخرى. ومن يريد تحكيم العقل في العلاقة مع الدين فهو غير مؤمن». هزّوا رؤوسهم موافقين منصتين إلى سليمان بعد أن استعاد دوره في الحديث لأبناء الأقوام الذين آمنوا باللَّه وبالغيب واليوم الآخر. «من يدّعي أن ديانته متفاعلة مع العقل يكون قد خفض الفلسفة الإلّهية إلى مستوى البشر، ورفع عقل المخلوق إلى مستوى الخالق. في كل العصور ظنّ البعض أنهم يملكون المعرفة المطلقة، وفي كل عصر تالٍ يكتشف الخلف جهالة السلف وضعف منطقهم. الإيمان لا علاقة له بالمنطق أو بالعقل، وإنما يرتبط بالقلب والروح. أنظروا إلى سكان الأرض الآن وهم يرون التقدم العلمي والمنجزات المتسارعة التي توهّم بعضهم امتلاك ناصية المعرفة المطلقة، لكن غالبية سكان الأرض يؤمنون بواحدة من الديانات الرئيسة ويقرّون بالغيب واليوم الآخر والثواب والعقاب، ولا يناقشون شيئاً مما يحمله دينهم من خوارق ستبدو غير منطقية لهم لو حكّموا العقل فيها. إن أعداد المؤمنين، ونسبتهم أيضاً، بين سكان الأرض هي الأعلى وفي تصاعد».

«مع كل الاحترام لسيدنا سليمان، هذه الآراء التوفيقية بين الديانات والمؤمنين لا تخدم الحقيقة». قال المفتي وأضاف دون توقف حتى لا يقاطعه أحد: «نحن هنا بالطبع لم يعد أمامنا شيء من أسباب الخلاف والاختلاف، لكنهم على الأرض يرون

التناقضات بين الديانات أكثر من رؤيتهم لنقاط اللقاء. المشاكل تنبع حين يلجأ البعض للمقارنة والتفضيل بين الديانات، أو حين يُستغلّ الدين في تمرير سياسات معينة. بوش وبلير يظنّان أن الرب كلّفهما بالحرب، وها هو البابا ينضم إليهما في تسويد صفحة الإسلام لتبرير الحروب. إنها الشعارات نفسها التي رفعت أثناء الحروب الصليبية عن شرور الإسلام وزيف رسالته. قداسة البابا بندكت السادس عشر متخوّف من المسلمين. . .».

«بدون لفّ أو دوران فأحفادنا يتخوّفون من غزو إسلامي متواصل لبلادهم». نظروا إلى أوربان بشيء من الاستغراب واستطلاع ما يهدف إليه من هذه الفرضية التي قاطع بها المفتي. «لا تستغربوا، نعم يتخوّفون من غزو كغزو طارق وموسى بن نصير لإيبيريا وأوروبا. ليس بالسلاح والسفن والخيل والقتل، ولكن عبر الهجرة بأنواعها. كل البوارج والحدود فشلت في وقف سيل المهاجرين الباحثين عن الغنيمة. كل شهر يصل إلى إسبانيا وإيطاليا وفرنسا وغيرها من دول أوروبا أكثر من القوات التي دخل بها طارق الأندلس. ذكور وإناث وأطفال يستغلّون القوانين الإنسانية التي تحميهم وتدعمهم وتطعمهم وتشغلهم، ثم يتمسّكون بدينهم أكثر من تمسك أهلهم به في بلادهم الأصلية. كل عام تتزايد الأعداد والنسب بين السكان لصالح المسلمين. شوارعنا امتلأت بالجلاليب واللحى والبراقع والحجب. كيف تتصوّرون الوضع بعد عشرين عاماً إذا استمرّ هذا التدفق؟ هل الغزو ما يتمّ بالسلاح فقط؟ كم كنيسة تقام سنوياً في بلاد الإسلام وكم جامعاً يقام في بلاد النصارى؟».

«إذا فشلتم يا أوربان في كسب الناس لدينكم، ولم تفلحوا في حماية مؤسسة الزواج وفي تشجيع الإنجاب، تضعون اللوم على مَن يحضرون لمساعدتكم، ثم يلجأ البابا للتزييف والهجوم على الإسلام

ذاته كدين، وعلى أتباعه تبريراً لمضايقة المسلمين وطردهم، كما فعلتم مع اليهود، هل هذا ما تريد قوله لنا؟».

«لماذا تستغرب ذلك يا شيخ عز، أنت تغيِّر الموضوع. نحن لم نطلب مهاجريكم، تماماً كما أنكم لم تطلبوا جندنا. الفارق أننا نتعامل مع القادمين بإنسانية حتى لو كان في ذلك تشجيعاً لغيرهم، بينما في بلادكم يرقص المتطرفون في الشوارع ويحرقون الكنائس القليلة ويقتلون راهبات عجائز وهبن سنوات عمرهن لتضميد جراح فقرائكم. نسبة البربرية بين متطرِّفيكم أضعاف ما هي عندنا. دعونا نتّفق على ذلك».

«لن يتّفق أحفادنا على الأرض حول نقاط خلافهم، ولا يهمّ أن نتّفق حول هذه الشؤون هنا يا ريتشارد. من يستحق الجنّة سيدخلها بإذن اللَّه في حينه، ومن يستحق النار سيقطنها حتى يشاء اللَّه له الفرج. السؤال الآن يدور حول رؤانا لموعد يوم القيامة». ظهر على ملامح صلاح الدين فتور أثناء توجيه حديثه لريتشارد والآخرين. «أظن أنك لست الوحيد الذي يتمنّى تأجيل الموعد. تظن أن قومك يعيشون في جنّتهم على الأرض ولا داعي للعجلة طالما أنهم المتفوقون. ولدينا من يظن أن المسلمين يتقدّمون وينتشرون مع دينهم، وأن من يسقط مجاهداً في سبيل حياته ودينه سيدخل الجنّة، أي أن المسلم يربح في الحالتين وبالتالي لا بأس من تأخير موعد القيامة».

حرمات رمضان

«هل تصومون، نصوم رمضان هنا؟ عفواً فهذا أول رمضان لي في الجنّة».

«عندما يتأكّد للمسلمين على الأرض رؤيتهم للهلال فإننا بالطبع نصوم معهم». أجاب صلاح الدين همساً يماثل استفسار العامري حتى لا يحرجه أمام الجماعة الذين أخذوا يهنّئون بعضهم بعضاً باقتراب شهر الرحمة. «هل كنت تصوم رمضان في قرطبة وتمتنع عن الخمور بعد الإفطار؟».

«بالطبع فرمضان يختلف عن بقية الشهور وكنت ألتزم العبادات والجهاد». لم يكن المنصور واثقاً بما يقوله للناصر إذ تأكّد له أثناء الحساب، قبيل إرساله إلى جهنّم، أن العدوان في رمضان حرام، حتى لو كان ضد الجيران الكفار. «سبب سؤالي هو ظني أن الصيام هيِّن في الجنّة، وقد لا يكون مطلوباً لأننا لا نشعر بجوع أو بعطش، ولا يوجد قمر ولا شمس ولا ليل أو نهار أو فجر أو غروب نسترشد بها». كاد أن يسأل عن سبب وكيفية الصيام والحال هكذا، لكنه كفّ لسانه إذ ضحك الحضور عندما سمعوه، بعد أن نسي مواصلة الهمس أثناء حديثه مع صلاح الدين.

«التعبّد للّه واجب على الأرض وفي السماء. أخذنا الثواب بدخول الجنّة لنواصل الشكر بالتعبد. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾. قال الشيخ يوسف وهو يربّت على ركبة

المنصور الذي جلس بينه وبين صلاح الدين. «المواعيد ليست مشكلة لنا. لسنا مثل دول المسلمين على الأرض التي لا تتّفق على رؤية الهلال، أو بداية موحدة لرمضان ويوم عيد مشترك لكل المسلمين. الأعمال بالنيّات، ولدينا الهبة الإلّهية لمعرفة الأوقات للإمساك والإفطار. كما رأيت، فرغم عدم حاجتنا للطعام إلّا أننا نأكل ونشرب وننكح ونتمتّع بنِعَم الجنّة، وهذا كله يمكن الصوم عنه كما كنا نفعل على الأرض وكما أمرنا اللّه في كتابه: كتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم».

«وهل سيصوم زوارنا من أهل الذمة طالما أنه كتب عليهم من قبلنا؟».

«هذا يا محمد يعود لذمّتهم ومروءتهم. لا فرض عليهم بالصيام مثلنا، لكن لا يُفضل أن يأكلوا علناً. أعتقد أن الغلمان لن يقدّموا لهم مأكولات في أوقات الصيام». يبدو أن إجابة يوسف عن سؤال العامري لم تكن كافية لصلاح الدين إذ قال:

«زوارنا من أهل الكتاب لا يأكلون في جنّاتهم، وكانوا يصومون على الأرض ضمن شروط مختلفة عنا. لا أتوقّع منهم هنا ممارسة جُهلاء، أنا متأكد أنهم سيتصرّفون أفضل من الكثير من المسلمين على الأرض، الذين يجهرون بتناول الطعام والشراب أمام إخوانهم من الصائمين».

أظهر ابن خلدون اهتماماً برأي صلاح الدين وكان يجلس بين آخرين في الصف المقابل. «حتى الذين يصومون على الأرض عن الطعام والشراب، لا يصومون عن عمل محرمات توجب الكف عنها. لا يكفّون عن النميمة والحقد، ولا يغضّون البصر، ولا يتقنون عملهم بل يتهرّبون منه بحجة الصيام. الأمر أصبح للكثيرين لا يتعدّى استبدال مواعيد الطعام. يصومون في النهار ويتناولون

عدة وجبات دسمة ليلاً. كمية المأكولات المستهلكة تتضاعف، وأثمانها ترتفع عن معدلاتها، وتكثر في البيوت أنواعها، وتظهر الفوارق جلية بين الأغنياء والفقراء، ويتجلّى جشع التجار. غرض شهر الصيام هو عكس ما يحدث تماماً».

«لكنهم يتعبّدون ويزورون المساجد ومما رزقهم اللّه ينفقون».

«بعضهم يا شيخ يوسف يفعلون ما تقول، لكن الأغلبية يُفرطون في تناول الطعام والشراب، ويغشون في إخراج الزكاة. كلما زرق اللّه فقيراً أو غنياً درجة يزداد بخله درجات. الصيام بمعناه الشامل وحكمه وأحكامه، ركن أساسي للعبادة، ولذلك خصّص الرحمن باباً في الجنّة لا يدخل عبره إلّا الصائمون. لا يوجد باب خاص للمصلّين أو للحجّاج، كما تعرف، وإنما للصائمين نظراً لصعوبة هذا الفرض الذي تحوّل على الأرض إلى مهرجان وعبء على الناس في مجاراة بعضهم بعضاً في التظاهر. إنهم يفطرون جهاراً على الرغم من تحذير النبي الكريم لهم بأنه شاهد، أثناء الإسراء به، المفطرين يعلّقون بعراقيبهم في جهنّم، مشقّقة أشداقهم وتسيل دماً». خطر للعامري بعد هذا الحديث لابن خلدون أن يسأل إذا كان أحد الحضور قد دخل الجنّة من باب الريان المخصّص للصائمين، ولكنه أحجم عن السؤال وواصل الإنصات.

«حتى في الحياة الدنيا يتمّ معاقبة المفطر المستحلّ لذلك وهو عالم بتحريمه، إذ أفتى شيخ الإسلام في جزيرة العرب بوجوب قتله. على الأقل المفطرون هناك، في الجزيرة، يفعلونها سراً. لكنك، بالحدّ الأدنى، تظلم البسطاء من المسلمين وبعض أهل الخير بتعميم التهمة». هكذا تدخّل جمال في الحوار بعد تجرّعه عسلاً من كأس فضي شفاف لا مثيل له على الأرض، وأضاف: «الفلاحون والقرويون يخشون ربهم ويبذلون ما في وسعهم لكسب

حسنات الشهر الفضيل، ويلتزمون بحكمه وأحكامه بأفضل مما تعلّموها من المشايخ. مثلاً في ريف مصر وصعيدها، وفي السودان أيضاً يفطر الناس سواسيةً فتتنوّع الأطعمة، ولا يتركون عابر سبيل إلا يجبرونه على الإفطار معهم. لهذا يفتحون أبواب منازلهم قبيل أذان المغرب وأثناء الإفطار لتصيّد الحسنات. ولأن هذا الكرم صعب تقليده في المدن، تجد بعض الأغنياء يقيمون موائد الرحمة في الشوارع ليؤمّها كل محتاج وكل مسافر أو من تأخر في طريقه لمنزله. هذا التقليد متوفّر في كل مدن المسلمين تقريباً».

«حتى في مدن النصارى تقام موائد رحمة». تدخّل المفتي بحماس: «لقد قرّر المسلمون في ألمانيا هذا الأسبوع فتح أبواب مساجدهم الثمانمئة للألمان ليطّلعوا على ما يدور بها أثناء الصلاة وليسمعوا الخطب، وعزموا على إقامة موائد إفطار في المساجد ودعوة من يرغب لمشاركتهم في الإفطار والتحدث معهم حول الإسلام. هذه فائدة إضافية لشهر الرحمة فقد تتحسّن علاقات المسلمين بجيرانهم وتحنّ أفئدة النصارى إلى الإسلام. فالحب يمرّ عبر المعدة، كما يقول مثل ألماني». ضحك الجمع من إشارة المفتي لحب المعدة، ثم أضاف وكأنه يريد إقناعهم بمتابعته شؤون المسلمين في بلاد أخرى غير ألمانيا: «في أميركا الوضع مختلف، فقد منعت السلطات زيارات أئمة من مصر وبلاد عربية. الجوامع الأميركية التي تريد كسب إمام متمكّن في شهر رمضان أصبح عليها أن تدفع للإمام بين عشرة آلاف دولار لصلاة تراويح واحدة وسبعة آلاف دولار مقابل خمس ليال للإمام الأقل شهرة. هكذا لن يستمع رواد عشرات المساجد إلى أئمة من أهل الخبرة في هذا العام، فعددهم في أميركا قليل والطلب عليهم ارتفع، وزيارات أمثالهم من

الخارج مُنعت بحجة الخوف من الخطب المتطرفة». ارتفعت همهمات استنكار ودعاء اللّه لإزالة الصلف الأميركي.

«لماذا الاستنكار؟» للغرب عذر في التخوف هذه الأيام من المسلمين. لا تنسوا عمليات قتل الأبرياء وصدم البرجين في نيويورك، وتذكّروا أن كل ذلك أصبح له أنصار من الشيوخ وأهل الإفتاء الذين يروّجون للعداء». صمتوا حتى يستكمل الشيخ محمد رأيه ويطلعوا على بعض ما اهتمّ بتتبعه ومشاهدته على الأرض: «إن الإقامة في بلاد الكفّار خطر عظيم على دين المسلم وأخلاقه وسلوكه وآدابه، كما تقول فتوى لشيخ الإسلام طبعت في كتاب يوزّع مجاناً في الدول العربية والإسلامية.. فالإقامة في بلاد الكفر لا بدّ لها من شرطين أساسيين حسب فتواه: الشرط الأول أمن المقيم على دينه وأن يكون مضمراً العداوة للكافرين وبغضهم مبتعداً عن موالاتهم ومحبتهم لأن موالاتهم ومحبتهم مما ينافي الإيمان، ومحبة أعداء اللّه من أعظم ما يكون خطراً على المسلم، والشرط الثاني للإقامة في بلاد الكفر أن يتمكّن المسلم من إظهار دينه. كيف إذاً نتوقّع من الكفار استقبال الأئمة وتفهماً لديننا ورفقهم بالمسلمين في بلادهم؟».

«كل واحد يعمل بشرعه وقوانينه وأخلاقه يا شيخ، لكن دعونا من أهل الإفتاء ومن سيرة الدولارات وحب بعض الشيوخ لها». عاد العامري للحديث فتنبّهوا له متوقّعين مجدداً آراء غير تقليدية من هذا القادم إليهم من جهنّم، وشعر بعضهم بارتياح من قفزه بعيداً عن شأن فتاوى كالتي ذكرها الشيخ محمد. «فوائد الصيام للإنسان على الأرض معروفة، فإلى جانب أن الصيام للّه، فهو أيضاً يحدّ من اندفاع الحواس. عندما يشبع البطن يجوع اللسان والعين واليد

والفرج، وهكذا فالصيام وجوع البطن يقهران الشيطان عند الإناث والذكور. كما أن الصائم يحسّ بألم الجوع وبحال الفقراء فيندفع لفعل الخير، وفيه قهر للطبع وفطم للنفس عن مألوفاتها وتعوّد النظام والمواعيد وغير ذلك الكثير المتجدّد علمه تباعاً. لكن هنا في الجنّة لا يوجد فقراء لنحسن إليهم، ولا شياطين نقهرها، ولا محرّمات نبتعد بالصيام عنها، والجوع لا يردعنا جسمانياً لأننا نحيا ونفعل ما يحلو لنا حتى من دون تناول أي طعام».

«أعتقد أن حديث النبي، صلَّى اللَّه عليه وسلّم، أصابك حين قال: رُب صائم ليس له من صيامه إلّا الجوع». لم يعجب العامري ضحك معظم الحضور على تعليق المفتي الذي عاد ليؤكّد أن الصيام هنا طاعة وتعبُّد، وقال آخرون إنه تغيير لروتين اليوم التقليدي في الجنّة، وسُمع من قال إن أهل الجنّة يعايشون أهلهم وأمة الإسلام على الأرض عن قرب أثناء شهر رمضان. لمعت في رأس العامري فكرة للردّ على فصاحة المفتي بمثلها.

«أعرف ذلك الحديث الشريف، وأعرف حديثاً آخر للرسول الكريم يقول فيه: (ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن). وهذا معناه أن العاقل إنما يريد أن يأكل ليحيا لا أن يحيا ليأكل». لمعت في عيون العامري رغبة في المناكفة، فتدخّل جمال للحدّ من احتمالات توسع التراشق قبل رمضان بيوم:

«غداً كنت سأطلب منكما قول اللهمَّ إني صائم. لكن اليوم أودّ القول إن كلاكما على صواب. شهر رمضان على الأرض تحوّل إلى شهر تخمة وأمراض للمعدة لدى الكثيرين، فالفقراء أيضاً يتناولون ما يقع بين أضراسهم دون رحمة لبطونهم. لكن يا محمد فكل الأحاديث النبوية إنما قيلت لأهل الأرض حتى يتهذّبوا،

وإكثارنا من الأكل هنا في الجنّة دون حاجتنا إليه ما هو إلّا شكر للّه على نعمه، وهو طعام لا يضرّ بالأمعاء».

وصلهم صوت جبرائيل معلناً لكل الضيوف، أعضاء المؤتمر، أينما كانوا في الفردوس بأن غداً بداية شهر رمضان، ومن يرغب في الصوم فعليه أن ينوي. قال جبرائيل أيضاً إن المؤتمر لن يعقد جلساته النهائية إلّا بعد عيد الفطر. انتهى النداء بالمباركة والطلب من المسلمين إرشاد بقية الضيوف لظروف الصيام. باركوا لبعضهم بعضاً مصافحين مقبّلين، لكن وجه العامري غلب عليه لون خليط بين الأصفر والأخضر، فبدل أن يبتهج لضمان الإقامة شهراً كاملاً في الفردوس، تبادر إلى ذهنه احتمال أن يعود إلى جهنّم إذ لم يتأكّد بعد من مصيره بعد المؤتمر.

اجتمعوا في اليوم التالي مبكراً قبل موعد الإفطار في صفّين متقابلين تفصل بينهما مناضد من العاج والأبنوس، ذات أرجل قصيرة مرصّعة بالزبرجد. بعضهم كان جالساً على مؤخرته، وغيرهم متّكئاً على كوعه فوق وسائد ناعمة، وبعضهم الآخر شبه مستلقٍ على البسط الوثيرة وكأن الجوع أنهك قواهم. لم يكن من السهل اشتراكهم جميعاً في حديث واحد إذ تجمّع كل المدعوين للمؤتمر على موائد الإفطار، فانغمست كل جماعة متقاربة في أحاديث متنوعة.

«علمت اليوم أن جماعة من شهداء لبنان وصلوا إلى الفردوس، معظمهم ممن كانوا أطفالاً، ورافقهم القتلى من ذويهم». قال حسين مخاطباً كمال على مسمع ممن يجاورهما.

«عندي سؤال في شأن الشهداء» أعلن رونالد مستعجلاً قبل إكمال حسين حديثه المتروي شبه الحزين. «الميت الذي تنطبق عليه

متطلبات الشهادة، ولكنه لم يكن عازماً أن يصبح شهيداً، ما هو مصيره؟».

«الذين وصلوا للفردوس من لبنان كانوا من بين الذين هدمت بيوتهم فوق رؤوسهم. كلهم مسلمون يؤمنون باليوم الآخر ويتمنّون دخول الجنّة». أكمل حسين ما كان قد بدأ به ثم تحوّل إلى رونالد ليكمِّل الإجابة عن سؤاله بوضوح: «لا أعتقد أن أي شخص يدخل إلى الجنّة بالإكراه، وإذا كان يستحقّها ولكنه رفضها أثناء ساعة الحساب فبوسعه الذهاب إلى جهنّم، لا يوجد حل وسط. وإذا خاف من رفض قبول منحة الجنّة فبوسعه الانضواء في أي زاوية في الجنّة والانكفاء عن نعمها ورغد عيشها». كان حسين وهو يتحدّث يفكّر في سبب هذا السؤال الغريب، فقرّر الاستفسار من رونالد عن غرضه.

«ربما أسأت التعبير عن نفسي. أردت معرفة مصير الذين يُزجّ بهم في الحرب أو في عمليات انتحارية بعد منحهم وعوداً بالجنّة. ماذا لو كان أحد الجنود من هؤلاء لا يريد الذهاب إلى الجنّة ولكنه يخاف رفض أوامر الذهاب للحرب، ثم يقتل في العملية، هل يذهب للجنّة كشهيد؟».

«معظم أهل الفردوس ليسوا من الشهداء. ويمكنني التأكيد أن الكثير ممن ماتوا بصفات كنا نظن أنها تعني الشهادة، لم يصلوا بعد إلى هنا». شدّد كمال على كلمات، لم يصلوا بعد، وأضاف: «الخالق العليم لا يخفى عليه شيء مما يقال علناً أو يُضمر في السرائر، وهو الحكم يوم الحساب. في الإسلام يا رونالد لا يملك الحاكم، أو المفتي أو أي بشر آخر، حق منح شهادات وتذاكر إلى الجنّة، أو إصدار أحكام تقود إلى الجحيم. يمكنهم فقط التمنّي والدعاء، لا أكثر». كاد أن يسأل حسين إذا كان أحد قد وصل من

جماعتهم في غزة، لكنه لم ينطق بالسؤال خوفاً من تلقّي إجابة لا يتمنّى سماعها أمام هذا الجمع.

«أعداد كبيرة وصلت من العراق إلى طبقات أخرى من الجنّة». قال حسين وكأنه قرأ في عيون كمال ما أراد معرفته.

«أعذراني مجدداً، أثناء إعداد تمثيلية يوم القيامة اطلعت على القرآن الكريم وعلى أحاديث نبوية وقصص سائدة بين المسلمين. جاء في سورة التوبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ والرسول الكريم بشّر الكثيرين بالجنّة، بل شاهد بعضهم فيها أثناء حياته على الأرض، حسب ما جاء في الأحاديث». تركا رونالد يسترسل في شروحاته التي يغلّفها بالتساؤل، ولكز حسين بكوعه الشيخ يوسف الذي كان يشارك في حديث جماعة مجاورة. «مثلاً جاء في حديث قول الرسول الكريم (دخلت الجنّة البارحة فرأيت الرميضاء في الجنّة) كما تعرفون فهي أم سليم التي قبلت أن يكون مهرها قول لا إلّه إلّا اللّه، وهذه الجملة بالمناسبة تضمن لقائلها الجنّة. وفي معركة بدر قال الرسول (يا أهل بدر ما بينكم وبين الجنّة إلّا أن يقتلكم هؤلاء). فتحمّس الرجال للموت طلباً للجنّة ومنهم عمير بن الحمام الذي رمى التمرات من جرابه إذ قرّر أن لا يتناول طعامه إلّا في الجنّة، وكسر غمد سيفه وهجم يقتل في الأعداء. وهناك الأعرابي الذي دخل على الرسول وعدَّد أمامه أركان الإسلام الخمسة ومنها قول لا إلّه إلّا اللّه، فقال الرسول (من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنّة فلينظر إلى هذا). هذه الأمور دارت في ذهني فقلت ماذا عن رجل يموت في حرب ولكنه لم يكن مثلهم عازماً على دخول الجنّة».

«شوف يا رونالد حتى تريح نفسك. يجب أن تصفِّي نيّتك وإلّا لن يحتسب اللَّه لك صيامك، وحينها يمكن أن تعود إلى جهنّم. اعلم أن كل المسلمين يحبّون دخول الجنّة، وهي جائزة المؤمن، ومَن لم يحلم بها فلا مبرِّر له أن يكون مسلماً. كل الديانات تعاقب بالنار وتكافىء بالجنّة، ومَن لا يصدِّق بالأمرين فهو غير مؤمن ومصيره إلى النار». تروّى الشيخ يوسف لحظة من دون أن يزيل ناظريه عن وجه رونالد المتبسّم ببعض الاستغراب من لهجة الشيخ الذي انضمّ إلى حديثهم: «أنت محق في أن يخربطك موضوع الأحاديث، فهي كثيرة ومتداخلة إذ صعب على أهل الأرض تنقيتها وغربلتها. مثلاً هناك حديث آخر نسب للرسول حين سمع بعض الناس يقولون عند موت عثمان بن مظعون: هنيئاً له من أهل الجنّة، فغضب النبي عليه السلام وقال: «أنا، أنا رسول اللَّه، والذي نفسي بيده لا أعلم ما يفعل بي». علماً بأن عثمان هذا مات في الحرب بكل صفات الشهداء».

«شكراً فهمت. قصدك أن لا نصدِّق الأحاديث، أو على الأقل نصدِّق ما يناسب منها! يعني قصة ضمان الرسول الجنّة لعبد اللَّه بن أنس لأنه قتل خالد بن سفيان وحزّ رأسه وحمله إلى الرسول، هذه قصة غير صحيحة، وخصوصاً ما قيل إن الرسول أعطاه عصاه ليتوكّأ عليها في الجنّة؟».

«بإمكانك يا رونالد أن تسأل جبرائيل إذا كان في أي من طبقات الجنّة ساكن بهذا الاسم ويحمل عصا الرسول. لو كنت مكانك...» تدخّل حسين مجدّداً لنزع الفتيل وتهدئة رونالد وأكمل: «... لصدقت كل القرآن وبعض ما يناسب من أحاديث مقبولة. تأمل في قول ربنا تعالى شأنه ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ وفيما رواه البخاري من حديث «إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ

أَبْوَابِ الجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ» تعبّد يا رونالد واستفد من هذا الشهر الكريم لعلّك تبقى جارنا، أو تُرسل إلى جنّتكم». لم يعلِّق رونالد إلّا بمصِّ الشفتين وهزّ برأسه الذي كان يفكّر بأمنية اللقاء مع نانسي في الجنّة. لحظات الصمت أسمعتهم حديث جيرانهم فالتفتوا إليهم منصتين.

«للأسف لا أرى الإسلام يطبّق بشكل إيجابي في أي من الدول العربية، بل إنهم لا يحترمون شهر رمضان وروحانيته. انظروا إلى الفلسطينيين المحتلين، يشكون دهراً للعالم من ظلم الاحتلال، وها هم يقتلون بعضهم بعضاً بأشدِّ الأساليب همجية في صراع على ما لا يتجاوز كراسي منخورة. وفي لبنان صراع شبه خفيّ بين الطوائف وقتال بين الأحزاب. وفي العراق ازداد ذبح بعضهم بعضهم الآخر وها هم يقتلون على الهوية دون توقف احتراماً لرمضان. يقتلون إخوتهم وجيرانهم ويعذّبون في النهار ثم يصلّون المغرب بعد الإفطار ليعودوا للخطف والاغتصاب وجزّ الرقاب بين صلاتي العشاء والفجر». لم يعترض أي من المستمعين على كلام مارتن، بل حاز تأييداً بين متأفّف ومتأسّف، أو مؤرجحاً لرأسه، أو مطرقاً في الموائد التي باشر الغلمان بتعميرها مما يدور في خلد الحضور من طيب الطعام وتركوا للضيف حق استكمال حديثه: «الدول الأخرى ليست أفضل التزاماً بروح وتعاليم الإسلام. يمكنني تلمُّس توافق بين أطياف وتوجهات إسلامية وبين حكام تلك الدول ضد عامة الشعب. الحاكم يترك للخزعبليين حرية التخريف في مقابل أن يؤيِّدوه في الكرسي ويسكتوا عن توريثه لأبنائه. هذا لا ينفي خلاف الحكام مع أطياف أخرى تدّعي تمثيل الإسلام الأصح. الضحية هم الناس والمجتمع وسماحة الدين، والنتيجة هي الارتداد بعيداً إلى المجهول. الوطن يفرّ من بين أيديهم بينما تتشكّل حكومات ظل

خفية تطلق الفتاوى وتحرِّم وتحلِّل بشكل مخالف وموازٍ لقوانين الدولة، بل تتدخّل تلك الأطياف في السياسة الدولية بعقلية عصر الجاهلية».

«لكن هؤلاء الذين تنتقدهم هم الأوصياء على دين اللّه وتطبيق شريعته».

«متى وأين ومن قال ذلك يا أخي؟» شارك ابن خلدون في الحديث ردّاً على تعليق خالد وذلك باحترام أقرب إلى كبت نغمة الصوت، ولم يترك له فرصة الردّ بل استرسل في مداخلة يبدو أنها قناعة رسخت في ضميره إذ تحدّث بشكل سلس من دون أن تظهر عليه ملامح التفكر والتذكر. «القرآن أكّد أن الرسول، عليه الصلاة والسلام، هو خاتم الأنبياء. أي أن عصور الوصاية قد ولّت، وأن السماء لن تتدخّل في شؤون الأرض أو في إرشاد سكانها بأكثر مما حملته لهم سلفاً الديانات السابقة وخاتمها القرآن. هذا يحمل معنى أن العزيز الجبّار أراد منح الإنسان، بعد تنزيل ونشر الإسلام ونوره، حرية التصرف كإنسان بالغ للرشد يدير أحواله بدون رسل وبدون أوصياء جدد، وحتماً من دون انتهازيين يركبون موجات غريبة باسم الإسلام».

«هكذا تتعزّز الفتنة بين المسلمين، وليس وسط العرب فقط، وتختلف مللهم وميولهم». قال كمال مؤيّداً لابن خلدون ومعمّماً ما سبق وخصّ به مارتن العرب على بقية المسلمين.

«الصحيح أن الدول العربية تختلف عن بقية الدول الإسلامية. شيوخ العرب من كل أنواعهم هم الذين يُصدرون الأفكار لبلاد المسلمين، والمنبع الأهم يخرج من بلاد الحرمين ومن دول الخليج، التي هي الأشد تميّزاً بين دول الإسلام، يطبّقون الدين بنظام لا يتماشى مع تطورات العصر». كان رابين يزن كل كلمة

حتى لا يجرح شعور المستمعين في حفلة الإفطار. توارد في ذهن حسين منظر لقطار حديث سريع وركابه في انبساط ووئام، يقابله في الاتجاه الآخر قطار بخاري ركابه بجلاليب وعِمَم، مدجّجون بالخناجر ويتطاير الغضب من عيونهم، لكنه لم يعلن الصورة التي ترتسم في خلده.

«إذا كنا سنفطر مع بلاد الحرمين فقد حان الموعد، ما رأيكم؟» سأل ياسر بصوت جهوري تاركاً شريكه ليكون آخر المتحدثين قبل الانشغال بالطعام. وجاء الجواب من عدة اتجاهات باستحسان اقتراحه. «إذاً دعونا نكسر الصيام بتمرات وجرعة ماء ثم نتواصل مع الطعام بعد صلاة المغرب». تبسّم أكثر من واحد كانوا يعرفون أن ياسر لم يكن يساير هذه السنّة النبوية، بل كان يصلّي بعد الانتهاء من تناول طعام الإفطار.

التأنّث حلاً!

«افتقدناكِ بالأمس على مائدة الأفطار، عساكِ بخير». جاء السؤال من أم أناس إلى بهيسة أثناء انتظار جمع من الإناث لتناول طعام الإفطار الذي تلتقي حوله معظمهن يومياً في المغرب أثناء شهر الصيام.

«لاحظت تردُّد الحارث في الذهاب إلى إفطار الرجال، فشجّعته على البقاء في بيتنا وانشغلت معه في إعداد الطعام بدل إحضاره جاهزاً بالتمنّي. أفطرنا وتسامرنا طويلاً من دون إشراك أي من الحوريات في جلستنا». جاء هذا الردّ بمثابة تمهيد لإعلان عن تغيُّر ذي أهمية، وتنبّهت حواس المستمعات للتفاصيل كون بهيسة ممن يؤيِّدن فكرة إقناع الرجال لتغيير رؤاهم وممارساتهم، علماً بأنها لم تكن قد حسمت رأيها إذا كانت المساواة المرجوّة يمكن أن تتم بتقريب النساء من مزايا الرجال، أم بحرمان هؤلاء من الهبات غير الممنوحة للنساء.

«قال إن علينا الابتعاد عن الجحود وأن نكتفي بالتمنّي من أجل التغيير، على الأرض وليس هنا في الجنّة، ولكن نجاح التغيير هناك سوف تنعكس نتائجه على السلوكيات هنا بالطبع». امتطت شفاه بعضهن، وارتفعت حواجب أخريات عند سماع هذا الرأي: «صبركن، هذا ليس بالجديد. لقد تطوّر حديثي مع زوجي إلى تمعُّن في الفوارق بين صفات الإناث والذكور، ويرى الحارث أن ثقافة

الرجل وحكمه وأسلوبه على الأرض أنتجت الكوارث والمآسي منذ القدم وحتى الآن. وقال إن مطالبتنا بمساواة الأنثى بالذكر سوف تعزّز ذلك الوضع المأساوي بفعل أنثوي يقلِّد الرجال، واستشهد بأن كثرة من الإناث اللواتي امتلكن القرار السياسي على الأرض، لم يصنعن شيئاً أفضل من نظرائهن كونهن قمن بالتقليد، بينما نجح قلّة من الرجال في سياساتهم لأنهم تشرّبوا الصفات الأنثوية».

«لكن الشركات التي تديرها الإناث أو تتحكّم في قراراتها أغلبية نسوية هي في النهاية أنجح من الشركات تحت الهيمنة الذكورية البحتة. هذا ما تثبّته الاستطلاعات على الأرض، وما نراه نحن أيضاً من هنا. كذلك..» لم تكمِّل بكارة مقاطعتها إذ طلبت منها ليلى عدم الخروج عن الموضوع قيد النقاش وأن تترك لبهيسة فرصة مواصلة الحديث.

«قارن زوجي في قضية الحرب والعنف بين أميركا وأفغانستان. الأولى تقنن للتساوي في الإناث والذكور، ولا يعيق النساء أي تشريع إذا سعين لتبوؤ أعلى المناصب، فمنهن مجنّدات وطيارات وبرلمانيات ووزيرات، وربما قريباً تصبح إحداهن رئيسة للولايات المتحدة. على الطرف الآخر في أفغانستان لا حقوق أو أي دور يذكر للإناث بل هنّ تحت الاضطهاد المتنوّع. لكن سياسة البلدين متشابهة في قرارات الحرب والعنف والإرهاب والقتل والانتقام والاعتقال بدون محاكمات». نظرت إليها باستغراب وتعجُّب، وبدا أن معظمهن لم يستوعب الفكرة بعد.

«تقصدين لو أن النساء، عندما يمتلكن القرار السياسي عبر المساواة، يحتفظن بخصائصهن الأنثوية لاختلفت السياسة الأميركية عن الأفغانية؟».

«بالضبط وأكثر». قالت بهيسة مؤيّدة استنتاج أمامة المبدئي ثم

أكملت: «طبيعة الإناث تختلف عن الذكور، ولو لم نسع إلى تقليدهم وصولاً إلى المساواة، بل طالبنا بحقوق كاملة لنا ضمن طبيعتنا الذاتية، لو فعلنا ذلك لنجحنا في تغيير الرجال، أو على الأقل تمرير رؤانا عندما نتملك قرار الفعل، وهي رؤى متنوّعة تبغض الحرب والعنف».

«تريدين، أو كما يرى زوجك، فالمطلوب هو تأنيث الذكور؟» لم تنجح بكارة في إخفاء الاستهجان في لهجتها، وربما لم تكن تريد إخفاءها أصلاً، فهي صاحبة رأي للمساواة بأن تنال كل أنثى في الجنّة سبعة ذكور على الأقل مقابل السبعين حورية للرجال.

«ليس بالضبط، فالوضع الأمثل هو أن يكتسب الرجل صفات الأنثى ليكتمل، وأن نواصل نحن امتلاك صفات الذكر ولكن من دون التنازل عن خصائصنا. هذا هو السرّ. دعني أوضح أكثر». توجّهت نحوها العيون ولم تعد أي منهن تمتّع ناظريها باتساع النهر حيث جلسن إذ غدا أشبه ببحيرة، مياه ليست كبياض الحليب، وإنما خضراء اللون صافية العمق، ترى تحتها قطع اللؤلؤ والمرجان والحجارة الذهبية، وتتراقص على سطحها انعكاسات صور الفواكه على الأشجار في بطن جبل أقرب إلى نعومة التل عنه إلى قساوة الجبال.

«لنفترض أن إعلان يوم القيامة سيتأخر، أو لن يُتّخذ أي قرار بشأنه إثر مؤتمر الفردوس، وبالتالي تتواصل الحياة على الأرض». لم يعد لديهن شكوك أن بهيسة لديها الكثير من التنظير الجديد على مسامعهن، فواصلن الإنصات لها: «في القرن الأخير تمرجلت النساء عموماً، توازين في الكثير من الدول مع الرجال، جمعن بين قوتهن الأنثوية الأصلية وبين ما اكتسبن من مجاراتهن ومنافستهن للرجال، فأصبحن يجمعن بين الخواص الأنثوية والذكورية، أي

اكتملن كإنسان عاقل. لكن الرجال بقوا على حالهم ولم يكتسبوا شيئاً من خواص الإناث، مثل قابلية التفاهم، والتصالح، والتسامح، ومساعدة الآخر، وحب الترابط، ورقّة الإحساس، وحسن الذوق، والرحمة. ربما من قائل إن هذه الصفات متوفّرة لدى الرجال، لكن الصحيح أيضاً أنها باطنية ومختبئة لديهم وأنهم لم يتأنثوا في تطبيقها على غرار تمرجل كثرة من النساء واكتمال تكوينهن بامتلاك الشقين».

«لم أكن أعرف أننا أفضل منهم إلى هذه الدرجة، أو أن بعضاً منا أصبحن كاملات بامتلاك صفات الجنسين. لكن هل يمكن أيضاً تذكُّر أن الكثير من بنات حواء في بعض البلدان المتقدمة، كما يسمّونها، تمرجلن أكثر مما جمعن بين المؤنث والمذكر؟» لم تنتظر أم سلمة تلقِّي إجابة من أحد، فقد كانت منذ فترة تراقب عالم الإناث في الدول الغربية إذ يعجبها قسوتهن ضد الرجال وتطليقهن لهم وسحب نقودهم كبدل نفقة، بل أخذ نصف أموالهم عند الطلاق. واصلت: «لم تترك الإناث للرجال أي دور مميّز في الدول الغربية، لم تؤنّثهم ولم يتأنّثوا من أنفسهم، وبالتالي بدل أن يكتملوا تعقّدوا من شعورهم بنقصهم. لم يعد الرجل الغربي رب أسرة كما كان، وفي أفضل الحالات فهو الآن يبحث عن دور شريك مطاوع في تحمُّل مسؤوليات الأسرة. وبعد انتشار تطبيق التلقيح الاصطناعي لم يعد للرجال حتى ضرورة كمنجبين أطفال للأسرة، وفقدوا التفرّد كحامي ومُطعم الأسرة الذي أصبح دوراً تتحمّله، بانفراد أو بالمشاركة، غالبية النساء في الدول الغربية. هل تعرفن أن معظم الزيجات في الغرب تنتهي بالطلاق أثناء السنوات الثلاث الأولى؟ هناك مئة ألف مطلق كل عام في ألمانيا وحدها،

وهذا يشير إلى صعوبة التأنث للذكور، وربما خيالية الاكتمال للإناث».

«هذا بالضبط ما أقصده». قالت بهيسة في محاولة لتسخير موقف أم سلمة، وأكملت: «ليس في بلاد الألمان فقط والتي كانت مثل غيرها في الماضي تُلبس النساء حزام العفّة، ولكن في الكثير من الدول التي تعمّقت فيها حرية النساء على أساس من المساواة للرجل، أي تقليده، أصبحت الإناث بعبعاً للذكور، وتراجعت أعداد الزيجات، وابتعد الأزواج عن الإنجاب، وأصبحت إناث الأجيال الجديدة اللواتي ترعرعن على المساواة والحرية، يعانين من تعفّف الذكور وانعزالهم، بل خوفهم من إقامة علاقات مع إناث. لو سعين لتأنيث الذكور وابتعدن عن مساواة التقليد لكانت النتيجة تقارباً وتفاهماً أفضل بين الجنسين».

حان موعد الإفطار فقدّم الغلمان الطعام والشراب حسب تمنيات كل واحدة من الحاضرات، بعضهن حافظن على تناول وجبات تقليدية من زمانهن على الأرض، والبعض الآخر كن يجرّبن كل مساء وجبات جديدة مما يراقبن من مأكل خلفهن هذه الأيام. أكلن بتمهُّل الشبعان، وكثرت مداخلاتهن حول ما سمعن من بهيسة. شككت إحداهن في وجود فوارق أصلية في الطباع بين الجنسين، ونسبت الاختلاف الظاهري إلى تدرُّج وتضخُّم اضطهاد الذكر للأنثى حتى أصبح كأصل في الطباع. سبب الاضطهاد، حسب رأيها، عائد إلى خوف الذكر من الأنثى، فهناك شوق ذكوري دائم بالعودة للحضن والرحم، وخوف متواصل من تفوّق الأنثى جنسياً ولهذا يكثر اتهامها بالشهوة في كل المجتمعات والعصور، وكنتيجة للخوف

من قدراتها وإغرائها وإغوائها للذكور طالبوها بالعفّة وفرضوا عليها الحجاب والاحتشام، واتّهموها بنقص العقل والدين.

استنتجت أخرى مما سمعت بأن مرجعية الحروب والقتل تعود على الأغلب إلى الذكور، ولأن الحرب دليل على فشل الحلول الأخرى وتعبير عن هزيمة حضارية لمشعليها وأنصارها، فإن ثقافة الرجل تعاني من الفشل طوال دهور تسلّطه وحتى الآن. إنهم يصنعون المآسي ويتركون لنا التألم إذ قرّروا أن مظاهره ليست من خواصهم ولا يليق بهم الحزن والبكاء. الرجل يخفي هزيمته وخسارته بل يعتبرهما عاراً، بالرغم من أن التألم هو لون أساسي في حياتنا وصفاتنا التي جُبلنا عليها. حتى الديمقراطية الحديثة لم تخلق شراكة في التألم، اللهمَّ شراكة أنهم يصنعون المآسي ونحن نتألم.

تعجّبت أمامة، بنت الحارث، من عجز البشر على الأرض عن استيعاب آراء واضحة لبعض الفلاسفة الذين ينشرون آراءهم بكل الوسائل السريعة الانتشار. «العالم يكون أقل سلماً عندما نفقد الثقة بأن الناس مجبولون على الإنسانية والتراضي والتسامح». هذا نص مما أعجبها من أقوال أحد الفلاسفة. نص آخر يقول: «العالم يكون أقل سلماً عندما يعتمد الناس على قوة الابتزاز المسلحة أكثر من اعتمادهم على تعايش مؤسس على التعادلية والمساواة والحق». وقالت أمامة إن صحة هذه المقولة تثبت مرة بعد الأخرى، أي أن الحروب تشنّ في حالة هذا الافتقاد للثقة بطبيعة البشر، وعندما يُعتمد أسلوب الابتزاز. قالت أمامة، صاحبة الوصايا العشر، إن أوضح وأحدث الأمثلة هي أحداث 11 سبتمبر التي أثبت وقوعها أن الأمن المطلق شيء خيالي، ولكن بوش وضع رأسه في الرمال

وشنّ الحرب الانتقامية باسم الخير ضد ما اعتبره الشر. نتيجة لهذه الحرب، حتى الآن، أن العنف والإرهاب المضاد أصبح خطراً أعظم وأشمل من السابق. فالقوة الأميركية لم تضمن الأمن الأميركي أو العالمي وضاعفت من استعداد الانتحاريين وأخصبت أرضية وقوة الأصوليين وقضت للآن على الكثير من التسامح الذي توفّر سابقاً بين الأمم المتحدة والمعتقدات المختلفة.

«لنبق بعيداً عن السياسة فما اتفق توأمان على أي من شؤونها». قبل أن تعلِّق أي منهن على هذا التقييم لحديث أمامة كشأن سياسي أكملت بكارة قولها: «هل نفهم أن نساء الغرب تمرجلن ورجاله بقوا رجالاً يخافون النساء، وهؤلاء بدورهن يرهبن الذكر حيناً ويشتقن لعشرته كما في الماضي حيناً آخر؟ ظنّي أن الرجال جبناء انتهازيون، أنظرن إليهم يتاجرون بالصغيرات كالعبيد في بلاد التحرر الغربي حيث تعجز المؤسسات عن تحريم ومنع هذه الظاهرة، أنظرن إليهم في بيوت الدعارة هرباً من تحمُّل مسؤوليات أسرية. إنهم ضعاف شهوانيون يشبعون رغباتهم بأسهل الطرق كانتقام لتحرُّر النساء ومطالبتهن بالمساواة، أما رجالنا في الشرق فيفضّلون حشر حريمهم في البيوت وخلف الحجب لتأكيد أن هذا اللحم خاص بهم. في أحسن الأحوال فرجالنا ضعاف النفوس، يريدون حجب النساء حتى لا يتهيّجوا من قبلهن في الشوارع فتظهر طبيعتهم الحيوانية ويعجزون عن التحكم بأنفسهم. لو كان الرجل عفيفاً قنوعاً ومحترماً لا يعتدي على الإناث بيده أو لسانه أو فكره، لما توجّبت الحجب وقوانين التسلط على الإناث».

ارتفعت همهمات تعبِّر عن عدم تأييد لما سمعن من بكارة، ولكنهن تعوّدن آراءها الصدامية، وسمع صوت معارض يدّعي أن الإناث انعزاليات وتستشهد صاحبته بأن نساء الغرب يملكن طرق

التغيير عبر الانتخابات واختيار القيادات والسياسات ولكنهن في الغالب لا يبدين اهتماماً بهذا الحق المكتسب ويفضّلن الانقياد. «أو اقتنعن أن المساواة لا تحلّ المشاكل، وهذا يؤكد فكرة بهيسة بتأنيث الرجال». قالت أخرى بصوت لم تسمعه معظمهن.

رفعت أم أناس صوتها وهي تعيد جلستها بما يرفع هامتها بين المتكئات اللواتي انتقل معظمهن لتناول الحلويات. «لا تناقض بين نضال بنات جنسنا من أجل المساواة بالرجل وبين تأنيث الرجل. المساواة خطوة أولى كأساس للتأنيث. عندما تعمّ المساواة وتتفوّق الإناث لامتلاكهن الكمال بصفات الجنسين سيرى الرجال أهمية التقليد، وبالتالي التأنّث. يمكن أن نتّفق على أن المساواة صنعت بعض المشاكل، ولكنها في كل الأحوال أفضل من استمرار الاضطهاد الذي تعانيه الإناث. نرى من موقعنا هنا أن بعض المجتمعات احتاجت لنضال قرنين حتى نالت إناثها المساواة الحالية، وهناك مجتمعات لحقت بالركب خلال ربع قرن فقط كما هو الحال في إسبانيا وهي من الدول الأشهر في تمرجل الرجل. بفعل القانون الذي فرض المساواة وتمسك النساء بتطبيقه أصبحن الآن في وضع أفضل من نساء مجتمعات أعرق في تحقيق المساواة. أريد القول إن الأمر يحتاج لنضال نسوي أيضاً، وأن التأنيث للرجال هو خطوة متقدّمة يساهم فيها إثبات تفوّقنا عليهم».

«هذا معناه انتظار طويل لأخواتنا على الأرض، أظن أن ثورة جنسية هي أفضل الطرق لصدم الرجل وإجباره على احترام المساواة». ضحكن من انفجار أم سلمة ولم يعد صوتها مسموعاً وسمع من قالت إن هذا بالضبط ما يتمنّاه رجالنا، وقول أخرى، نعم طالما الأمر لا يخصّ حريمهم وأرحامهم. يفقدن بكارتهن في

الثورة ولا يجدن من يتزوّجهن بعدها، قالت ثالثة وردّت عليها أخرى بضحكة مجلجلة إن الثورة ستتزوّج بناتها.

«الشيء الجيد، فكراً أو فناً أو حتى طعاماً، لا يعجبنا عندما نكون نحن أقل من مستواه، أو من الأفضل القول، عندما لا نكون قد نمونا إلى مستوى استيعابه وتذوّقه». أنصتن بعد سماع هند تلقي بهذه الحكمة الحاملة لأكثر من هدف، فواصلت حديثها: «البشر أينما كانوا يسيرون بنسبة عالية حسب غرائزهم. قلّة نادرة عبر التاريخ هم من تمكّنوا من الاستفادة مما منحهم اللّه، عزّ وجلّ، بين أذنيهم. مخ الإنسان يؤهّله للتواصل التلباثي عن بعد، وبوسعه تحريك الأثقال وإنجاز مهمات صعبة عبر الإشارات. كم إنساناً سمعتم به له هذه الخواص؟ حتى الذين يستفيدون من نواحي المخ الأخرى والأسهل يعتبرون قلّة قليلة. الأغلبية تأكل وتنكح وتنام كالدواب تماماً. هناك من يحسن استعمال اللسان أو يطالع شيئاً مفيداً، وربما يتذوّق فناً، أو يفكّر في ما حوله وفي نتائج أفعاله. حتى هؤلاء فهم قلّة بين بني البشر. لانعدام الليونة وقلّة الاستفادة من المخ يصعب طبعاً جمع شمل أمة أو جنس على مواقف مشتركة ثابتة أو متغيّرة لتحسين وضعهم أو حل معضلات تواجههم. لو اتفقت أمة على شيء محدّد سيكون سهلاً تنفيذه، وكذلك الحال بالنسبة للنساء في أي بلد أو عبر العالم. ولكن يمكن للأفراد العقلاء حل مشاكلهم إذا كانوا هم أصحاب القرار وليسوا بحاجة لإقناع جموع أخرى بالموقف نفسه. لو اتّفقت النساء على صبغ الرجال بصفات الإناث لأمكنهن ذلك خلال جيل واحد أثناء تربيتهن لهم، ولكنهن في قلّة الاستفادة من المخ مثل الرجال».

واصلت هند محاضرتها وسط صمتهن: «هل نحن أفضل من الرجال؟ لا أدري. لقد سكتنا على الاضطهاد آلاف السنين، وحقّقنا

المساواة في قلّة من المناطق منذ قرن من الزمن، وما زال معظم بنات حواء تحت سلطان اضطهاد الرجل. فكرة بهيسة بتأنيث الذكور تصلح حيث تحقّقت المساواة ومن أجل تفادي بعض مساوئها، لكن التأنيث لهم مباشرة في بلداننا العربية والإسلامية صعب إن لم نقل مستحيل، لأننا بحاجة لتثقيف النساء أولاً. الحارث بن عوف، زوج بهيسة، يريد منا النضال من هنا لتأنيث الرجال على الأرض. هذا سيعني أولاً إقناع الرجال في مؤتمر يوم القيامة بتبنِّي الفكرة، ولو اقتنعوا بها هناك فسيكون عليهم تطبيقها هنا».

لاحظت هند أن ملامح القنوط اعتلت الوجوه ولم يقاطعها أحد فتحوّلت للقول بأن الأمل في الذين يصعدون السلم في الأرض إلى أعلى من دون أن ينسوا قوتهم الاجتماعية ومشاعرهم الإنسانية واهتمامهم ورعايتهم للآخرين. وهذه من أبرز خواص الإناث التي لم يكتسبها الذكور بعد، بمعنى آخر عالم أنثوي سيكون أكثر أمناً.

حامض حلو

«سامحني عن هذا السؤال يا حسين، وصلنا اليوم العيد، وتنبّهت أكثر من مرة كلما رأيتك تأكل لا تغيِّر طعام إفطارك. ما هذا الذي تأكله إلى جانب العنب، وهل واظبت عليه طوال رمضان؟ قدّم حسين طبق الملاحة إلى ابن خلدون الذي علّق بعد تذوُّقها: «خبز وبندورة وخيار وملح، طعمها بدائي، ما سرّها معك؟».

«أتذكّر بها أهلي هذه الأيام. كانت طعام الفقراء، وأصبحت الآن طعام غالبية المرابطين من خير أمة ممن يقطنون في جنّة اللّه على الأرض. بقايا الخبز الجاف مخلوطة مع سلطة وفلفل حار لفتح الشهية والتحايل على النفس بتناولها. يمكن أيضاً الاستغناء عن السلطة بشوربة عدس، واستبدال الفلفل بالبصل». صادف جيرتهم أثناء تناول الإفطار ريتشارد الذي مدَّ يده وجرّب الملاحة مع حبات عنب، ولم يظهر على ملامحه استطابة. «في العادة لا نخلط العنب مع الملاحة، ولكني أتناولهما معاً لأن العنب يذكّرني بقريتي في فلسطين. هل تدري أنها فازت بجائزة إنجليزية عن أحسن عنب في كل دول المستعمرات البريطانية؟... هذا قبل أن تزول المستعمرات وقبل أن يسلّم الإنجليز قريتي مثل غيرها لليهود». لم يسمع من شريكيه في تناول الملاحة أي تعليق، فأكمل لينفِّس الجو الذي حقنه حديثه: «العنب، والبطيخ أيضاً، طيب جداً مع جبنة الغنم وبعض الخبز. من يجرِّب توافق الحلو والمالح بهذه

النعومة سيدمن عليها». تذكّر أيام صباه، فإذا بشجرة عنب على شكل عريشة تتدلّى منها القطوف أصبحت بمتناول يده، وصحن من الجبنة أمامه. جرّب جيرانه طعامه هذا وأثنوا عليه.

«ها أنت تبتعد عن الملاحة، وغداً نأكل معاً من خروف العيد». ضحكوا معاً لكلام ابن خلدون.

«الحمد للّه على كل نعمه. منحني نصف حياتي على الأرض للعمل في الجنّة، ونصفها الآخر في جحيم اللجوء والعجز واللوعة، وها أنا من أفضاله في جنّة السماء المتقدّمة عن يوم الحساب». توقف عن الحديث عندما تذكّر الذين ولدوا في جحيم الأرض التي تزداد عليهم لهيباً. خاف أن يُخرج من فمه كلمات تناقض حكمة اللّه في خلقه. قفز إلى موضوع آخر هارباً من خوالجه: «كنت أمياً على الأرض، ومن نِعَم اللّه أننا هنا نجيد القراءة والكتابة وعلوم الرؤيا التي لم تكن تخطر على بالنا». تحوّل حسين عن ريتشارد إلى ابن خلدون في سؤال مباشر: «لماذا قلت في كتبك كلاماً قاسياً عن العرب، مثل أنهم يتنافسون في الرياسة فيتعدّد الحكام منهم وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام، فيفسد العمران وينتقض. أو قولك، إنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقاً وجبلة. أو اتهامك لهم بالنهب وقبائح أخرى؟».

«أتابع بغضب استنطاق مقولاتي الآن على الأرض في غير موضعها ومن دون فهمها. كلامي الذي ذكرته أنت الآن، وما شابهه، يجب أن يُنظر إليه كتحليل للماضي وتسجيل لحاضري حين كتبته. لم أقصد العرب بالمفهوم السائد الآن. قصدت عرب البداوة والهلالية الذين انتقلوا إلينا من الجزيرة العربية حتى وصلوا إلى تونس ناهبين مدمّرين ما في طريقهم. لو أردت غيرهم لوضعت

الصفات على المسلمين عموماً، لكن مثقفي هذه الأيام على الأرض لا يفهمون ما يقرأون، بل إنهم يؤولون القرآن. أنا كتبت لجيلي وللتأريخ ليرى القادمون كيف كنا، لا أن يطبّقوا نظرياتي على عالمهم بعد ستمئة عام». واستطرد ابن خلدون بعد تناول جرعة نبيذ، وواصل أكل حبات عنب من عريشة حسين:

«يقتبسون كلاماً لا ينطبق حتى على واقعهم. يريدون فقط استغلال اتهامي للعرب، ثم لا يرون بقية الجملة التي تؤكد أن المقولة لا تطابق حكامهم اليوم. الحاكم الآن لا يتغيّر إلّا بالموت ليخلفه وارثه. الحكام الفقراء يقبضون من دول أخرى، والحكام الأغنياء يرشون الناس حتى يسكتوا عنهم، بينما الأفضل أخذ جباية وضرائب لضمان رفاهية الجميع والاطمئنان إلى مستقبل المجتمع».

«الآن فهمت ما تعنيه بكلمة العرب. الغريب أن أولئك لا يرون التحول الهائل من أيامك للآن، فالعرب، أو البدو، هم الآن أفضل الفئات وأشرف وأصدق من يوجد في المنطقة. عيبهم طبعاً الترحال ابتعاداً عن المشاكل، ولكن أسلوب الحكم القبلي أنجع مما يسود في وسط عرب المدن الضائعين بين الشرائع والتقاليد والقوانين». تناول حسين لقمة أخرى من الملاحة وتوجّه لجاره بسؤال آخر: «ماذا ستقول لو سألتك مَن هم أغبى الناس على الأرض الآن؟».

«هم كثر يا حسين، ولكن الفئة الأشد إزعاجاً بالنسبة لي، كلما تابعتهم، هم الانتهازيون في تفسير القرآن، خصوصاً الذين يحاولون إثبات إعجاز كتاب اللّه وحلّه المسبق لمعضلة كل اكتشاف علمي جديد يسمعون عنه. ويدّعون احتواء القرآن على كل النظريات والقوانين المستنبطة من تطور المجتمعات، ويؤكدون شمولية القرآن لكل أنواع الحريات المستحدثة تباعاً بين الأمم. هم بذلك ينتقصون

قيمة كتاب اللّه الذي لا يحتاج لإثبات أو مجاراة لأوضاع وقتية متغيّرة. أولئك جهلة يبرطعون على الأرض ويظنّون أنهم يفسّرون كلام العليم الحكيم».

«قصدك الذين يشعلون الفتنة الدينية في العراق، والذين باشروا الحرب الأهلية في غزة باسم التديّن والنظافة الوطنية، والذين يخطّطون لحرب أهلية في لبنان الآن؟» نظر كل من حسين وابن خلدون إلى ريتشارد ومضت لحظات قبل أن يتطوّع أحدهما بجواب وعن سؤاله الاستفزازي رغم صحة ما فيه من معلومات.

«بصراحة يا ريتشارد، ليس من السهل علينا التحاور معك كما لو كان مسلمان يتحاوران في قضية تخصّ واقع دينهما ومجتمعهما». قال ابن خلدون وقد كفّ ثلاثتهم عن تناول الطعام: «أنت تسأل بنيّة صافية، والجواب نعم ولا. التعصب يساهم في تسعير المشاكل الثلاث التي ذكرت، لكن منبع تلك المشاكل هو التدخل الأجنبي، سواء كاستعمار أو احتلال أو انتهازية سياسية، أو بالطبع التدخل بغرض تدمير المجتمعات الإسلامية. الاستعمار الفرنسي هو الذي سلخ لبنان عن الدولة الإسلامية وزرع فيها النظام السياسي الطائفي. وقضية فلسطين لا تحتاج مني لشرح، فأنت ملمّ بتاريخها وترى نتائجها. وما يجري في العراق ولد مجدّداً وترعرع بسرعة في ظل الاحتلال الأميركي ـ البريطاني».

«يمكنك القول إن الخلاف الشيعي السنّي في العراق قديم، وإن نظام صدّام حسين كان موفقاً في صهر طوائف المجتمع، ولو بثمن. أما التدخل الغربي فقد أطلق عقال الطائفية بشكل جنوني، تدخّل من دون أي رؤية اجتماعية مستقبلية. مرة أخرى ظنّوا أن النصر العسكري يحقّق لهم الأهداف السياسية، فكذبوا على الناس، وها هم تورّطوا ويدفعون الثمن السياسي بينما المسلمون يدفعون

الثمن من دمائهم ودمار بلادهم». لم يظهر على ملامح ريتشارد ما يفيد أي اقتناع أو رفض أثناء إنصاته لحسين ومن قبل لابن خلدون، لكن ردّه عليهما كان جليّاً:

«كلامكما صحيح وإن كان بعضه غير دقيق. الاقتتال الطائفي الديني صاحب مجتمعاتكم منذ موت الرسول محمد. ولا يجد الآن ما يمنع توحُّد الشيعة والسنّة وغيرهم في العراق ضد الاحتلال الأجنبي، أو الصليبي كما يسمِّيه الأصوليون الإسلاميون على الأرض. التوحُّد بين العراقيين مطلب منطقي خصوصاً وأن الأميركيين والبريطانيين شعروا بأخطائهم ويريدون الإفلات من الوحل. يبدو أيضاً أنكم حمّلتم الغرب كل المسؤولية ونسيتم تأييد أولي الأمر في بعض الدول الإسلامية الأخرى للغزو الغربي للعراق. على الأقل دعونا نتّفق أن قضايا صراعكم مع الغرب لا تعتمد فقط الأسس الدينية البحتة، إذ تتّحد دول إسلامية ومسيحية ضد دول وفئات إسلامية أخرى. وعلى الطرف الآخر تتقاتل دول إسلامية فيما بينها، وكما نرى تتقاتل طوائف إسلامية في البلد الواحد، ويذبح الإسلاميون والعسكر ومدّعو العلمانية بعضهم بعضاً ويقتلون مواطنيهم، ويغتصبون صبايا مسلمات، ويشتّتون في بقاع الأرض خلق اللّه الذين يبحثون عن الستر ولقمة الخبز». كان ريتشارد قد نسي نفسه وارتفع صوته وكان وجهه يشعّ قناعة وثقة بصواب ما يقول، وانتبه آخرون للحديث الدائر بين الثلاثة تحت قطوف العنب.

«أفحمتنا يا إنجليزي بهذا المنطق». قال شمشون وهو يتقدّم على ركبتيه ويجلس إلى جانب حسين. «يعني أهل العراق كانوا سيقتلون بعضهم بعضاً الآن سواء غزاهم الغرب أم لا، وأنتم هناك لفضّ

الاشتباك الطائفي ومنع الذبح الذاتي؟ يا سلام على نبلكم وحسن نيّتكم».

«مجازاً نعم، وربما كان الذبح أكثر». أجاب ريتشارد شمشون وواصل حتى لا يقاطعه أحد ممن اقتربوا من دائرتهم: «الأرقام التي أعلنت في شهر رمضان تقول إن أربعة آلاف عربي قادم للقتال في العراق ماتوا، وأربعة آلاف قتلوا في فلسطين منذ بداية الانتفاضة الثانية، وأربعة آلاف قتلوا خلال ستة أسابيع من الغزو الإسرائيلي للبنان. لا علاقة مباشرة للغرب بقتل هؤلاء. هذه الأرقام صودف إعلانها في شهر رمضان الذي حُرِّم فيه القتال. وبالطبع هناك أرقام أكثر، ولا تنسوا أن مليون مسلم قتلوا في الحرب العراقية ـ الإيرانية، وتعرفون أن أعداد الضحايا من الاقتتال بين العرب أنفسهم أكثر من خسائرهم في الصراع ضد الأجانب...».

«كيف تقول أنْ لا علاقة مباشرة للغرب؟» قاطعه حسين رافعاً صوته حتى يوقف الضيف «أرقامك صحيحة، والنظرية مقبولة إذا أضفت لها حقيقة الدور الغربي. الحرب العراقية ـ الإيرانية ما كانت لتشتعل بدون دفع منكم لصدّام وتأييد وتسليح غربي لكبت الثورة الإسلامية في إيران، وقضية فلسطين خلقها الإنجليز وبوسع الغرب أن ينهي الشقاء هناك خلال أسبوع إذا ضغطوا على إسرائيل، المدجّجة بسلاحهم والمموّلة بأموالهم، لتقبل بسلام عادل. نعم يمكن الحدّ من الضحايا والمآسي لو تفاهم المسلمون وتعاونوا فيما بينهم، لكن المسلمين لم يعودوا كالبنيان المرصوص، ولا أتوقّع أن توزّع مداخيل النفط الإضافية على الذين تضرّروا. الحرب ترفع الأسعار والمتضرّرون لا يحصلون على تعويض. مع ذلك لم يهبط المسلمون بعد إلى ذبح بعضهم بعضاً كما فعل

المسيحيون طوال النصف الأول من القرن الماضي، قرن الشيطان الذي سخّر قيادات الغرب لخدمة أهدافه. آنذاك تقاتلتم وقتلتمونا بين الأرجل في صراعاتكم. والآن تهاجموننا بحجة تأثير أوضاعنا عليكم». سادت لحظات تروٍ بتأثير كلام حسين، وخصوصاً إقرانه القرن الماضي بأفعال الشيطان ونجاحاته التدميرية.

«هل تعرفون أن البعوض، أضعف مخلوقات اللّه، ومنذ خلق الرحمن آدم وحواء، قد تسبّب بقتل أعداد من البشر تفوق حجم الذين ماتوا من الحروب؟» أدهشت هذه المعلومة المستمعين، ونجح ابن خلدون هكذا في تحويل الحديث باتجاه خدمة الغرض الأساسي لهذا المؤتمر الذي سيعود مجدداً للانعقاد بعد استقبال أيام عيد الفطر بداية من الغد: «نجح الإنسان في صنع مضادات لبعض الأمراض القاتلة التي يحملها البعض، ولكنهم فشلوا للآن في القضاء على هذه الحشرة الصغيرة. ستكون حكمة ربانية لو تقرّر تقديم يوم القيامة وتسليح البعض بفيروس قاتل لتنفيذ المهمة بدل الزلازل والبراكين والفيضانات أو سقوط الشهب على الأرض».

«أو إفلات فيروس قاتل مما يطوّره الأميركيون في مختبراتهم. هذه تكون كوميديا إلّهية بالفعل». كان شمشون وحيداً وهو يقهقه بعد طرح فكرته هذه، وخطر لحسين أن يسأله إذا كان قد راقب ما يدور في مختبرات أميركا أخيراً أم أنه صوّب ناظريه على فيلم هوليوودي، لكن وصلت إلى دائرتهم موجة التهنئة بالعيد، فانخرطوا واختلطوا مع المئات في المباركة واحتضان بعضهم بعضاً. عمّت الفرحة الوجوه. لم يظهر على ملامح حسين أثناء تبادل المباركة والقبلات أن ذهنه قد انشغل في تذكر ما قد تابعه في تل أبيب أخيراً، حيث كلّف شمعون بيرس، صديق ياسر وشريكه مع رابين في جائزة نوبل للسلام، كلّف مجموعة علماء تطوير أسلحة متناهية

الصغر في الحجم وتقوم بمهام أسلحة تقليدية. يريدون تصنيع طائرة مثل بعوضة، يمكنها التحليق من دون صوت وهدفها التصوير الفوري وملاحقة المطلوبين لإسرائيل والانفجار بينهم لقتلهم، أو بالطبع التجسس على أي شخص. ومن أفكار الفريق الأخرى صنع قفازات تقوي اليد التي تستعملها، وملابس لا تتسخ ولا يخترقها الرصاص. المرحلة التالية ستكون، كما سمعهم يتحدّثون عن غرس البعوضة الاصطناعية لفيروسات في جسد الذين يريدون التخلص منه أينما كان، من دون إثارة أي شكوك حولهم في مسؤولية قتله. استعاد حسين بشكل لاإرادي متابعته قبل سنوات لإحدى حفيداته وهي تعدّ رسالتها الجامعية، إذ عثرت على دراسة مختبرية كانت حول تجارب في جامعة بريطانية للحسم في إمكانية العثور على جينات خاصة باليهود ولا يمتلكها غيرهم. آنذاك ظنّت حفيدته أنهم يريدون تطوير مرض معيّن لا يصيبهم ولكنه ينهك الفلسطينيين. الأمر لم يتطوّر إذ اكتشفوا اختلاط الجينات وعدم نقاء العنصر اليهودي أو تميُّزه بأي جينة عن أبناء عمومتهم. لا بدّ إذاً من استمرار حرب علنية تمتدّ في تكتيكاتها من أسلوب حرب قابيل وهابيل حتى الاستعانة بأحدث التقنيات، لكنهم لن يلجأوا للحرب الجينية، أو حتى للحرب النووية إذ لا يمكنهم ضبط الأمراض جغرافياً، أو التحكم في اتجاهات الرياح حين يقرّرون القضاء على جيرانهم نووياً.

غيّبته أفكاره عن مظاهر الفرحة التي يشارك فيها الآخرين بخلجات وجهه وأعضاء جسده. ربما لا يحتاج اليهود إلى أسلحة حديثة لهزيمة خصومهم، سيكفيهم غباء الأعداء الجيران من أبناء عمومتهم. قال لنفسه أيضاً إن فلسطين أصبحت طاردة لأبنائها، فمنذ فشل السلطة بفضل الفساد، ثم تصاعد الاقتتال الذاتي، تنامت

رغبة الناس في الرحيل، خصوصاً من لديهم فرص للهجرة والصمود في بلاد اللّه الأخرى، أي خيرة وذخيرة أبناء وبنات فلسطين. لمع في عقله الباطن احتمال هجرة اليهود من فلسطين، لكنه أبعد هذه الفكرة التي سمعها أثناء مراجعة احتمالات امتلاك إيران للقنبلة النووية. طالع دراسة إسرائيلية تقول إن سبعة بالمائة من الإسرائيليين سيغادرون البلاد إذا امتلكت إيران السلاح النووي، وأن عشرين بالمائة سيفكّرون في الرحيل. قالت الدراسة إن الكثافة السكانية في البلاد المتطورة تصل إلى حوالى ثلاثين نسمة للكيلومتر المربع، بينما في فلسطين المحتلة فإنها 290 نسمة للكيلومتر المربع، وإذا حسبت النسبة بدون منطقة الجنوب، الفارغة من السكان تقريباً، فإن الكثافة ترتفع إلى 640 نسمة. ضحك حسين وهو يؤكد لنفسه بأن إيران لن تضربهم، وربما ضربت جيرانها العرب، وإذا ضربت الإسرائيليين بسلاح نووي فإنها ستبيد أعداداً أكبر من الفلسطينيين لكونهم لا يملكون أي أساليب وقاية، وستجلب على الإيرانيين ضربات انتقامية إبادية.

وجد نفسه وحيداً على ضفة نهر الخمر، فخلع ملابسه وكأنه منزوع الإرادة ونزل للنهر بينما أفكاره مشتّتة بين حاضر بلاده واحتمالات مستقبل أهله، وبين ماضي عائلته العريق البعيد عن التاريخ منذ ما قبل الإسلام حين كانوا يأخذون أبناء أعيان العرب وهم صغار ويعيدونهم بعد سنوات قليلة إلى أهلهم بعد تربيتهم كفرسان. تمتم قائلاً: لم يعد الأمر شجاعة ذاتية، وفشلنا في مواكبة التطورات فأصبحنا نُغزى بعد أن كنا الغازين. أخذ يسبح مع التيار المنساب برقّة، ويغبّ من الخمر وهو مطمئن أنه لن يغرق ولن يسكر ولن يرتوي.

ثقافة التحرش

كان واجماً، بل شبه مُغيب، وجهه أحمر وكأنه امتنع عن التنفس. لم يستجب للذين نادوه باسمه ليباركوا له بالعيد. «لو كنا نمرض في الجنّة لقلت إن الشيخ محمد أصابه مكروه». قال الشيخ يوسف ذلك وهو يضع يده برفق على كتف الشيخ محمد وينظر إلى رفاقه الذين شاركوه في جولة التهنئة.

«اسم اللّه عليك يا شيخ محمد، يبدو أنك اشتقت لأيام الأرض وللنوم والحلم. أفق اليوم العيد، كل عيد وأنت في ديمومة نعيم الجنّة». نظر محمد إلى سليمان والآخرين من دون أن ينبس بكلمة وعاد لوضعه بعد تراجع حدّة احمرار وجهه قليلاً. أشار إليهم بيده ليروا ما ينظر إليه وينغّص عيده.

كان المسرح في القاهرة، وتحديداً شارع عدلي. فتاة تتعثّر من الخوف، يلحق بها القوم ويحيطون بها، مئات من الصغار والشبان وأشباه الرجال أخذوا يتداولون انتزاع ملابسها وهم يصرخون، قفز صدرها من الحاملات فحمت الثديين باليدين. مدّ بعضهم يديه إلى تنورتها وسحبها إلى أسفل ليظهر بين ساقيها طفل لا يتجاوز الثانية عشرة كان قد اندسّ قبل ثوانٍ من تحت التنورة ليعبث بين فخذيها. كانت في مطلع العشرينات وفقدت رحمة اللّه حتى غطّاها صاحب محل ببالطو وخلّصها من بين مئات الأيدي وأغلق عليها باب المحل. الجمهور الهائج يدقّ الباب وصاحب المحل يتوعّدهم أنه

لو خرج فسوف يكسر جماجمهم، لكنه لم يخرج طبعاً لمواجهة المساعير جنسياً.

«في واحدة ثانية قدّام سينما ميامي». أنقذت هذه العبارة الفتاة وصاحب المحل، وهرول المئات إلى شارع طلعت حرب في وسط القاهرة النابض بالحياة قبل مغيب الشمس. انضمّ الجمع إلى مُحاصرين لفتاة أخرى ينهشون ثيابها ويلتصقون بها ويضمونها ويتحسسون بعنف كل أنحاء جسدها. لم تعد تصرخ أو تطلب النجدة، لكن سائق تاكسي يتقدّم منها ويجرّها إلى عربته. الجموع تحاصر التاكسي وتطالب بتسليم الفتاة التي نشف دم وجهها مما مرّت به ومما يتوعّدونها. شرطي يتدخّل ويضرب الجموع بحزامه. جاءت نجدة التاكسي بظهور فتاتين بلباس عباءات والحجب. أحاطوا بهما واحتضنوها وقبّلهما عشرات ممن تمكّنوا من الاقتراب أثناء التدافع منهما. هنا أيضاً أطفال ينسلون تحت العباءات وتقفز الفتيات كأنهن واقفات على الجمر فتمسك بهن الأيدي أينما توجّهن. نُزعت حجبهن، وقبل خلع العباءات تدخل أصحاب محلات ورشّوا المياه على المستعرين جنسياً.

«هذا أسلوب جيد لفك الاشتباك كما يتمّ إبعاد الكلاب عن إناثها». لم ينتبهوا لسخرية سليمان، ابن حلب، مما يشاهدون وهم لا يصدّقون ما تراه عيونهم بفضل نعمة اللّه عليهم في معرفة الماضي ومتابعة الحاضر وما يدور على الأرض. يبدو أن فيلماً سينمائياً قد انتهى عرضه إذ خرجت ممثلة كانت تشاهد العرض الأول. امتدّت إليها الأيدي ولم يسعف صدرها من القفشات عدّة حراس شخصيين كانوا يرافقونها. لكن خروجها أنقذ الفتاتين اللتين دخلتا لإحدى المحلات. تعالت صرخات «اليوم حنيك» وأغلق الشيخ محمد أذنيه حتى لا يسمع أهل بلاده يرفعون هذه الشعارات

بينما قوات الأمن لم تقترب من مسرح الانتهاكات ومعظم المارة إما يشاركون في التحرّش وإما لا يعبأون بما يرون. حتى الآن أهل النخوة الذين أنجدوا الفتيات لا يتجاوزون العشرة رجال.

فتاة محجّبة ساقتها أقدارها قريباً من القطيع الثائر. حاصروها، وها هم ينزعون العباءة بينما صراخها طلباً للنجدة يملأ الآذان. رجل أمن لإحدى العمارات انتشلها للداخل وأغلق الباب. على الفور وقعت الأعين على لابسة بنطلوناً وقميصاً. خلعوا القميص عن جسدها، صدارتها تسحب وتقطع، رجل أمن يحمل عصا غليظة اخترق الصفوف وسحبها بيد بينما يهوش بالعصا على مَن يحاول الاقتراب منهما حتى أدخلها إلى محل وأغلق عليها الباب.

«دعونا نغضّ النظر ونهتمّ بشؤون أخرى».

«نحن لا نتطفّل يا شيخ يوسف، ما يحدث كارثة ولن ينفعنا غضّ النظر». قال الحلبي وأسمع الآخرين أن ما يجري ليس تنفيساً عن كبت التعبّد في رمضان، وإنما هو نتيجة لغضّ نظر الشيوخ عما يدور في المجتمعات وتركيزهم على التوافه والقشور حتى أوصلوا الشباب المسلم إلى هذا الانفجار الذي لم يميِّز بين محجبات وكاشفات. لم يعرف سليمان إذا كانوا سمعوه أم لا، فقد تجدّد المنظر في شوارع أخرى وسط القاهرة، فتاة تركض عارية تماماً إلى داخل محل، وأخرى تُحشر بين جدار ومعتدين يدخلون أصابعهم في مخارجها وسط صراخ جنوني.

«اللّه أكبر، أين الأمن؟ أين أصحاب الضمائر والنخوة وأبناء البلد؟ هذه المهزلة تتواصل أمام أعيننا منذ أكثر من ساعة. لو كان سائح قد خُطف لحوصرت كل المنطقة في دقائق، ومسلمات تُنتهك أعراضهن وسط العاصمة دون رادع!» لم يكن الشيخ محمد غاضباً

وهو يتمتم بهذه التساؤلات، ولكنه اقترب لدوخة أحد مساطيل الأرض، حديث بطيء وعيون مبحلقة.

«لعلها فلتة شبان من الخلع، ولم يصدّق رجال الأمن البلاغات بصحة فعلتهم». لم تقنع محاولة الشيخ يوسف أحداً، وهزّ الشيخ محمد رأسه وقد وضح صوته قليلاً أثناء نفيه لندرة هذا الفعل. صارحهم بأن الظاهرة قديمة والتحرّش بالإناث يتمّ بأشكال لا تُصدَّق في المواصلات العامة وفي الشوارع وأينما توفّرت فرصة للضباع الراقدة في داخل البشر. يلتصقون بمؤخرات النساء أثناء الازدحام، ويخرجون قضبانهم لهن في الشوارع الفارغة من الناس، ويطلقون خلفهم أقذع الكلمات حين يمرّون بهن عن قرب. «عرفنا بذلك في حينه ولم نفعل شيئاً لمواجهة المشكلة، وشاهدت من هنا الشر يتعاظم بينما الجميع يغمضون أعينهم. إننا نرى نتائج ضعف الوازع الديني، ومنظومة أخلاقية في حالة انهيار سريع. الأسرة لم تعد تقوم بدورها التربوي، والمؤسسات الدينية أو التعليمية أصبحت غير قادرة على معالجة الخلل، بينما المدارس تحوّلت إلى بؤر فساد وانحلال».

«المجتمعات العربية والإسلامية أصبحت تميل إلى تقليد الغرب بكل شيء فيسعى الناس لإظهار مفاتن الأنثى ونشر العري وعوامل الإثارة عبر وسائل عديدة. وبالطبع لا ننسى وجود 19 مليون عانس وعانسة في مصر ونسب مشابهة في بقية بلاد المسلمين. لقد بات هؤلاء الشباب محاصرين بجميع وسائل الإثارة فماذا ينتظر المجتمع منهم؟».

«عفواً يا شيخ يوسف!» تدخّل المنصور رافعاً كلتا يديه «هذا الأمر لا يحدث في بلاد الغرب التي تظهر فيها النساء مفاتنهن،

فكيف يقلِّد المصريون الغرب بما لا يوجد فيه؟ ثم إن العنوسة مرتبطة بأسباب اجتماعية وبوضع اقتصادي. ملايين العوانس الذين تتحدّث عنهم هم من الجنسين ولم نسمع عن هجوم فتيات على الشبان في الشوارع. ربما صدقت تماماً في قولك إن الظاهرة منتشرة في بلاد العرب والإسلام بأشكال عدة، ولكن السبب غير مرتبط بالغرب. لقد تابعت شبان الأندلس في الأسابيع الماضية ووجدتهم يتعرّون على الشواطىء ويلبسون ما بالكاد يستر عوراتهم، ولكنهم قمة في الأخلاق وفي غضّ البصر واحترام الإناث العاريات أو الكاسيات». كاد المنصور أن يحمد ربه علناً أن الأندلس لم تعد تحت الحكم الإسلامي وإلّا لكانت مثل إحدى دوله، ولكنه أمسك لسانه ولم ينطق بما يدور في ذهنه، واكتفى بما قال، بعد أن أضاف أن التحرّش لم يفرِّق بين محجبات ومنقّبات أو لابسات الإفرنجي.

«هذه هي الكارثة بالطبع. عدم التفريق بين الفتيات حسب لباسهن وإعلان هويتهن يُذكّر بأيام ضعف الإسلام إثر هجرة رسولنا الكريم وصحبه إلى المدينة. هناك تحرّش فتيان المدينة بالمسلمات، وعندما عوتبوا على فعلهم قالوا إنهم لا يمكنهم التمييز بين مسلمات يرفضن الغزل وبين غيرهن من بنات المدينة. حينها لبست المسلمات ما يميّزهن عن غيرهن، وها هو لباسهن لم يعد يحميهن الآن في مصر، ويُطالبن بنزعه في بلاد الغرب وأصبح إشارة للتمييز ضد أصحابه، بل تتوالى الأخبار عن الدول الإسلامية المانعة للحجاب في جامعاتها ومؤسساتها». أنهى عبد القادر مشاركته بهذا الرأي بالتأفف وطلب الرحمة لسكان بلاد المسلمين.

«لكن عشرات مئات القنوات التلفزيونية، وبلاوي الإنترنت والمحمول...».

«دعك من كل هذا يا شيخ يوسف، فتلك الأشياء لا تدفع مخترعيها ومشاهديها في بلادهم على فعل ما يفعل شبابكم الذي لا يميِّز بين الخيال التمثيلي وضرورات الواقع. العيب ليس في القنوات والإنترنت، والخلل المتفشّي لا ينعكس في السعار الجنسي فقط». ضمَّ المنصور الشيخ يوسف من كتفه وذكّر الجماعة بضرورة المرور على الآخرين لتبادل تمنيات السعادة في العيد.

همس المنصور في أذن يوسف سائلاً إياه النظر إلى برشلونة: «تلك كانت مدينة إسلامية فقدناها في العهد الأول على فتحنا الأندلس، وغزوتها في أيامي ودمّرتها العالي في الواطي. ها هن نسوة مسلمات يعقدن فيها مؤتمراً للدفاع عن حقوق المرأة في العالم الإسلامي. هل ترى التناقض ومسار التاريخ؟» لم ينتظر المنصور إجابة من يوسف المتأمل في ما سمع، واقترب منهما الباقون وهم في طريقهم إلى قاعة المؤتمر حيث يتوقّعون وجود الآخرين: «يعتبرن أن الشريعة كما هي الآن تأويلاً ذكورياً أدّى إلى الانتقاص من حقوقهن وإلى شيوع العنف ضد الزوجات. التساؤل المدوي في مؤتمرهن هو لماذا لا يضرب المسيحي واليهودي أو البوذي زوجته، بينما تسمح الشريعة بضرب المسلمات؟ لقد قرّرن الجهاد من أجل المساواة».

«لكنهن مسلمات أجنبيات، ويردن على الأرجح المساواة مع النصرانيات. في معظم دولنا تشارك النساء في الترشيح والانتخاب، ولم نسمع بمطالبتهن بأشياء كهذه؟» قبل أن يرد المنصور على يوسف تدخّل عبد القادر مذكّراً بأن المؤتمرات في برشلونة لم يطالبن إلّا بتفسير عادل ومتجدِّد للشريعة ينصف النساء ويزيل التراكمات الأصولية والمتطرفة التي انحشت في التشريع. وما كاد عبد القادر ينتهي حتى رفع سليمان صوته:

«إنها انتخابات مجوّفة تلك التي تتحدّث عنها يا شيخ يوسف. في الشهر القادم ستكون أحدث طبعة منها في دولة الإمارات، هل تعرف من الناخب ومن المنتخب؟ لقد اختارت السلطات واحداً بالمئة من الشعب، أي سبعة آلاف رجل وامرأة، للإدلاء بصوتهم وانتخاب نصف أعضاء المجلس الوطني الذي هو استشاري فقط». تذكّر سليمان ما شاهدوه للتو في القاهرة فأضاف: «حتى في الدول التي تمارس الانتخابات بشكل آخر، فلا يوجد للمواطن دور في صنع السياسات أو التشريعات. هل تظن أن بنات أو أبناء مصر تملأهم الغبطة من الأداء والإنجاز والمشاركة في تقرير أسلوب حياتهم؟».

تواصلت اللقاءات بين المؤتمرين طوال أيام العيد الثلاثة. أثناء الوجبات يلتقون سنوياً، وبقية الوقت يتجدّد الاختلاط عبر تشكل عفوي لجماعات مختلفة الأعداد ومتنوعة النقاشات. كان من السهل مراقبة انجذاب البعض إلى بعضهم بشكل أو بآخر، بل حتى ظهر تفهُّم واحترام بين المتضادين أثناء حياتهم على الأرض. كان الاختلاط سيد الموقف على الدوام. تميّزوا بلباس أفخم مما غطّى أجسادهم قبل العيد، كما حبّذ غالبيتهم اختيار موديلات مما كان سائداً في عصورهم، لكن بدون تقمُّص الأسلحة التي كانت آنذاك تكمل هيبة بعضهم.

«هل عرفتم بقرار غالبية أصحاب المحلات والمؤسسات البريطانية بإلغاء مظاهر الاحتفال بعيد الميلاد في أماكن عملهم؟» نظر المستمعون إلى ريتشارد على أمل إيضاح ما يعني، فأكمل: «قرّروا أن لا يضعوا في محلاتهم أشجار عيد الميلاد وما يصاحبها

من الزينة في العيد الذي بدأ الاستعداد له الآن. سبب هذا القرار هو رغبتهم في عدم جرح شعور المنتمين إلى ديانات أخرى». كان ريتشارد مزهواً وهو يظهر هذا القرار المتسامح لأهل بلاده.

«ربما أرادوا توفير النفقات». همس الشيخ ياسين دون أن يسمعه أحد ثم أضاف على مسامع الحاضرين بأن المسلمين احتفلوا كالعادة بالعيد في لندن وعموم بريطانيا، ويحتفل أصحاب الديانات الأخرى بأعيادهم بشكل طبيعي ويسبغون على مدنهم، وخصوصاً لندن، ألواناً زاهية من عاداتهم لتأكيد انتمائهم لبلادهم الجديدة، «فلماذا يعمل الإنجليز بالعكس ويحدّون من مظاهر احتفالات عيد الميلاد التي يقدّرها ويشارك فيها المسلمون وغيرهم أيضاً؟».

«إنها لفتة جميلة من الإنجليز، آل ريتشارد، حتى لا يشعر الغرباء بالمزيد من الوحشة في تلك الأجواء. هل تعرفون أن ثلث الموظفين البريطانيين فقط يحصلون على إجازات ليلة عيد الميلاد؟ البقية عليهم الكدّ لتأمين مسيرة الحياة وضمان أماكن عملهم». كانت النظرات التي توجّهت للملك سليمان أثناء الاستماع لكلامه لا تنم عن توحّد الرأي في فهم إذا كان يمازح ريتشارد أم يقصد ما يقول بدون حشو معانٍ بين الألفاظ. أكمل حديثه: «ضغط الوضع الاقتصادي فرض نفسه على الجميع في العالم وليس فقط على سكان الدول الغربية. لا أدري إذا كان ضغط الدين على مجريات الحياة في السابق أهون على البشر من الوضع الحالي أم لا. عموماً العناوين تتغيّر والضغط يتواصل».

«أكثر من يحترم الأعياد الدينية ويلتزم بها هذه الأيام هم اليهود، وخصوصاً سكان فلسطين المحتلة ونيويورك».

«لأنهم أصوليون متطرفون في رؤيتهم للشرائع». أكمل المفتي

مقولة ياسين. وقبل أن يرد سليمان على تعليقاتهم كان رابين قد أعلن أن التزام المسلمين بالدين لا يستهان به هو الآخر، وأن تطبيقاتهم له هذه الأيام وصلت إلى درجة الحرب الطائفية بعد شنّهم الحرب على المدنيين والحضارة عبر العالم.

«ما هو التطرف؟» تدخّل سليمان ليدلي ببعض حكمه لعلها أيضاً تنفّس الجو الذي احتقن قليلاً.

«طبيعة التطرف لا تنحصر بالأديان السماوية الثلاثة فقط، بل تعتمد أيضاً على تحوير المتطرفين لأي شرائع ونظم ومقاييس ونظريات إلى مبررات وإلى أرضية خصبة للتطرف والعنف. تماماً كما حدث باسم اليهودية والمسيحية والإسلام. من الأمثلة الحديثة هناك تحوّل الكثيرين في القرن المنصرم من الشيوعية والاشتراكية، الداعيتين للسلم والتعايش، إلى النقيض واستعمال العنف. مثال آخر نراه حين دعمت منظمات ماركسية فلسطينية بناء الحركات الدينية الجهادية بعد أن لاحظت سهولة انقياد الناس إلى طاعة القرآن واللّه والآمال الاستشهادية. طبعاً لا ننس أن أحد شعارات اليسار قال بأن الدين أفيون الشعوب. موسليني يقدّم مثالاً إضافياً إذ كان اشتراكياً قبل تطويره الفاشية، وستالين مارس الاضطهاد باسم الاشتراكية ذاتها مثل الدكتاتوريين الرأسماليين والعسكر. ثم إن كل الأديان وجدت من اعتمدها للقيام بالعنف والقتل والحرق والتكفير وإشعال حروب أهلية أو غزوات خارجية واحتلال واستعمار. كان ذلك في الماضي وما زلنا نراه في الحاضر ولا يبدو أن البشر سيتحرّرون من سطوة التهييج مستقبلاً. لكن طبعاً في المقابل استعملت الأديان لإيجابيات عديدة في فترات وأماكن متنوعة».

عدل سليمان من وضع هندامه مراراً أثناء حديثه المتروي، وخصوصاً تغيير وضع طربوشه القصير المزخرف على جوانب رأسه.

وكان ياسر بدوره، لاإرادياً على ما بدا، يهذّب أعلى حطّته بين الفينة والأخرى لتشكل ما يشبه خارطة لفلسطين. وما كاد سليمان ينتهي من محاضرته الدبلوماسية حول التطرف حتى عاجله ياسر بسؤال لم يخطر على بال أحد وغير ذي علاقة بمجرى الحديث:

«هل يحرِّم الدين اليهودي إغلاق الأجهزة الطبية عن المريض الغائب عن الوعي لفترة طويلة؟» كان رابين وجمال أول من ضحكوا من غير أن ينظر أحدهما إلى الآخر. استدرك ياسر: «أسأل لأن شارون الغائب عن الوعي منذ أحد عشر شهراً، تأزّم صحياً اليوم ونقلوه للعناية الفائقة وأريد معرفة متى سيصل إلى جهنّم».

«ربما بعد صاحبك صدّام الذي حكموا عليه اليوم بالإعدام». سارع رابين بالردّ والضحكة تملأ شدقيه، ثم أضاف أن القرار في المستشفيات الإسرائيلية يعود للأطباء وليس للحاخام.

«عندما يعدمونه سيجد مكانه إن شاء اللّه هنا بيننا».

«إذا لم يكن في الجنّة أي من ضحاياه فربما يدخلها بسلام» ردّ رابين فوراً على المفتي.

«بما أن لنا دوراً ومكاناً في فلسطين وتاريخها وقضيتها، أودّ اقتراح فكرة قد تكون هي الحل الوحيد للمشكلة». أنصتوا إلى ريتشارد رغبة في الابتعاد عن المناكفة قبل انقضاء عطلة العيد. «أرى أن يُنقل الفلسطينيون والإسرائيليون في جماعات مشتركة للحياة في عدة دول أوروبية باردة المناخ، وأن تستوعب بريطانيا الجزء الأكبر، طبعاً بتمويل دولي. هذا سيعلّمهم التعايش المشترك في ظل حكومات أجنبية وقوانين تساوي بينهم وتفرض احتراماً متبادلاً للأديان، يعني تقليد الوضع القائم في لندن الآن. وبدل الشعبين نرسل إلى الأراضي المقدسة بريطانيين يعيدون تعميرها

وإزالة الحواجز وإقامة المدن المشتركة للبريطانيين ولمن يعودون من المؤهلين تدريجاً إلى بلادهم ليعيشوا في أماكن جديدة إلى جانب جيران جدد، واعتماد اللغة الإنكليزية بين الجميع».

«أي مكان تدخلون إليه تدنّسونه وتخربونه وتقسّمونه، فلماذا تتوقّع أن تنجحوا الآن؟» ردّ جمال على ريتشارد مستبعداً احتمال أن يكون اقتراحه ممازحة.

«هذا تجنّ كبير. تجربة تعايش الأجناس ناجحة في بلادنا، وفي عموم أوروبا الآن. الذين يتقاتلون في بلادهم يتعايشون تحت قوانيننا. الأماكن التي تقول إننا دنّسناها حين دخلناها، كانت خربة قبل دخولنا وما زالت خربة بعد أجيال من خروجنا منها...».

«هذا تعميم يناقض الحقائق». قاطعه جمال بصوت مرتفع وأكمل: «الهند كانت من أغنى دول العالم قبل أن تنهبوا ذهبها وخيراتها وتتركوها مقسّمة متحاربة فقيرة. وها هي تصعد اقتصادياً بقوة، أي لم تكن خربة قبل وبعد عهدكم بها، وإنما أثناء الاحتلال ومن تأثيره في السنوات التي تلت. السبب في أن دولاً أخرى لم تعد للانتعاش بعد نهاية الاحتلال مردّه صنعكم لمشاكل كان صعباً التخلص منها، كما في حالة جنوب أفريقيا وباكستان وعربستان، أو تركككم البلاد في مشاكل من النوع التي يستحيل حلّها، كما فعلتم في فلسطين وتكرِّرون فعله كذيل للأميركان في العراق الآن. ولا تحدّثني عن نجاح التعايش في بريطانيا، أنتم تواصلون نهب خيرات الشعوب الأخرى، ولكنكم الآن تنهبون أيضاً العقول وخيرة الشباب. بعد أن تدفع بلادهم ثمن تربيتهم وتعليمهم تجذبونهم إليكم ليقدّموا سنوات الإنتاج من عمرهم ويسدّدوا مستلزمات حياة شعبكم المتكاثر في الكهولة والمتراجع في العدد».

«كلاكما يفكر بأقرب ما يكون إلى أسلوب عصره. ريتشارد يريد

احتلال فلسطين بأسلوب سلمي ويغطّي رغبته بحل مشاكل العرب واليهود. وجمال يشكّ في نيات الدول التي كانت استعمارية وسبّبت مشاكل حقيقية لجيله، ويرى في كل تطور أحد أشكال الاستعمار الجديد». تحوّل انتباه الحضور إلى صلاح الدين في انتظار رؤيته الخاصة في تفسير التطورات. أكمل حديثه: «ربما تتميّز بعض الدول الاستعمارية سابقاً بامتلاك عنصر القوة الآن وبقدرة على اتخاذ قرارات عدوانية مختلف على شرعيتها. لكن هذا الوضع يقتصر على عدد قليل من الدول ومؤيِّديها. الانفتاح في المواصلات وتناقل المعلومات والسلع، وتشابه التعليم، قرّب ما بين البشر، ولم يعد ابن البلد المستعمر يعامل بالضرورة في عواصم الاستعمار كشخص من درجة دنيا. من يملك العلم والمال والذهن النشط أصبح جزءاً من فئة يتداخل فيها أجناس مختلفة في جغرافيات كثيرة. العالم الآن كما أراه أصبح يتحوّل إلى حضارة عالمية متداخلة القيم. يمكن لمسلمين ونصارى مثلاً أن يتفاهموا أكثر من تفاهم المسلمين بين بعضهم البعض أو النصارى فيما بينهم. العالم لا يواصل صراع الأديان أو الحضارات، وإنما يعاني صراع القيم. الثقافات المتعدّدة أصبحت خليطاً مشتركاً ومتغيِّراً على الدوام، بل يمكن القول بوجود ثقافة مشتركة أخذت تحتل مواقع جغرافية كثيرة تضمّ أعداداً بشرية هائلة».

«نعم، انظر إلى لندن حيث يمكن للناس الاختيار ما يرونه صالحاً من ثقافة الآخرين، وبالطبع يمكن كما قال صلاح الدين، أن تتشكل ثقافة مختلطة. المهم أن لا تُستغلّ الحريات في إيذاء الآخرين، وأن يضمن القانون عدالة وحماية للجميع. من يريد التمسك بمعتقدات خاصة به، عليه الإبقاء على خصوصيتها بين جدران بيته وعقله». امتعض صلاح الدين قليلاً وهو يستمع إلى هذا

التحوير من ريتشارد، ولكنه فضّل السكوت وعدم تكرار شروحات ما قصده، وواصل الاستماع مع الآخرين إلى ريتشارد: «أودّ رؤية شوارع القاهرة والرياض مليئة بالأجانب بلباسهم الصيفي كما تعجّ شوارع لندن ومدن غربية أخرى بالزي الإسلامي».

«من هم أهل لندن الذين تتغنّى بنجاح تعايشهم؟» لم ينتظر ربيع إجابة وواصل: «إنهم كأهل قرطبة القرن العاشر. ثلث من يعملون في لندن قدموا من دول أجنبية معظمها مما يصنّف كعالم ثالث. ثلثا سكان لندن وُلدوا خارج بريطانيا، وبالطبع لأن تجربة التعايش حديثة العهد فإن واحداً من كل عشرين لندنياً ينحدر من زواج مختلط عرقياً. إذاً المجد في التعايش والتقدم لا يكلّل فقط جبين الإنجليز الذين يروِّج بعضهم، وخصوصاً محتكري قطاع الإعلام، لمقولات إن المسلم في لندن يزوِّج ابنته بالإكراه ويمنعها من التعلم ويجبرها على التحجّب. أولئك المتهمون على الدوام هم الذين يصنعون التعايش».

تدخّل رابين موضحاً وجود أحكام مسبقة ضد الإسلام في الغرب، ولكن هذا لا ينفي وجود راديكاليين إسلاميين تسبّبوا بالشقاء لمسلمين ونصارى ويهود، وطرح أمثلة عن الصراع في الجزائر والسودان والعراق وما يدور من اقتتال بين حركة حماس وحركة فتح الآن، وتساءل عن فرصة تعايش بسلام بين الإسرائيليين وحركة حماس وأنصارها إذا كانوا عاجزين عن حلّ خلافاتهم سلمياً مع إخوتهم. الصراع ليس بالضرورة بين كل المسلمين من جهة وبقية العالم من جهة أخرى، ولكن بين راديكالية تريد فرض رؤيتها على بقية المسلمين والعالم، وبين من هم على استعداد لمواجهة هذه الراديكالية، وفي مقدمتهم الذين تضرّروا منها، وأنهى حديثه بالقول: «لا أنكر أن بعض المتضررين يتشكّكون في نوايا بعضهم

الآخر ولذلك لم تتّحد جبهتهم، ونسبة عالية من المسلمين تتعاطف مع الراديكاليين إذا كان عملهم موجّهاً ضد غير المسلمين، ولا يرون أن الدور سيصلهم بسرعة».

«التطرف ليس ظاهرة مشتقّة فقط من الإسلام. كل الديانات استُغلَّت وفُسِّرت في مراحل مختلفة من متطرفين تسبّبوا بويلات لخصومهم ولأنفسهم ولدينهم. حتى الآن فإن لغة وتصرُّف التطرف الإسلامي تتشابه مع التطرف في الغرب وبالتحديد مع خطاب الرئيس الأميركي وقراراته الحربية. كل طرف يرى نفسه كخير والآخر كشر مطلق، وكل منهما يريد إبادة الآخر وفرض الهيمنة الفكرية على بقية البشر دون مبالاة بالمتضرّرين. شعارهم من ليس معي فهو ضدي، وإن كنت معي فلا بأس من موتك قاتلاً أو مقتولاً لتذهب إلى الجنّة، وإن كنت ضدي فاذهب إلى جهنّم كيفما متَّ».

توفق سليمان هكذا بإيضاح وإيجاز الإشكالية، مع الابتعاد عن لوم فريق معيّن. انتبهوا لتقديم الطعام فتشعّب الحديث، وصغرت دوائر النقاش، وقلَّ الكلام.

عسر ويسر!

«اشرح لي يا ياسر، لو سمحت، معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: 1-5] أنا فاهم بالإجمال المعنى، ولكني غير متأكد من بعض الكلمات».

«وأنا لست شيخاً ولم يُعرف عني عشق اللغة الفصحى». قال ياسر لرونالد، وهما في طريقهما منفردان وسط جماعة، إلى مقر المؤتمر لحضور أولى الجلسات النهائية. أراد ياسر كسب بعض الثواني لمراجعة تلباثية لبعض كتب التفسير فسأل رونالد عن سرِّ اهتمامه بهذه الآية.

«قبل اللحاق بك مررت على فريقين يتحادثان في شأنين. جماعة شيوخ تجادلوا بصوت هادىء ومستنكر لما يدور من خلاف بين أمثالهم الأحياء على الأرض حول أسماء اللَّه الحسنى. فهمت أن البعض تحت يشكِّك في صحة تسعة وعشرين اسماً من التسعة والتسعين السائدة بين الناس على الأرض. لم أتجرّأ باستراق السمع أو سؤالهم في ذلك الشأن. ثم مررت بفريق آخر يناقشون التوسع في انتشار الإيمان بالسحر بين المسلمين هذه الأيام، وشعرت بأن بعضهم يستنكر ذلك وآخرين يرون الأمر طبيعياً وسمعت أحدهم يستشهد بتلك الآية كدليل على رسوخ السحر في القرآن».

«قصدك كدليل على اعتراف كتاب اللَّه بوجود سحر. ولكن كيف ربطت بين حديث الفريقين؟».

«ظننت أن الفلق هو أحد أسماء اللَّه الحسنى، فما رأيك؟».

كان ياسر قد راجع في هذه الأثناء تفسير القرطبي واكتشف أن الأمر أكثر تعقيداً مما ظن. «الفلق، يا رونالد لها معانٍ كثيرة، مثل الصباح، أو كل ما ينفلق جزءين. والبعض بالتالي يفسِّر الأمر بأن الفلق هو العالم، واللَّه رب الفلق، وهذا ليس من أسماء اللَّه. لكن يقال أيضاً إنه اسم سجن في جهنّم». هذا أسهل تفسير لما فهمه من القرطبي، وبالكاد منع ياسر لسانه من سؤال محدِّثه إذا كان يعرف ذلك السجن. كان رونالد يستمع وتعابيره توحي بانتظار المزيد لشرح متناقضات المعنى. «يعني على الناس أن تتعوّذ باللَّه من شرور المخلوقات التي خلقها اللَّه، مثل الحساد والنفاخين في العقد لتجنُّب أذاهم. طبعاً للعلي القدير حكمة في خلق النفاث والحاسد، ولكن لا تسألني عنها». ومن دون أن ينظر إلى الاستغراب على ملامح رونالد واصل ياسر تفسيره لما فهم من القرطبي ولكنه انتقل إلى الجانب الأسهل، ولم يشر إلى وجود تشكيك بأن هذه الآية ليست نصاً قرآنياً كما طالع. «أما شأن السحر فهو قائم، وأساس للدين اليهودي لكون سيدنا موسى من أعظم السحرة، وعصاه من أشهر رموز السحر. في الإسلام نقرّ بوجود السحر وبأنه شرّ يمكن تفاديه بالتعاويذ. ومما قيل عن سورة الفلق أنها نزلت إثر سحر لبيد بن الأعصم للنبي وأصبح يخيّل إليه أنه كان يفعل الشيء ولكنه لم يفعله. وقد أخبر الرسول الكريم زوجته عائشة أنه استفتى اللَّه في الأمر فأتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه. قال الأول للآخر: ما شأن الرجل؟ قال: مطبوب. قال ومن طبّه؟ قال لبيد بن الأعصم. ولبيد هذا يا

رونالد من يهود بني زريق وحصل على شعر من الرسول وبعض أسنان مشطه، أحضرها له غلام يهودي كان يعمل عند رسولنا، فعمل منها لبيد سحراً ووضعه في بئر. لكن الملكين أخبرا الرسول بالأمر فأرسل علياً والزبير وعمار بن ياسر وأحضروا الشعر وأسنان المشط ووتراً معقوداً إحدى عشرة عقدة معزّزة بالإبر. بالطبع رفض الرسول مطاوعة القوم بقتل لبيد لأن اللّه نجّاه، ونزلت سورتان فيهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العقد ليتعوّذ بها». كان ياسر أثناء الحديث يقترب من الناصر سعياً لحديث آخر يخلّصه من أسئلة رونالد، إذ تخوّف أن يسأله عن الغاسق إذا وقب.

اقترب القوم في طريقهم إلى قاعة الاجتماعات من حافة نهر الكوثر، انخفضت الأصوات ولم يعد يُسمع سوى همس التسبيح بعظمة القدوس المهيمن، يمتزج مع موسيقى جريان الماء الأبيض والأحلى من العسل. عبق المكان برائحة المسك الأذفر من جرّاء سيرهم على تراب شاطىء الكوثر، وعكست قباب اللؤلؤ المجوّف على حافتي النهر، لمعان الدر والياقوت في مجراه.

«ماذا تتوقّع من نتائج للمؤتمر؟» همس الناصر لياسر وقد أبعدهما الطريق رويداً عن الكوثر.

«لم أشهد في حياتي على الأرض أي مؤتمر يعطي نتائج نافعة للمشاركين. هنا الأمر بيد العزيز السميع. إذا اتفقنا على شيء، فربما ينصت إلينا، لكن اختلافنا مبرمج سلفاً».

«حتى لو اتفق كل البشر والملائكة على موعد للقيامة فإن الخالق المتكبّر هو الوحيد الذي يعلم كينونتها وموعدها». جاءهما صوت عبد القادر من خلفهما بهدوء لا يتناسب مع درجة الحسم فيما قاله.

«سنقضي إن شاء البارىء وقتاً ممتعاً في الاستماع إلى تقارير

اللجان». قال الحلبي لعبد القادر على مسمع من ياسر والناصر ورونالد وآخرين كانوا صامتين إذ لم يخرجوا بعد عن سحر منظر الكوثر.

«من يراهن بأن تقرير أحد اللجان سيقترح زلزالاً يحرِّكه القهار لإبادة الخلق؟» التفت أكثر من واحد إلى شمشون وسمع صوتاً من خلفه يخبره بأن المراهنة حرام. وسأله رونالد إذا كان هذا أحد مقترحات اللجنة النسوية التي يشارك فيها. لم يعلِّق شمشون أو يجب عما سمع إذ وصلوا إلى قاعة الاجتماع وانشغل الجميع بالبحث عن أعضاء لجانهم أو من سيجاورون في الجلوس.

أفاق المنصور على تهليل فرح من ياسر، واستدرك أن جبرائيل يتحدّث في افتتاح الجلسة الأولى عن عفو الغفار، وإدخال الرضّع النصارى إلى جنّتهم بعد طول هيام بين الجنّات والنار. هكذا لم يتطلب الأمر نقاشاً أو تصويتاً، فاستبشر ياسر خيراً بأن بعض ما يفكّر فيه قد يستجاب له من الرحمن الرحيم بسهولة. «رحمة الملك القدوس أوسع من حشرها في أطر دينية أو حزبية أو عرقية». شعر جمال وخالد وكمال بأن كلمات جبرائيل هذه موجّهة لهم كإجابة عن مخططهم لحشد تأييد لقيامة خاصة على مقاس الأميركان. «لقد أباد الإنسان بأفعاله الأنانية آلاف الأصناف من المخلوقات التي صنعها الوهّاب الرزّاق، الذي يمهل ولا يهمل». لكن لماذا لم يمنع الجبّار إبادة البشر لمخلوقاته؟ سأل حسين نفسه، ثم سرح في أفكاره من دون أن ينصت إلى بقية حديث جبرائيل. خمّن أن عدم تدخل المقتدر لمنع إبادة الحيوان والنبات يعني أنه بالتأكيد لن يتأثّر لمطالب تقديم أو تأخير القيامة، ولن يمنع البشر مجدداً من ممارسة حروب رهيبة ضد بعضهم قد يكون بعضها بحجم القيامة. تذكّر أن الجنّة لا تحتوي على الحيوانات الأرضية التي يعرفها أو الأجناس

التي سمع أنها أُبيدت. لا توجد فيها أفيال ضخمة أو ديناصورات أو حيوانات مفترسة مثل التي أُبيدت بفعل غير بشري. حيوانات وطيور الجنّة أنواع خاصة تماماً ولم تعش على الأرض.

«المهيمن العليم يسمح بمؤتمر لنساء الجنّة تحضره ممثلة منتخبة عن كل طبقة للنقاش في أمرين: هل يردن المساواة هنا في الجنّة أو لأخواتهن على الأرض؟ وهل يردن المساواة بالتشبّه بالرجال أو بتشبّه الرجال بالإناث؟» تململ الحضور وهمهموا عند سماع جبرائيل يلقي على أسماعهم بهذه المفاجأة والأفكار التي لم تكن تساور غالبيتهم.

«ذهب عملنا سدى ولم يعد ممكناً طرح أي مقترحات من لجنتنا». همست عثترت لهانيبال الذي لم يعلِّق إلّا بحني رأسه وببسمة صغيرة على وجهه. دار في رأسه أنهن لن يتّفقن على أي إصلاح يردن، في الجنّة لأنفسهن أو على الأرض لأخواتهن، ولن يستقررن على رأي حول نوع المساواة، وسيكون المؤتمر أشبه بلقاء لمائة حزب كل يعارض الآخر. وسعت ابتسامته وقد مرّت به خاطرة أنهن سيتفقن على أنهن قليلات عقل.

«لن يتّهمننا بأننا قصرنا في حقهن، وها هو الحليم عرف وحسم الأمر ويضع أمرهن بين أيديهن». أسمع ياسر، رفيقه في لجنة النساء، شمشون، بهدوء ولكنه تأكّد في قرارة نفسه أن الأمر سيكون بمثابة اختبار لهن بشكل ما، أو بالأحرى ردّ كيدهن إلى نحورهن. مهما كان قرارهن سيُنظر إليه كتدخل فيما لا يعنيهن وعدم قناعة بما منحهن الباسط البصير. أشارت عثترت بإصبعها لياسر أن يقترب منها، فمدّ رقبته ووسطه وارتكز على شمشون الذي يجلس بينهما. سألته عثترت إذا كان وضع النساء المسلمات أيام حياة الرسول أفضل من وضعهن الآن على الأرض. طلب من

شمشون أن يجلس مكانه، ثم قال إن حياتهن كانت أفضل من ناحية اتخاذ القرار والمساواة مع الرجل. كن مقاتلات مثل الرجال وتاجرات، بل كن يخطبن الرجال للزواج منهم: «هل تعرفين أن السيدة خديجة خطبت نبيّنا المصطفى وكانت تكبره سناً ومتزوجة رجلين من قبله، فوافق وتزوّجها وكانت أولى زوجاته؟» لم ينتظر من عثترت إجابة وحدّثها عن سيدة أخرى دخلت على الرسول بين أصحابه وخطبته فسكت حتى طلب أحد الحضور أن تخطبه هو إذا كان الرسول لا يريد الردّ، فتوسّط الرسول بينهما وتزوّجا. لاحظ ياسر علامات تعجب على وجه عثترت فاستجمع واقعة أن عمر بن الخطاب وبعد استشهاد زوج ابنته حفصة خطب لها أبو بكر، ولكن هذا لم يرد بقبول أو برفض، فخطب عمر لها عثمان بن عفان الذي أجابه بأنه لا يرغب في الزواج هذا العام. نظرت إليه عثترت للاستيضاح فأخبرها أن عدم رد أبو بكر كان سببه معرفته بأن الرسول كان يريد الزواج من حفصة، ولذلك لم يعرف كيف يرد على عمر من دون أن يفشي بسر الرسول الكريم. «أين وضعهن في المجتمع آنذاك مما هنّ فيه الآن». ختم ياسر الإجابة، وتنبّه إلى أن شارل قد أخذ الحديث من جبرائيل ويطلب من اللجان توزيع تقاريرها على الجميع مكتوبة بدل تقديمها خطابة، ومن ثم الاكتفاء بنقاش المحتويات والمقترحات.

«بسم الفتاح القابض أدعوكم لملاحظة بعض ما يجري على الأرض الآن. 18 ألف طفل يموتون جوعاً كل يوم، ومائة مليون من خلق اللّه يعانون المجاعة، وآباء وأمهات يبيعون أطفالهم للعبودية بأقل من خمسين دولاراً لا تكفيهم لشراء المياه والطعام لأكثر من شهرين، ويظنّون أنهم فعلوا خيراً بضمان حياتهم لبضعة أسابيع وتأمين الطفل في العبودية من المجاعة». استدار الخميني

بنظره إلى الجهة اليسرى لينظر إلى بقية المؤتمرين، وواصل حديثه: «ثم انظروا للمتخمين إلى درجة المرض، هل ترون القوم المحتفلين الآن هناك في برلين؟ بعضهم شبه إعداد الطعام وتنسيقه ومشكلة توزيع الضيوف على الطاولات وكأنه عمل في الجحيم، وها هم يلتهمون ما أمامهم من دون أن يعرفوا مواده أو ينتبهوا لجماله أو يتحاوروا مع جيرانهم. إنه أشبه بثور اللّه في برسيمه». أعاد نظره إلى اليمين وما زال يمتلك انتباه الجميع، فهو أول المتحدثين بعد استراحة الافتتاح وتوزيع التقارير والتوصيات: «أمنيتي أن ينال الحكم اللطيف قريباً من أهل الظلم ويرحم المظلومين في الأرض بجنّات في السماء».

«المفارقة أن المتخمين يعانون على الأرض أيضاً وربما تسيح دهونهم إثر يوم الحساب». قال أبو الغصن، بعد الاستئذان بالحديث: «حتى غير المتخمين تعساء في بلاد الوفرة، غالبية الأطفال المراهقين من الجنسين هناك غير مبسوطتين في حياتهم، مع العلم أن عشر أطفالهم هناك يعانون الوزن المرضي الذي يجعلهم يستبدلون المشي بالتدحرج. وهذ الوضع شبه عام في بلاد الأغنياء. الغني يعاني الكثرة والخوف على ما يملك، والفقير يعاني من الجوع، وكل شيء في النهاية يتمّ بأمر اللّه».

«هذا تعميم يا جحا، إذا لم أقل إنها مبالغة لا يُفهم منها موقفك تجاه هدف هذا المؤتمر». ومن دون أن يعطى أبو الغصن فرصة فورية للردّ أضاف ابن خلدون بهدوء الواثق: «الفقر والغنى لا يحدّدان درجة الشقاء أو السعادة. بعض شعوب أفريقيا تشعر بتعاسة قوية، بينما شعوب فقيرة مثلهم في أميركا اللاتينية تحتل المراتب الأولى في خارطة السعادة. والعكس أيضاً صحيح لكون شعب غني كالأميركي يأتي في أواخر الشعوب السعيدة. الناس يسعدهم توفُّر

الصحة، والزواج الموفق وتوفُّر الأصدقاء، وبالطبع مستوى تعليم جيد ووضع معيشي حسن. بوسعي عبر المراقبة من هنا تأكيد نتائج مسح اجتماعي أشار إلى أن سكان جزيرة فانوتو الصغيرة في المحيط الهادئ هم أسعد البشر على وجه البسيطة، بينما جاء الشعب البريطاني في المرتبة الـ 108. شعب دولة غنية جداً مثل اليابان يحتل مرتبة 92 وألمانيا في المرتبة 81 بين التعساء والسعداء. لا توجد علاقة بين مستوى غنى الدولة ونسبة السعادة التي تتحقّق لمواطنيها. سكان الجزيرة البريطانية يريدون من حكومتهم المساهمة في توفير السعادة وليس الثراء، فهم يعرفون أنهم في قمة توفُّر ثرواتهم منذ بداية تاريخهم، ولكنهم أبعد من الفقراء عن السعادة وراحة البال. هذا لا يعني بالطبع أن كل الشعوب الغنية تعيسة، فشعوب الدانمارك وسويسرا في مقدمة السعداء».

«أوافقك على ما قلت، فأنت العالم الاجتماعي المراقب لما يجري، لكن هل توافقني أن كل شيء يدور بأمر اللّه الحفيظ؟».

«تعرف أني أوافقك على ذلك يا جحا، وأعرف أنك تريد توظيف موافقتي هذه بالقول إن جنّة الإنسان وجحيمه ترافقانه في حياته، وكما نرى الآن، في مماته أيضاً». ضحك الحضور من مجادلة النقيضين على الأرض الملتقيين في سكنى الجنّة وحضور المؤتمر.

«لا تقلّلوا من أهمية المال في توفير السعادة، فهو والبنون زينة الحياة الدنيا كما أخبرنا الحسيب الكريم في كتابه العزيز...».

«أسكت يا رونالد». صرخ به أكثر من واحد، وتطوّع الخميني ليشرح له بعض الشيء الكثير الذي لم يسعفه الوقت لإيضاحه له في السابق.

«الحديث عن المال والبنين في سورة الكهف جاء نقداً لمن يقولون إنهما زينة. هما عند البعض زينة الحياة الفانية كما ادّعى عيينة بن حصن، فجاء الردّ بأن ذلك غرور يمرّ ولا يبقى. والمعنى كأن يقال لا تعقد قلبك مع المال، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾. وقال علي رضي اللّه عنه: الحرث حرثان، فحرث الدنيا المال والبنون، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات». لم يقتنع رونالد بما سمع، بل إن ما سمعه عن علي الآن يؤكد تفسيره الذاتي، وظنّ أن الخميني أراد عمداً الصدّ والردّ.

«مهما كان التفسير..» قال بصوت الواثق: «فأنا كنت أشعر بسعادة أثناء التسوّق وإنفاق المال على المشتريات. صحيح كانت سعادة موقّتة لا تقارن بالسعادة التي عشتها مع زوجتي، ولكن لا يستهان بها لأنها قابلة للتكرار لمن يملك المال».

«كل شيء بميزان». قال سليمان بعد أخذ موافقة شارل بالتحدث. «السعادة لها منابع، طاعة اللّه هي أغزرها، كما أن إتيان العمل الصالح يعزّز الترابط بين السعادة النابعة من الروح والأخرى الناتجة من الممارسة الحياتية». تأكدوا أن سليمان بصدد المزيد من الشرح، فتناول الكثير منهم رشفات مما بين أيديهم من شراب: «أطع اللّه واعمل صالحاً، ثم استمتع بما تعمل لكسب رزقك وانغمس فيه ليكون عملاً متقناً. هكذا يكون لحياة الإنسان معنى، ويرضى عن ذاته، فيتدفّق عليه نهر السعادة. والذي تبقى السعادة بعيدة عنه، عليه أن يحاور نفسه ويتحدّى الأفكار السيئة التي تنتابه ويحلّلها ثم يقارنها بما لديه من نِعَم ربانية. من ينقصه شيء سيجد أن لديه أشياء أخرى».

«إذا كان حديثنا هذا مرتبطاً بهدف مؤتمرنا، فإني أحثّكم على

أخذ مقياس آخر لتحديد درجات سعادة الناس على الأرض». قال المنصور ثم نظر إلى سليمان وواصل: «لا أدري كيف خفي عليك الأمر يا سيدنا. الرغبة في الجنس وقوة المناكحة هما دليل متكامل لقياس درجات السعادة. الأشقياء لا يتناكحون بكثرة ولذّة، وبالكاد يحافظون على تواصل قومهم عبر التوالد. لقد راقبت الأندلس وتطوّرها، وأصدق ما توصلت إليه فحوصات بأن حيواناتهم المنوية هي الأقوى والأنشط والأغزر بين بقية الشعوب...».

«هذا معناه أن الشعب الفلسطيني الآن هو أسعد شعوب الأرض». قاطع رابين المنصور فالتفت الجميع إليه لاستيضاح هذه المداخلة: «لا أدري عن نشاط منوياتهم، ولكنهم الأسرع نمواً عبر التوالد، ويشتهرون، بل يتفاخرون مثل كل المكبوتين جنسياً، بتسخير الكثير من وقتهم في التفكير بالمناكحة والزواج. حتى ضمن بعض المقاييس السليمانية فهم يكثرون من طاعة اللّه ويعتقدون أن تأييد حركة حماس ضمن العمل الصالح، فهل هم سعداء من دون أن يدروا؟».

«كالعادة فأنت تلوي كل شيء ليناسبك. لقد تحوّلت فلسطين، بفضل سياستكم، إلى سجن وإلى بلاد طاردة لخيرة شبابها. بل إن سياستكم ستكون طاردة لكم أيضاً لولا غزارة الدعم المالي الأميركي المتواصل لمعيشتكم». تدخّل شارل طالباً من جمال التوقف عن إقحام قضية فلسطين، فسمع أصواتاً تستهجن طلبه هذا وتساءل البعض لماذا يدور النقاش حول سعادة وشقاء أي شعب إلّا الفلسطيني، وصاح آخر بأن رابين هو الذي أقحم القضية بهذا الشكل السلبي.

«خذوا استراحة الآن قبل مواصلتكم الحوار لتقرير اللجنة الاجتماعية». قال جبرائيل للحضور، وهمس لشارل بأنه لم يكن من

السليم إتاحة فرصة حديث لرابين، ثم مقاطعة سريعة لحديث جمال في الشأن نفسه.

كان حسين وعز الدين وعبد القادر آخر المغادرين، وبدل الخروج من القاعة أخذتهم الملاحظات الأولية التي تبادلوها عن سير الاجتماع، إلى حديث أوسع أبقاهم في القاعة. انتحوا جانباً وجلسوا بالقرب من الباب.

«القضايا الأساسية المصيرية للبشر تتفاقم مع الأيام بدل أن يجدوا لها حلولاً. خذ الماء مثلاً، إذ أصبح اليوم بليون من البشر لا يحصلون على مياه الشرب النظيفة، وكثرة منهم يعانون شحّ أي مياه أصلاً. هذا العدد سيتضاعف ثلاث مرات في أقل من عقدين. عن أي سعادة إذاً يمكن الحديث؟ ابن الشمال الغني يتاح له في المتوسط استهلاك خمسمئة متر مكعب، وفي بلاد الفقراء هناك سبعة وثلاثون متراً سنوياً فقط».

«سيقولون لك الأمور نسبية، والعظيم يساعد الذين يساعدون أنفسهم». ردّ عبد القادر على استغراب حسين، ثم أضاف: «لا تنس أن نهر النيل العظيم يمرّ في بلاد تعاني شحّ المياه، ولكن خمسة بالمئة فقط من مياهه يستغلها البشر والباقي يصبّ في البحر المتوسط». نظروا إلى بعضهم بعضاً في أسى وتأسف. أكمل عبد القادر حديثه في مجال آخر: «إذا كان ذكور الدول الغنية يفقدون خصوبتهم نتيجة لتعقيدات الحياة الحديثة وربما بسبب الكيماويات في الطعام والتلوث في الأجواء، فهل يمكن أن نقارن تعاستهم ببؤس الفقراء المحرومين؟ أو بشكل آخر، هل يفضّل الناس أن يموتوا، ببطء وتخمة، أم يموتوا نتيجة لحياة فقر وحاجة؟».

«عندما يستحكم المرض ويقترب الموت سيتمنّى كل من الفقير والغني لو كان مكان الآخر. لكن الموت حق والحياة قصيرة مهما

طالت، والخير في تسخيرها للعدل والحق. بهذا تنعم بحياتك مهما كانت مطعمة بالدسم أو مغمّسة بالقحط المادي، والأهم أنك تضمن آخرتك. لو حصل تصويت في المؤتمر، سيُعمل بنتيجته، فإني سأعطي صوتي لاستمرار الحياة على الأرض وترك البشر وبقية المخلوقات يتداولونها فيما بينهم. المصائب تأتي من الكسالى الاتكاليين، وأيضاً من الذين لا يؤمنون فعلاً بالحياة الآخرة، فتراهم يُفسدون على كل المستويات في الحياة الدنيا». لم يستغربا موقف عز الدين فقد كانا أيضاً من أنصار النضال العادل على الأرض، الحياة بعزة، أو الموت بكرامة.

إرادة اللّه

«ربما بالفعل سيقيم البشر قيامتهم ذاتياً». كان هانيبال أول المعلّقين على مضمون التقرير الجديد، ولم يكن قد شارك بفعالية في النقاشات التي سبقت، كما لم يُتح لفريق اللجنة النسوية تقديم أي شروحات. «كقائد حربي يمكنني القول إن أخلاق المعارك منذ أيامي حتى الآن تهبط للأسوأ وتنعدم على أرض الواقع قوانينها الإنسانية أكثر فأكثر. يستشهد بعض القادة العسكريين الآن بما فعلت أنا وينقلون عني التكتيك الذي استعملته في معركة (كانوا). لكنهم يتناسون الشروط الإنسانية التي قدّمتها آنذاك للرومان ورفضوها فكان ما كان. أين الفروسية الآن في تصرفات معتدين يلقون بالحمم من على بعد ومن الجو ولا يرون النتائج وإذا ما كان الضحايا أطفالاً أبرياء أو جنداً مدافعين؟» عاد هانيبال إلى بعض الهدوء وهبط صدره قليلاً وواصل: «أريد القول إن شؤون الأرض تسير سلبياً تحت تأثير سيطرة غطرسة أصحاب القوة وممارسي العنف ضد الأمم الضعيفة، ولا أستبعد أن يبيد البشر أنفسهم بدل أن يدمّرهم القدير المجيب. عجزت على الأرض عن تناسي إنسانيتي ففشلت في قهر روما، لكن البرابرة من جيرانها استولوا عليها فيما بعد. الآن يسيطر البرابرة الجدد على حاضر الأرض، وربما إرادة اللّه تقضي بأن يقيموا القيامة».

«استنتاج سليم بأن القوة تهيمن، وقد تكون القوة متخلفة حضارياً

وبربرية. لكن الاحتمال الأرجح للمستقبل هو أن يفيد الأغنياء الأقوياء، غيرهم من الفقراء الضعفاء عسكرياً، سواء كانت إبادة حربية أو عبر التجويع وسياسة الأسوار العالية وتعميق الفوارق».

شرب الإسكندر بعض النبيذ وأضاف:

«الجنس الأبيض متّفق ومتفوّق على بقية الأجناس الملونة، ولا أعتقد أبداً أنهم سوف يبيدون بعضهم بعضاً...».

«لكن البيض هم الذين أشعلوا الحروب العالمية ضد بعضهم البعض، وهم الذين يمتلكون الأسلحة النووية والفتاكة ويتنافسون فيما بينهم على الهيمنة بينما بقية الأمم تائهة بين الأرجل». تدخّل مارتن مقاطعاً الإسكندر وسط اهتمام وتأييد من المشاركين: «حتى لو لم يقتلوا بعضهم بعضاً فإن نتاج أسلوب حياتهم من نفايات وغازات قد بدأ يؤثّر في مناخ الأرض وحياة سكانها سلبياً، وإذا لم يوضع حد لإصلاح العطب فقد تكون بداية النهاية للجميع. أرى غالبية البشر على الأرض سكوتاً في مواجهة هذه الأخطار رغم أنها بداية النهاية للحياة الفردية والجماعية لكل منهم. شعب ألمانيا، الذي يعتبر ذاته يعجّ بالأذكياء، لا يتحرّك ضد موت 65 ألف منهم سنوياً من تأثيرات الاختناق بعوادم السيارات ودخان المصانع، هذا دون ضحايا التدخين وشرب الكحول وحوادث السيارات، ولكنهم ينبهرون إذا قتل تلميذ رفاقه في المدرسة».

طلب أوربان الثاني الإذن بالكلام، وقال من دون أن يلتفت إلى مارتن: «إبادة الكفار تكون على يد المؤمنين، وإذا كان في ذلك إيصال الجميع إلى يوم الحساب فليكن ما أراد له الرب أن يكون».

«نعم، صدق البابا». قال طارق وقد أيقظ ترقُّب القوم بما سيكمل حديثه، إذ لم يكن قد أدلى بأي رأي طوال فترة اللقاء في الفردوس. «المؤمن سيبيد الكافر إذا أصرّ على الكفر، وإرادة الرب

هي التي سوف تسود، ولكني لا أراها باتجاه القيامة. أرى الأقوام الغنية تنقرض طوعاً بالعديد من الأساليب، ويحلّ مكانها رويداً رويداً الفقراء المهاجرون. ربما انتهى الأمر باختلاط الأجناس، وربما كانت إرادة الحكيم الودود أن تبيد بعض الأجناس ذاتها من دون قيامة شاملة».

«أميركا» قال صلاح الدين: «ليست بلاد كفر، بل على أرضها تتجدّد الأديان الثلاثة، ولولا مؤامرة الحادي عشر من سبتمبر، التي انطلت على أغلبية أهل الأرض، لكان وضع وتعداد المسلمين في تفوق نسبي متواصل». كلمات لم تنعكس نتائجها على ملامح الفرقاء إن كانوا معها أو ضدها: «أميركا أيضاً كما نعرف ونرى ليست من عنصر بشري واحد. أُبيد سكانها الأصليون تقريباً على يد خليط من المستوطنين الغزاة الذين توافقوا على الطمع والأنانية، ثم جلبوا العبيد من بقاع العالم واستعبدوهم لقرون حتى تحوّلوا الآن إلى جزء من النسيج الاجتماعي بفضل نضالات أجداد وأمثال أخينا مارتن. الآن تعود البلاد بسرعة تحت تأثير البشر من أميركا اللاتينية، أقارب الذين أُبيدوا في مطلع تكوين هذه الأمة. يعني بعد جيلين أو ثلاثة سيضعف تأثير العنصر الأبيض وستعود أميركا إلى وضع مسالم بين الأمم. إذا كان سبب التخوف من قيامة بشرية مرتبطاً بصراع بين الأجناس فالأجدر أخذ الحذر من الصين أو اليابان. هذه أمم لا تؤمن بدين سماوي، وتركّز على النقاء العنصري. ويرى الكثيرون من سكان الأرض الآن أن الصين معادل إيجابي وضامن مضاد لتهوّر القيادة الأميركية البيضاء الغبية، علماً بأنهم يؤدّون البنات، وتتّسع بينهم هوة الفقر والغنى. بعضهم يقبض رواتب مثيله الأميركي وبعضهم يقلّ راتبه السنوي عما يتناوله نظيره في شهر واحد. أناس يعاملون بعضهم بعضاً بهذا الشكل والظلم

وبقانون النمل، وأصبحوا ثالث أغنى دولة، كيف سيعاملون الآخرين إذا سادوا؟».

«الذين لا دين لهم لا جنّة للصالحين منهم، ويُعذّبون بعضهم بعضاً على الأرض، ويستكمل عذابهم في جهنّم». نظر بعض المنتبهين لما يدور من نقاشات باتجاه الشيخ يوسف بشيء من الاستغراب: «يحرمون من الجنّة ويتعذّبون في النار لأنهم يعرفون بوجود الأديان السماوية ولا يعتنقون أياً منها».

«إن اللّه يهدي من يشاء يا شيخ، هل نسيت ذلك؟ الصين واليابان، وأمم أخرى...» كاد رونالد أن يقول والعرب ولكنه استدرك وواصل: «... سخّرهم المصور الخبير لخدمة الشعب الأميركي المؤمن. ميزانيتنا السنوية قائمة على ما يقرضوننا. بلادنا هي أكبر مستدين بين الأمم في كل العصور، وأصحاب الديون لا يجرأون على المطالبة بها أو حتى سحب المدخرات من بلادنا، لأن انهيارنا الاقتصادي يعني دمارهم وإفلاسهم أيضاً. هذه بعض حكم ربك في خلقه».

«رزق المجانين على الهبلان». فكّر حسين وسرح بخياله فما يدور من جدل عقيم في شأن كان مصيره على الدوام محتوماً محسوماً بيد العظيم الشكور. حاول تفهم الحكمة في تقبل تعذيب الشعوب الطيبة على الأرض بفعل أميركي مرتكز على نقود مستدانة أو منهوبة أو مبتزّة من عرق شعوب تحتاج إليها أصلاً. سياسة أميركية تؤدِّي إلى نزوح ملايين العراقيين عن بلادهم واشتعال حرب داخلية مجنونة في ظروف لا يصدّقها حتى من يراها، وتشيح عنها أعين مشاهدي التلفزة كل مساء، وذلك كله تحت مسؤولية قانونية للدول التي تحتل العراق. استعاد منظر رحيله عن قريته في فلسطين، ذلك اليوم المشؤوم. كان هو مختار القرية حيث رابطت

القوات المصرية التي رفضت التقدّم باتجاه تل أبيب رغم تهيئة الظروف. عندما انسحبت القوات هل الناس من الخوف بعد أن سمعوا عما فعلته العصابات الصهيونية في دير ياسين. أقنعوا أنفسهم أنه انسحاب موقّت وسيعودون بعد أيام. مرّ شريط طويل مثقل بالتفاصيل في مخيلته. «هل تتكرّر مأساتنا مع العراقيين؟» محتلوهم مجرمون لا يحترمون قانوناً أو أخلاقاً، والعالم الذي أيّد أو سكت عن العدوان عليهم ها هو عاجز عن فعل شيء لهم. على الأقل لا يوجد لديهم احتلال استيطاني، فالأميركان والإنجليز يصدق عليهم الآن القول (خلّصني وخذ عباءتي) لكن الخلافات المذهبية بين العراقيين على ما يبدو لن تهدأ لعقود، والتشرد في النهاية هو التشرد مهما كان السبب. «أعانهم المقيت الواسع، وقصر عصر معاناتهم، وأعاد بلدينا من طاردة لشبابها إلى مستقبلة لهم. إن حكمته أوسع من أن نستوعبها كاملة وما علينا في الحياة، الدنيا أو العليا، سوى الإيمان العميق بإرادة السلام المؤمن الكبير».

لم تكن المناقشات لتقارير اللجان تحمل أي جديد عما قيل في السابق أثناء الحوارات حول موائد الطعام وجلسات الشراب. لا رأي ثابت لغالبية المؤتمرين إذا ما كانوا يفضّلون تأخير أو تقديم موعد القيامة. كلهم عرفوا أن آراءهم لن يؤخذ بها من الحي القيوم حتى لو اتفقوا، فهم ليسوا ممثلين عن كل البشر من كل العصور، وحتى لو كانوا كذلك فالواحد الصمد هو صاحب القرارات كلها، ناهيك عن حقيقة أنهم لن يتفقوا. بالرغم من ذلك كانت التقارير تعجّ بالشروحات والآراء والاستنتاجات. قيامة محدودة على شكل سينامي أو زلزال لمدن يكثر فيها العقوق، أو الكفر، أو يقطنها الأغنياء. إعصار ينذر الظَلَمَة أي منقلب سينقلبون وبأنهم على حافة

الهاوية. بل طرحت تمنيات بحوادث نووية في بعض المدن والبلاد التي تصنع هذه الأسلحة الفتّاكة. اشتملت تقارير أخرى على تحبيذ الإسراع بالقيامة لإنقاذ الفقراء. مقترحات أخرى اكتفت بتحسين الوضع على الأرض مثل وقف التصحر وإغداق السماء بالماء على الأمم العطشى. أحياناً علّق البعض بأن كل ذلك يتمّ باستمرار على الأرض، ولكن في أماكن من اختيار رباني، هو الذي يغرق بماء السماء والأنهار والبحار، أو يحرق بنار الشمس، ويجلد بالرياح والعواصف، وبالتالي فالأجدر القناعة بحكمة المقدم المؤخر فيما يجري.

«أتمنّى على التوّاب العفو الرؤوف أن تكون أهوال يوم القيامة، عندما يأمر بموعدها، في مجال تحمل البشر، وأن ينزع القوي المتين الخوف من قلوب الذين يعرف أنهم إلى الجنّة قادمون». ارتفعت الأصوات بكلمة آمين في نهاية حديث حمورابي في الجلسة الختامية.

تعلّقت العيون بجبرائيل وهو يقصّ عليهم الخبر اليقين والأخير. «لم تتّفقوا، وفي قلب كل منكم قراء الظاهر الباطن رغبة ذاتية تفوق بقية التمنيات. المجيد الشهيد استجاب لأمانيكم في إطار الحياة الأبدية». ارتجفت بعض الركب رهبة من تذكُّر أن الحق اطلع على ما يدور في عقولهم، وانتعشت آمال آخرين بالاستجابة لأمنياتهم الشخصية. «الوكيل الولي يخيّر غير المسلمين منكم بالعودة من حيث جاؤوا أو الاستقرار في الطبقة السابعة من جنّة المسلمين». نظر رونالد فيما حوله بسرعة وأعاد ناظريه باتجاه جبرائيل. «التخيير بين الطبقة السابعة هنا أو العودة من حيث جئتم». فهم رونالد أنه لن يذهب إلى جنّة النصارى في انتظار زوجته، ولم يتشوّق لما عايشه في جهنّم، فسبّح بالحمد للحميد الواحد مع الآخرين الذين

استفادوا من نعمة الواحد عليهم. رفع المسلم الوحيد القادم من جهنّم رأسه متسائلاً إذا كان مستثنى من رحمة الصمد. «لقد عفا القادر عنك». جاء صوت جبرائيل للمنصور فارتسمت ابتسامة عريضة على شدقيه وزالت بقايا آثار الحروق عن وجهه واشتدّ عوده تحت أنظار المسبحين لنعمة الأول الآخر فأصبح مثلهم ولا يميّزه عن أي منهم إلّا اختلاف بسيط في بعض ملامح الوجه.

«أتودّ يا شيخ أن تجتمع مع رابين قبل الإذن لنا بالعودة إلى جنّة اليهود؟» شكر ياسين شمشون من دون أن يعطيه أسباباً لرفض اللقاء، ولم يسأله إذا كان رابين قد طلب منه تقديم هذا الاقتراح أم لا.

«سلّم كثيراً على دليلة، كم كان بودّنا رؤيتها، أليس كذلك يا أخي ياسين؟» وافق الشيخ على كلام ياسر وحاول أن يثني شمشون عن المغادرة باقتراح أن يسأل جبرائيل إذا كان من الممكن إحضار دليلة إلى هنا أيضاً.

«لن تقبل». قال شمشون وأوضح قبل أن يستعجب ياسر وياسين: «ستفرح برؤيتكما لوهلة، ولكنها غيورة جداً ولن تتقبّل وجود حور العين في خدمة الذكور. سيكون وضعي صعباً على الدوام بإثبات أنني صامد أمام إغرائهن». ضحك ثلاثتهم بقهقهة عالية: «سيبقى عندكم سيدنا سليمان، كما قرّر حاسدي وربيع البقاء قرب الناصر، وسمعت أن مارتن ممنون لنعمة المتعالي البر، لكن أوربان فضّل العودة إلى القبر بانتظار يوم القيامة».

«لقد انشرح صدر عثترت حين عرفت بنعمة الملك عليها، بل هي نعمة مزدوجة كما قالت لي، إذ ستبقى هنا وستمكث في السابعة بين المنتفضات». عبس وجه ياسر قليلاً بعد سماعه شمشون

يتحدّث عن بقاء عثترت، إذ تذكّر إقامته في السابعة، فطمأنه ياسين بأنه سيكثر من زيارته وسيحثّ الآخرين على ذلك، ووعده بأنه لن يشعر بفراق عمّن يريد رؤيتهم في الطبقات العليا.

«ثم إن ضيوفك كثروا في السابعة الآن. سيجاورك حمورابي وهانيبال وديجول ورونالد ومارتن والآخرون، وبالطبع لا تنس الإسكندر». قطع الضحك حديث ياسين، واستأذن شمشون في الذهاب لتوديع بقية المؤتمرين: «سيكون وقتك ممتلئاً أيضاً بقضية النساء والإعداد لمؤتمرهن، وكلما أردت أن تنغص بدنك وتشغل بالك أكثر راقب جماعتنا على الأرض».

«آه لو كنت موهوباً بالتواصل عبر الحلم مع الأرض؟».

«ماذا ستفعل؟ يعني ستحرِّرها من هنا بعد أن فشلت طوال عمرك في تلك المهمة وتركت للناس فئات ربيتها بفلسفتك ويسعون في البلاد تخريباً». أجاب ياسين على أمنية ياسر بالتواصل مع الأرض من دون أي نبرة غضب، ولكنه تردّد في أنه سيزوره بالفعل فيما بعد في الطبقة السابعة. لاحظ الدهشة على وجه رفيقه من هذا الهجوم السلس فأضاف ياسين: «اتركها للغني الوارث يا رجل فللبيت رب وشعب يحميانه. لم يعد لنا هنا سوى المراقبة».

«الحمد للّه أن غيبوبة شارون طالت، تصوّر لو مات قبل المؤتمر وطلبه أحدهم هنا كمتّهم، ثم تشمله منحة اللّه البقاء عندي في السابعة». تنفّس ياسر بارتياح، وسأل عن سبب الابتسامة التي اعتلت وجه ياسين.

«أنظر إلى تلك العجوز في القدس القديمة. لقد احتلّ المستوطنون من جماعة شارون منزلها، ولكنها ترفض الخوف

والاستسلام. تصرخ طلباً للنجدة من القادة العرب ولا من مجيب أو مغيث، لا من أهل السلام والعلاقات ولا من أهل الحرب. تواصل تعكير حياة المستوطنين بوجودها والدعاء عليهم جهاراً طوال النهار. يظنّون أنهم يحاصرونها، ولكننا لهم في كل مكان مُحاصِرون».